التصور السياسي للحركة الإسلامية

لفضيلة الشيخ رفاعي سرور رحمه الله

طبعة منقحة ومزيدة تنشر لأول مرة

* متى يكون طرح التصور السياسي؟
* الجواب عن دعوى أن الحركة الإسلامية لا تملك برنامجا سياسياً.
* المصطلحات الصحيحة ذات المدلول الجاهلي وطريقة التعامل معها.
* تقييم التجارب الإسلامية.
* صفات الزعامة السياسية.
* هل أمريكا هي من صنع أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟



التصوُّر السياسي للحركة الإسلامية

لفضيلة الشيخ/ رفاعي سرور – رحمه الله

]الطبعة الثانية[
طبعة منقحة ومزيدة وهي آخر ما كتبه الشيخ رحمه الله
- تنشر لأول مرة -

رجب 1433 هـ - 05 / 2012 م

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

[من أهم ضرورات الموقف السياسي: أن يتعاون المسلمون في إدارة الحرب ليكون لهم منطلق واحد، تجتمع فيه كل الطاقات الفكرية، وكل الخبرات العملية، وكل إمكانات المتابعة الواقعية.

ويحقق وحدة الموقف الإسلامي عدة مبادئ، أهمها:
- لا صراع مع مسلم.
- اعتبار الدخول تحت الغاية النهائية.
- التفريق بين العلاقة السياسية والعلاقة الحركية.
- التوازن في تقييم صواب وخطأ الاتجاهات الإسلامية المختلفة.
- الارتكاز على الحسم الواقعي لقضايا الاختلاف الفكري.]

يقدِّم المفكِّر الإسلامي الكبير الشيخ رفاعي سرور -رحمه الله- في هذا الكتاب الخطوط العامة للتصوُّر السياسي الإسلامي، الذي يتضمن الوعي بالواقع وحقائق صراع الإسلام والجاهلية، ويرسم ملامح الحركة الإسلامية إلى تغيير هذا الواقع وإعادة الأمة الإسلامية حكم نفسها بشرع ربها، ونهوضها -أمةً لا نخبةً- إلى دورها الشرعي القدري في مدافعة الجاهلية في صراعها الباقي إلى قيام الساعة.

فالسياسة عند الكاتب -رحمه الله- ليست هي ذلك الهامش الذي تستدرج إليه الجاهلية الحركة الإسلامية؛ فتستنزف قوتها في صراعات محدودة تسيطر عليها القوى الجاهلية وتمنعها من الخروج إلى التأثير في

مراكز القوى الدولية والاجتماعية.

ويحدِّد الشيخ رفاعي سرور -رحمه الله- في كتابه هذا أساليب الحراك الإسلامي إلى التأثير والتغيير، والعلاقة الشرعية والقدرية بين هذه الأساليب المختلفة، وتكاملها فيما بينها، وما يقابلها من الأساليب غير الشرعية التي تستنزف القوة الإسلامية، وتصرفها عن الاشتغال بالمواطن المؤثرة في الصراع الإسلامي مع القوة الجاهلية، كما يحدِّد فيه الأسس التي تقوم عليها العلاقة بين مختلف تيارات الحركة الإسلامية؛ حتى لا ينحرف مسيرها مع اتحاد هدفها.

وهو يبني تصوراته هذه على أساس عقدي راسخ، ونظرة حركية شاملة، وإدراك لأساليب الجاهلية في حربها على الإسلام، وخبرة بمواطن الخلل في صف الحركة الإسلامية؛ فجاء تصوره مرسوما بمعالم سياسية واضحة ومتينة.

فندعو القارئ الكريم إلى قراءة هذا الكتاب الذي كتبه مفكِّر إسلامي دقيق الفكر، وثاقب النظر، وكثير التأمُّل في آيات الوحي وأحداث القدر، فكانت كتاباته عميقة نافعة.

رحم الله عبده رفاعي سرور رحمة واسعة، ونفع الإسلام والمسلمين بما كتب وقال[1].

نخبة الإعلام الجهادي

---

[1] (?) يوجد في الكتاب بعض الإطلاقات والمفاهيم التي تحتمل عدة احتمالات ويمكن أن تُفسَّر بتفسيرات مختلفة, والإنصاف يحتِّم على القارئ أن يحمل ما يشكل عليه على المحامل الحسنة, ليتوافق مع سلامة عقيدة ومنهج مؤلف الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد للـه رب العـالمين، والصـلاة والسـلام على رسـوله الأمين، وبعد؛

هـذا الكتـاب محاولـة للوصـول إلى تصـور سياسـي للحركـــة الإســـلامية ينبـــني على نظريـــة سياســـية إسـلامية[2].. تقـوم على التأصـيل الشـرعي، والتحديـد الواقعي.

والحقيقـة الـتي يجب أن نفهمهـا قبـل طـرح النظريـة السياسـية الإسـلامية: أن الحركـة الإسـلامية هي وحـدها القادرة على تكوين نظرية سياسية صحيحة!

---

2 (?) ليس المراد بالنظرية السياسية الإسلامية في كلام الشيخ رفاعي - رحمه الله- , الفكرة التي تحتمل الصواب والخطأ, فهو لا يجعل التصور الإسلامي محتمِلاً لذلك, ولكن يعبرون بالنظرية -وهو مصـطلح قـانوني- ويراد به دراسة مواضيع يجمعها أمـر مشـترك, أو مفهـوم واسـع تـدخل تحتـه مسـائل كثـيرة مرتبطـة ببعضـها برابـط معين ، وقـد دخـل هـذا المصـطلح بعض العلـوم الشـرعية منـذ وقت قـريب بسـبب تـأثر بعض الشرعيين بدراسة العلوم القانونية **[الناشر]**.

ذلـك لأن للنظريـة السياسـية شـروطًا علميـة؛ وهي تكوين النظرية مع بداية مرحلة إنشاء الأمة[3] الـتي هي مرحلة «الدعوة»، ومن خلال المضمون الحضاري لهـذه الأمة دون انقطاع للوجود التاريخي لها[4].

والأمـة الإسـلامية هي الأمـة الوحيـدة الـتي تكـونت نظريتهـا السياسـية من خلال منهجهـا مـع بدايـة نشـأتها حتى تمام تلك النشأة.

والأمـــة الإســـلامية.. هي الأمـــة التي لم ينقطـــع وجودها التاريخي لحظة واحدة على هذه الأرض[5].

والأمة الإسـلامية هي الأمـة ذات المضـمون الحضـاري المطلق.. وهو الحق.

والآن -ورغم ذلــك- فــإن المســتقر في الأذهــان أن

---

3 (?) لأن لكل أمة مضمونًا حضاريًّا خاصًّا بها تنشأ عنه حركتها كـرد فعـل للحضارة المقابلة لها، وقيام الحضارات بمنطق الفعل ورد الفعل دليــل على أنها حضارات مصنوعة بشريًّا..

فالحضـارة اليونانيـة كـان مضـمونها الحضـاري المثاليـة الخياليـة.. والحضارة الرومانية كان مضمونها الحضاري القـوة البشـرية والماديـة، كرد فعل للمثالية.. والحضارة الفارسية كان مضـمونها الحضـاري الإلـه الحاكم (الذي يحكمهم من البشر)، كرد فعـل للقـوة البشـرية.. يسـعى إلى نقل مفهوم القوة من البشر إلى الإله.. والحضارة الكاثوليكية كـان مضمونها الحضاري التعصب، كرد فعل للحفـاظ على الكاثوليكيـة أمـام المذاهب المتعددة السـابقة عليهـا والمواكبـة لهـا.. والحضـارة القوميـة كــان مضــمونها الفــرد، كــرد فعــل للتعصــب الاســتفزازي للحضــارة الكاثوليكية التي أهدرت العقل البشري واجتهاد الفرد وقيمته.

4 (?) لأن الانقطـاع التـاريخي للأمـة يفقـدها قـدرتها على الاحتفـاظ بنظريتهـا، والدليل التاريخي على ذلك هو الانقطاع الحضاري للأمة اليهودية الذي تــرتب عليه أن تكونت النظرية السياسـية اليهوديـة في أوروبـا منقطعـة الصـلة عن المضـمون الحضـاري الحقيقي لليهوديـة وتبـني اليهـود المضـمون القـومي للحضارة الأوروبية، وعليه تكونت السياسة الحديثة لليهود.

5 (?) كما قـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظـاهرون**» (أخرجـه البخاري 13/306/ح 7311، والترمذي في الفتن) واللفظ للبخاري.

الدعوة الإسلامية لا تملك تصورًا سياسيًّا.. وقد جاء هـذا الادعاء في الابتداء كأسلوب خطير من أسـاليب التنقص الجاهلي للدعوة.. ولكن الادعاء استقر في الأذهـان في النهاية؛ لأن الدعوة لم تعلن عن تصورها السياسي بعد.

ولم يسـتطع هـؤلاء الـذين اسـتقر في أذهـانهم هـذا الادعاء التفريق بين عـدم وجـود نظريـة سياسـية، وبين وجود نظرية سياسية لم تطرح بعد.

ويبقى السؤال: لماذا لم تطرح الحركة الإسـلامية -في الواقع القائم- تصورها السياسي حتى الآن؟

والإجابة: إن طرح التصور السياسي للحركة هو ذاته عمل سياسي يجب أن ينضبط بأحكام النظرية السياسية ذاتها، ومن أهم أحكام هذه النظريـة.. العلاقـة الصـحيحة بين الفكر والحركة، وتصـبح القاعـدة في طـرح التصـور السياسـي للحركـة هي أن تبلـغ الحركـة مرحلـة القـوة السياسية.. فهل بلغت الحركة الإسلامية هذه المرحلة؟

نبـدأ بمناقشـة هـذا التسـاؤل، وأول حقـائق هـذه المناقشة: أن القوة السياسية تعرف بشواهدها، ومواقـع الـدعوة المنتشـرة في العـالم المستضـعفة أمـام الحكومـات الجاهليـة.. تـتراوح بين الوصـول إلى مرحلـة القوة السياسية التي تنطبق عليهـا هـذه الشـواهد، وبين مرحلـة الاستضـعاف الأولى، الـتي يعـبر عنهـا بالمرحلـة الفردية، مـرورا ببعض المواقـع الـتي ينطبـق فيهـا بعض هذه الشواهد دون غيرها.

ووصول واقع الدعوة إلى مرحلـة القـوة السياسـية -والتي تتوافر فيها جميع هذه الشواهد- يقتضي أن يطرح أصـحاب هـذا الواقـع تصـورهم السياسـي.. ويصـيروا ملـزمين بالـدخول في مرحلـة الممارسـة السياسـية

لدعوتهم..

أما الشواهد العامة للقوة السياسية فأهمها: أن أعـداء الدعوة يفكرون بمنطـق التعامـل مـع أصـحابها لا منطـق القضاء عليها، وهـذا هـو الشـاهد الأول؛ لأن نشـأة القـوة السياسـية تـأتي من خلال نظـرة أعـدائها لهـا وأسـلوب التعامل معها.

وأن تكون قضية أصحاب القوة السياسية مؤيدة على مسـتوى الـرأي العـام اجتماعيًّا وفكريًّا، وأن يكـون التعاطف مع أصحابها ثابتًا ومؤكدًا.

ويلاحظ في هـذا الشـاهد ألا يحسـب فقـط من خلال التأييد والتعاطف القـائم، بـل يشـمل مـدى قابليـة غـير المؤيدين لأن يكونوا مؤيدين.

وأن يمثل المعتنقون لقضية القوة السياسية كثرة عددية تبلغ مستوى القاعدة الجماهيرية، بحيث يصل مستوى تلـك القاعدة إلى أنها تكاد تمثل موقف «الشعب» أو الأمة.

وأن تمثـل هـذه الكـثرة نمـاذج متعـددة من جميـع المستويات الاجتماعية بحيث لا يمكن تقييـدها بمسـتوى اجتماعي معين أو فئة اجتماعيـة، ويشـمل هـذا الشـاهد وجود عناصر اجتماعية متميزة من كل طبقات المجتمع.

وأن تحقق الكثرة العددية بعناصرها المختلفة اختراقًا واضحًا لمجال ومستوى السلطة القائمة[6].

وأن تملك هـذه القـوة دائمـا رد الفعـل المناسـب إذا حـاول أعـداؤها التـأثير في قوتهـا أو إضـعافها؛ بحيث يتطلب رد الفعل المطلوب الإمكانيـات الماديـة اللازمـة

[6] (?) مثل مؤمن آل فرعون.

والاستعداد للبذل والتضحية بصفة دائمة ويقظة[7].

وأن يؤكـــد حجم القـــوة السياســـية في الواقـــع: المفاوضـات والمعاهـدات والاتفاقـات السـرية والعلنيـة بين القوة السياسية وأعدائها أصحاب السلطة.

فـإذا بلـغ موقـع من مواقـع الـدعوة مرحلـة القـوة السياسية بشواهدها المذكورة.. فإن على أصـحاب هـذا الموقـع بـدء الممارسـة السياسـية؛ ابتـداء من طـرح التصـور السياسـي لهم، والمنطلـق من واقعهم القـائم ومرحلتهم العملية.

ومن هنـا فـإن الممارسـة السياسـية الجاهليـة في مواجهتها للدعوة تقوم على منع الـدعوة من تحقيـق أيٍّ من هذه العناصر:

فـترفض التعامـل مـع أصـحاب الـدعوة كطـرف لـه وجوده وتأثيره..

وتسـعى إلى منـع الـدعوة من الوصـول بقضـيتها إلى الرأي العام والتأثير فيه..

وفي هــذا الصــدد تحــاول الجاهليــة تشــويه صــورة أصحاب الدعوة إذا عجزت عن محاربة قضيتها..

وتســـعى إلى منـــع وصـــول قضـــية الـــدعوة إلى المسـتويات الاجتماعيـة القريبـة من أصـحاب السـلطة والقرار السياسي..

---

7 (?) ومن هنا كان الاستعداد للتضحية مساويًا في القرآن للتضحية ذاتها، وذلـك كمـا في قولـه تعـالى: **{مِنَ المُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَـى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِـرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}**، فمن قضى نحبه هو الـذي مـارس التضـحية، ومن ينتظر هم أصحاب الاستعداد لبذل هذه التضحية.

أو وصول أصحاب الدعوة أنفسهم إلى هذه المستويات بتضييق فرص هذا الوصول، سواء من الناحية المادية أو الأدبية..

كما تحيط الحكومات الجاهلية مواقع قوتها بسياج يحميها من أي اختراق، ابتداءً من دقة اختيار العناصر المرشحة للدخول في هذه المواقع، حتى لا يدخلها أي عنصر يُتوسم فيه الخير أو حتى مجرد الاستعداد أو القابلية.

كما تسعى إلى وصف أصحاب الدعوة بالقلة غير المؤثرة، والتأكيد دائما على سلامة «القاعدة» ورفض «الجماهير» ووقوف «الشعب» وراء «قياداته الحكيمة»..!!

وفي حال اضطرار الحكومات الجاهلية المعادية للدعوة إلى عقد أي اتفاق مع أصحابها فإن ذلك يكون في سرية تامة؛ حرصًا على «مهابة» الدولة.

وإذا كان طرح التصور السياسي للحركة الإسلامية عند وصولها إلى مرحلة القوة السياسية شرطًا أساسيًّا.. فإن هناك شروطًا أخرى تمثل في الحقيقة حماية لـ «مهمة الطرح» من عدة أخطاء أساسية:

الخطأ الأول: طرح التصور السياسي للحركة من خلال النظريات السياسية غير الإسلامية ادعاءً للصفة العلمية للنظرية المطروحة.

وهذا الخطأ ناشئ عن الهزيمة النفسية أمام المناهج الجاهلية التي يزعمون لها الصفة العلمية والأكاديمية.

وناشئ أيضًا عن نزع الصفة العلمية عن التصور الإسلامي وقضاياه، حتى إن الجاهلية ترفض وبصورة

حاسمة إدخال هذه القضايا في مجال البحوث العلمية[8].

الخطأ الثاني: طرح التصور السياسي للحركة من خلال تجربة إسلامية تاريخية، مثل مرحلة الدولة الإسلامية التاريخية للأمة[9].

فيتكلم صاحب هذا الخطأ دائما في شكل الدولة الإسلامية في الماضي بكل مصطلحاتها ونمطها الشكلي، حتى أصبح التعامل مع هذه المصطلحات هو المعنى الأساسي للرجوع إلى الحكم الإسلامي دون المضمون الشرعي الصحيح للحكم.

وهذا الخطأ ناشئ عن الوقوف بالتصور الإسلامي عند مرحلة تاريخية دون الامتداد بهذا التصور إلى الواقع القائم.

الخطأ الثالث: طرح التصور السياسي للحركة من خلال البرنامج الإسلامي للإصلاح، والذي سيكون عندما تقوم الدولة الإسلامية.

إن تحديد التصور السياسي للحركة الإسلامية من خلال المنطلق السلفي.. وتحديد النظرية السياسية بالحق الشرعي والدين الخالص.. هو الرد المباشر على أصحاب الخطأ الأول.

وتحديد التصور السياسي العام للحركة الإسلامية - من خلال المرحلة التي تمر بها الدعوة فعلا في كل موقع من هذه المواقع- تحديدًا دقيقًا.. هو الرد على أصحاب الخطأ الثاني.

---

[8] (?) نقصد بذلك البحوث الرسمية مثل المناهج التعليمية ورسائل الدكتوراة.

[9] (?) مثل الدولة الأموية-العباسية..

أمــا الخطــأ الثــالث.. فهــو الــذي يتطلب مناقشــة مباشرة..

فالبرنامج خطة تفصيلية موقوتـة، منبثقـة عن تصـور، ومحقَّقة في واقع، فكيف يتحدد برنامج بغير واقع؟

إن الجاهليــة تريــد أن تُحَمِّل التصــور الإســلامي كــل مشاكلها؛ لذا كان لابد من تعريـف للمشـكلة الـتي يجب أن نواجهها بالتصور السياسي الإسلامي.

فالمشكلة الإسلامية هي المشكلة التي تقابـل الفكـر الإسلامي في طريقه إلى الواقع الإسلامي.

وأي مشكلة خارج هذا الإطار وهذا المسار هي مشكلة جاهلية، لا يعالجها إلا التفجير الإسلامي للواقع وترتيبه من جديد حسب التصور الصحيح.

والاستفزاز الجاهلي للحركة الإسـلامية بأنهـا لا تملـك برنامجا سياسيًّا أمرٌ لا يجب الاستجابة له.

نحن نملك التصور السياسي..

نحن نملك النظرية السياسية..

أما البرنامج السياسـي.. فلابـد أن نملـك الواقـع لكي نتمكن من طرحـه، وكـل من يريـد برنامجنـا السياسـي عليه أولا أن يعطينا الواقع ويسلم قيادته، وليكن شعارنا في الرد على أصحاب هذا الاستفزاز: «أعطني واقعك.. أعطك برنامجي».

قيمة الممارسة السياسية «تمهيد»:

ولأجل أن نبدأ تقييم الممارسة السياسية يجب أن نقارن بين طبيعة هذه الممارسة مع أساليب الحركة الإسلامية.

وقد اتفقنا أن الأساليب الأساسية للحركة الإسلامية هي: التبليغ بالكلمة، واستخدام القوة، وإقامة السلطة.. أما الهجرة والعزلة فهي تصرف اضطراري يتحتم عند اليأس من الاستجابة، والفرق بينهما: أن الهجرة تصرف اضطراري جماعي، والعزلة تصرف اضطراري فردي... ولا تخرج أساليب العمل عن هذا الإطار العام.

أما العلاقة بين هذه الأساليب.. فيثبت فيها أن استفاضة البلاغ، وإقامة الحجة، والدعوة بالكلمة، هي الخط الأصلي للحركة، وأن خط القوة هو في الابتداء لإنشاء فرصة الدعوة بالكلمة.. عندما تمنع الجاهلية هذه الفرصة، وفي الانتهاء.. لإقامة السلطة وإنشاء الدولة.

أما موقع الممارسة السياسية من هذا الإطار فهو:

أن الممارسة السياسية تحقق ضبط العلاقة بين أساليب الحركة ذاتها من ناحية، وأساليب الحركة بالنسبة للواقع من ناحية أخرى.

فهي التي تفرض أسلوب التبليغ بالكلمة بعد تحليل الواقع وموضع الدعوة..

وهي التي تفرض أسلوب القوة عندما تُمنع الدعوة من فرصة الاتصال بالناس..

وهي الـتي تحلـل آثـار القـوة في الواقـع وتؤكـد تلـك الآثار لتحقيـق غايـة الحركـة الأصـلية، وهي إقامـة دولـة الدعوة والهداية.

إذًا فالممارسة السياسية ليست أسلوبًا قائمًا بذاتــه.. ولكنهـا الضـابط لكـل أسـاليب الحركـة.. بحيث يتحقـق الهدف الأساسي للدعوة من خلال أي أسلوب.

فهناك مثلًا أسلوب الدعوة وأسلوب القوة..

وهنـــاك السياســـة الضـــابطة للعلاقـــة بين هـــذين الأسلوبين الـتي تضـمن بهـا الـدعوة الاتجـاه بالأسـلوب المناسب نحو تحقيق الهدف النهائي..

فقــد تفــرض الممارســة السياســية إيقــاف أســلوب استخدام القوة وقد تحتمه، وفي كلا الافتراضـين يكــون تحقيق الهدف هو الأمر القائم المطلوب.

هــذه هي قيمــة الممارســة السياســية على مســتوى أساليب الحركة.

أما قيمـة الممارسـة السياسـية على مسـتوى الكيانـات المتعـددة في الواقـع الواحـد.. فإنهـا قيمـة ضـخمة، وهي إدخـال الكيانـات المتعـددة للـدعوة ضـمن إطـار الحركـة الواحدة.. دون علاقـة حركيـة مباشـرة بين هـذه الكيانـات، باعتبار صـعوبة تلـك العلاقـة منهجيًّا وحركيًّا، بـل إن فـرض التصور السياسي الصحيح للحركة هو الذي سـيعطي لكـل كيـان بمنهجـه الـذي يتبنـاه مسـاحته الصـحيحة في الواقـع الحركي، ويصبح ضبط هذه المساحة وتلك العلاقة بالزيـادة أو التحجيم مرتبطًا بهذا التصور وتلك الممارسة.

فقد ينشأ في «موقع» واحد للـدعوة «دولـة أو إقليم أو منطقة» كيانات متعددة ومختلفة، وعندئـذ يجب منـع

الصراع بتحديد العلاقة السياسية بين هـذه الكيانـات، أو بمعنى آخر: طرح التصور السياسـي للحركـة الإسـلامية الذي يرى فيه كل كيان منهجيته التي يتصـورها وحركتـه الـتي يمارسـها، بحيث ينشـأ الموقـف الواحـد لجميـع كيانات الحركة بصورة سياسية صحيحة.

وكذلك، فإن تحديد التصور السياسي للحركة الإسـلامية سيسـد ثغـرات خطـيرة في منهج الدعوة..

وأخطرها: ثغرة الخروج عن الأحكـام الشـرعية في ممارسة الدعوة بادِّعاء «مصـلحة الـدعوة»، حيث يسـد التصور السياسي للدعوة بصبغته السـلفية هـذه الثغـرة على أصحاب هذا الادعاء.

وأخطرها أيضًا: الارتداد عن خط المواجهة بـالقوة بادعـاء العمـل السياسـي وتحديـد التصـور السياسـي بأبعاده المتعددة -بما فيه بُعـد الممارسـة بـالقوة- يسـد أيضًا هذه الثغرة على أصحاب هذا الادعاء.

وبذلك لا تصبح السياسة لافتة فوق أي موقف باطـل أو مرحلة ضعف.. بل يصبح التصـور السياسـي للحركـة الإسـلامية ضـابطًا لكـل العبـارات والمصـطلحات الـتي تشـكل خطـرًا كبـيرا على الـدعوة إذا أصـبحت عنوانًـا للأهواء والتراجع والخلل.

فلا تصبح عبارات عائمة.. بل تتحدد وتستقر وتنضبط.

التص

الباب الأول

النظرية السياسية الإسلامية

التص

البناء الفكري للنظرية السياسية:

إن الأسلوب الأفضل في طرح النظرية هو البدء بتعريف «السياسة الإسلامية»، وبتحليل عناصر التعريف يتم طرح النظرية..

والسياسة الإسلامية: هي حكمة «الجماعة» المنشئة «لدولة» الدعوة العالمية «الخلافة» المقيمة «لحضارة» الحق.

حكمة الجماعة «بناء النظرية السياسية»:

اتفقنا على أن الحكمة: هي حاسة الصواب الكامنة في كيان الداعية، محددة له في واقع الدعوة.. سبيل الوصول إلى الغاية.

وهذا هو المفهوم الفردي للحكمة.

فإذا تحدد المفهوم الجماعي للحكمة.. كان هذا المفهوم هو السياسة.. فإذا قلنا: إن الحكمة هي **سياسة الفرد** كانت السياسة هي **حكمة الجماعة**، وعلى هذا.. فإن النظرية السياسية الإسلامية تتحدد أساسًا بعناصر الحكمة الأربعة: «الحق، والإنسان، والواقع، والغاية».

وارتباط هذه العناصر بالمستوى الجماعي للدعوة هو الذي يحدد إطار النظرية السياسية؛ بحيث يكون غياب أي عنصر من عناصر الحكمة الأربعة أو الخلل في العلاقة الصحيحة بين هذه الجوانب سببًا في عدم تحديد هذا الإطار.

التص

الفصل الأول

الجانب الأول من جوانب النظرية

«الحق»

(1) شواهد الحق في الممارسة السياسية:

ومن بناء النظرية السياسية تحققت شواهد الحق في الممارسة السياسية..

وما نعنيه بشواهد الحق: هي تلك الحقائق المُسَلَّمَة التي ندخل بها واقع الممارسة، وهي غير مستنبطة من الخبرة السياسية، كما لا تتجاوزها الممارسة في كل أحوالها، وهذه الشواهد هي:

(أ) المضمون:

سبق القول بأن السياسة هي المفهوم الجماعي للحكمة.. وعلى أساس هذه الحقيقة يكون بناء النظرية السياسية هو الارتفاع بجوانب الحكمة إلى المستوى الجماعي، وذلك بمقتضى الحق.

ويصور الإمام ابن القيم جانب الحق في بناء النظرية، فيقول: «**السياسة ما كان فعلًا معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يصنعه الرسول** صلى الله عليه وسلم**، ولا نزل به وحي**، ومن قال: لا سياسية إلا بما نطق به الشرع فقد غلَّط الصحابة؛ فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يجحده عالم بالسنن»...

ويقول ابن القيم: «وهذا موضع مزلة أقدام ومضلة

أفهـام، وهـو مقـام ضـنك، ومعـترك صـعب، فـرَّط فيـه طائفة فعطلوا الحدود، وضـيعوا الحقـوق، وجـرَّءوا أهـل الفجور على الفساد، وجعلوا الشـريعة قاصـرة لا تقـوم بمصالح العباد، محتاجة إلى غيرها، وسدُّوا على أنفسهم طرقًـا صـحيحة من طـرق معرفـة الحـق والتنفيـذ لـه، وعطلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعًا أنها حق مطابق للواقع ظنًّا منهم منافاتها لقواعد الشرع.

ولعمر الله، إنهـا لم تنـافِ مـا جـاء بـه الرسـول، وإن نافت ما فهمـوه من شـريعته باجتهـادهم، والـذي أوجب لهم ذلك نوع تقصـير في معرفـة الشـريعة وتقصـير في معرفـة الواقـع وتنزيـل أحـدهما على الآخـر، فلمـا رأى أولياء الأمور ذلك، وأن الناس لا يسـتقيم لهم أمـرهم إلا بـأمر وراء مـا فهمـه هـؤلاء من الشـريعة.. أحـدثوا من أوضاع سياستهم شـرًّا طـويلًا وفسـادًا عريضًـا، فتفـاقم الأمـر وتعـذر اسـتدراكه، وعـز على العـالِمين بحقـائق الشـرع تخليص النفـوس من ذلـك واسـتنقاذها من تلـك المهالك...

وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفـة فسـوغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله..

وكلا الطائفتين أُتِيَت من قِبَل تقصيرها في معرفة مـا بعث الله به رسـله وأنـزل بـه كتبـه؛ فـإن اللـه سـبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقـوم النـاس بالقسـط.. وهـو العدل الذي قامت بـه الأرض والسـموات، فـإذا ظهـرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان.. فَثَمَّ شـرع الله ودينه.

والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل من أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء.. ثم ينفي مـا هـو أظهـرَ منها وأقوى دلالةً وأبْيَنَ أمارة، فلا يجعلـه منهـا ولا يحكم

عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين سبحانه وتعـالى بما شـرعه من الطـرق أن مقصـوده إقامـة العـدل بين عباده وقيام الناس بالقسط، فـأي طريـق اسـتخرج بهـا العدل والقسط فهي من الدين ليست مخالفة له..

فلا يقال: إن السياسة العادلة مخالفـة لمـا نطـق بـه الشرع، بل موافقة لما جاء بـه، بـل وجـزء من أجزائـه، ونحن نسميها «سياسـة» تبعًـا لمصـطلحاتكم وإنمـا هي عدل الله ورسوله ظهر بهذه الأمارات والعلامات»[10].

(ب) العقيدة:

وهي التوحيـد بمرتكزاتـه الثلاث: «**الحكم والنسك والولاء**» وهي المرجعيـة العليـا للممارسـة السياسـية والحركية ونظام الدولة.

لقد كان لرسول اللـه صـلى الله عليه وسـلم موقـف يُعَلِّمُ فيه الأمة قيمة العقيدة والتوحيد في واقع الصــراع والمواجهة، وهو ما كان بعد غزوة أحد.

فبعد الغزوة أراد أبو سفيان أن يحقق نتيجة سياسـية للحــرب، فوقــف خطيبًــا بين الجمــوع فســأل: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟

وكان موقف الرسـول صـلى الله عليه وسـلم ألاَّ يَـرُدَّ عليه أحد، حتى لا يكون في الـرد عليـه اسـتفزاز يجعلـه يعاود الهجوم على المسلمين وهم غـير مسـتعدين بعـد، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أن أبا سـفيان كـان لا يريـد إلا هـؤلاء الثلاثـة، وأن عـدم الـرد سيجعله يشعر أنه قد حقق غايته.. ولكن أبا سفيان قال بعد ذلك: اعلُ هبل!

---

10 (?) السياسة الشرعية لابن القيم، بتصرف (14 – 16).

فتغـيرت حسـابات الموقـف.. أصـبحت العقيـدة هي الأساس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: «**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟**» قَـالُوا: يَـا رَسُـولَ اللـهِ، مَـا نَقُـولُ؟ قَـالَ: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**» قَـالَ: إِنَّ لَنَـا العُـزَّى وَلاَ عُـزَّى لَكُمْ، فَقَـالَ النَّبِيُّ صـلى الله عليه وسـلم: «**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟**» قَـالَ: قَـالُوا: يَـا رَسُـولَ اللـهِ، مَـا نَقُـولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**»[11].

لقد كان حسـابات الموقـف ألا يـرد أحـد من المسـلمين، ولكن عنـدما يكـون الأمـر متعلقـا بالعقيدة لا يكون الصمت.

ففي الـوقت الـذي كـان المسـلمون فيـه في أشـد الحاجـة إلى من يشـاركهم قتـال المشـركين يـرفض رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم رجلًا مشـركًا يريـد القتـال معـه ويقـول لـه: «**ارْجِـعْ فَلَنْ أَسْـتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»[12]..

وبـالتفكير المـادي في الموقـف كـان يمكن قبـول مشاركة هذا الرجل.

ويأتي رجل آخر إلى الرسول ويقول: أقاتل أو أسلم؟ فيمنعـه الرسـول من القتـال معـه ويقـول لـه: «**بـل أسـلم، ثم قاتل**» فبـايع وقاتـل فقُتـل، فقـال عليه الصلاة والسلام: «**عمل قليلًا وأجر كثيرًا**»[13]**..**

وبـالتفكير المـادي في الموقـف كـان يمكن تأجيـل البيعة؛ لأن القتال دائر.

وفي وقت القتال تقام صلاة الحـرب لتصـلي جماعـة

---

11 (?) أخرجه البخاري (4/79، 5/100، 126، 6/48).

12 (?) أخرجه مسلم (3/1449، 1817)، والترمذى (4/127، 1558).

13 (?) البخاري في الجهاد (24/6) من حديث البراء بن عازب.

من المسلمين وتحميها الأخرى.. وبالتفكير المـادي كـان يمكن تأجيل الصلاة حتى لا يضيع الوقت وتتأثر إمكانـات القتال.

وفي القتال يرفع السيف عن كل من قـال: لا إلـه إلا الله، وهذا سؤال يسأله صحابي لرسول اللـه صـلى الله عليه وسلم، عن المقداد بن الأسود أنـه أخـبر أنـه قـال: «يـــا رســـول اللـــه، أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفـــار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذَ مِنِّي بشجرة فقال: أسلمت لله، أفأقتله يـا رسـول اللـه بعـد أن قالها؟»

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تقتله!»** قال: فقلت: يا رسول الله..! إنه قد قطع يدي، ثم قــال ذلـك بعـد أن قطعهـا، أفأقتلـه؟ قـال رسـول اللـه: «**لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتلــه، وإنــك بمنزلتــه قبــل أن يقــول كلمتــه الــتي قال**»[14].

وفي إطـــار العقيـــدة تكـــون العلاقـــة بين الحركـــة الإســلامية وعقيـدة القـدر والأسـباب، فيـدخل الـدعاء كــأقوى أســلحة القتــال، ففي غـــزوة الأحــزاب ينظِّم الرسولُ صلى الله عليه وسلم كلَّ أمورِه ويَعُدُّ كلَّ عدته ثم يقول:

«**إن من عبـاد اللـه من لـو أقسـم على اللـه لأبـره، ادعُ اللـه يـا بـراء أن يهـزمهم وينصـرنا عليهم**»[15].

ثم يعلمنـا النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنـه إذا كـان

---

14 (?) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (95) عن المقداد بن الأسود.

15 (?) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية (2703).

البشـر يحققـون أهـدافهم بقـوتهم وإمكانيـاتهم الماديـة فلسـنا مثلهم، فيقـول: «**إنمـا تنصـرون وترزقـون بضعفائكم**»[16].

لأنهـا دعـوة ربانيـة.. تقـوم بالقـدر ولهـا أسـباب وسنن[17].

ومن هنا فإن شيطنة الطرف الجـاهلي تعتـبر القضـاء على عقيـدة أهـل السـنة والجماعـة أوَّلَ أهـدافها.. لأن عقيدة التوحيد هي القادرة على تربية المسـلم وإعـداده للمواجهة الصحيحة، وهي القادرة على مواجهة الجاهليـة بكل اتجاهاتها، وهي التي يكتب لأهلها الشهادة بإذن اللـه إذا كان القتل في سبيل الله..

(ج) القوة:

وهي الـــتي تفـــرض الحـــق كمضـــمون للنظريـــة والممارسة السياسية، وهي مقتضى الاعتقاد بالمواجهـة الحتمية مع الجاهلية، فليست المواجهة فكرة مسـتنبطة من ممارســـة الواقـــع.. ولكنهـــا حقيقـــة ثابتـــة قبـــل الممارسة، عَلِمَهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ دعوته.

وهذا ما أخـبره بـه ورقـةُ بن نوفـل النـبيَّ صـلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه وقبل أن يعلن دعوته: «يَـا لَيْتَنِي فِيهَـا جَـذَعًا، لَيْتَنِي أَكُـونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُـكَ قَوْمُـكَ». فَقَـالَ رَسُـولُ اللـهِ صـلى الله عليه وسـلم: «**أَوَمُخْـرِجِيَّ هُمْ؟**» قَـالَ: «نَعَمْ، لَمْ يَـأْتِ رَجُـلٌ قَـطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ **إِلاَّ عُودِيَ**، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ

---

16 (?) أخرجـه البخـاري، كتـاب الجهـاد، بـاب مَنِ اسْـتَعَانَ بِالضُّـعَفَاءِ وَالصَّالِحِينَ في الحَرْبِ، ح2896.

17 (?) يراجع كتاب «قدر الدعوة» للكاتب.

نَصْرًا مُؤَزَّرًا»[18].

(د) الثبات:

وأهم شواهد انطلاق الممارسة السياسية من الحق هو ثبات الخط السياسي لهذه الممارسة؛ لأن الحق يرفع الممارسة السياسية فوق ظروف الواقع وزعاماته، حتى يبلغ الأمر أن يصبح الخط السياسي هو الذي ينخرط به الواقع وتنتظم به الزعامات.

إن أكبر دلائل البعد عن الحق هو التفاف الخط السياسي حول منحنيات الواقع والالتواء فوق عقباته، وكذلك التلون بلون كل زعامة جديدة والاصطباغ بصبغتها.

وقد قدمت الفترة الإسلامية الأولى نموذجًا لهذا الثبات:

ابتداءً من أخطر مستويات المواقف السياسية، مثل إصرار أبي بكر الصديق على جعل أسامة بن زيد على رأس الجيش الذي جهزه الرسول صلى الله عليه وسلم واختار أسامة لقيادته.. وانتهاءً بأبسط مستوياتها، مثل المرأة التي جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: أعطني[19].

---

18 (?) أخرجه البخاري في بدء الوحي (3212، وغيره)، ومسلم في الإيمان (160).

19 (?) «.. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لئن جاءني مال لأعطينك هكذا (بيديه) وهكذا وهكذا،** فقالت: يا رسول الله.. وإذا لم أجدك؟ وكأنها تعني: إذا مت. قال: **ستجدين أبا بكر**. قالت: وإذا لم أجد أبا بكر؟ قال: **ستجدين عمر.** فلما كانت خلافة أبي بكر جاءت المرأة وقالت لأبي بكر ما دار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرها أن تأخذ بيدها مرة واحدة كما وصف لها رسول الله، ثم ضاعف لها العدد ثلاثًا». أخرجه البخاري في المناقب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(لو كنت متخذًا خليلًا)** (7/21/3659 – فتح).

(2) المفاصلة الفكرية بين السياسة الإسلامية والجاهلية:

وكنتيجة للتقابل بين النظرية الإسلامية والجاهلية أصبح لكل نظرية مصطلحاتها، وأصبح التقابل بين مصطلحات كل نظرية يمثل أخطر معالم الصراع بين الإسلام والجاهلية، كما أصبح لهذا الصراع عناصره الثابتة:

- تقييم كل طرف بمصطلحات الطرف الآخر.

- فرض كل طرف لمصطلحاته كدلالة على قوته وغلبته في الصراع.

- محاولة الخلط بين المصطلحات الإسلامية والجاهلية لتغييب التصور الإسلامي السياسي الصحيح.

(أ) معركة المصطلحات السياسية:

وأساس المعركة هو تحديد النظرية السياسية بمناهج ومصطلحات غربية. والمثال التاريخي على ذلك تحليل كل ظواهر الدعوة الإسلامية بالمناهج الغربية، وهذا التحليل ليس مجرد محاولة للمعرفة ولكنه التفاف حول الدعوة ووضعها في ميزانهم الفكري والمنهجي، وإعطاء الانطباع بأنها ظاهرة خاضعة للدراسة ومحكومة الاحتمالات، وهي فكرة شيطانية قديمة حاولتها أقوام جاهلية سابقة منذ هود صلى الله عليه وسلم؛ حيث حاولوا تفسير الرسالة والدعوة بأنها مجرد إصابة من الآلهة ولا تخرج عن حدود ذلك وليس هناك تفسير غيره: **{إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ..}**.

ولكن الموقــف الصــحيح هــو فــرض واقــع الرســالة عليهم بأن يدخلهم معه في شـهادته عليهم بـالبراءة من الشرك.

فبدلا من أن تدخل الرسالة في ميزانهم.. أدخلهم هم في ميزانه: **{قَالَ إِنِّي أُشْـهِدُ اللـهَ وَاشْـهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}** [هود: 54].

إن تفسير الوحي والرسالة هو أن بعض آلهـة الجاهليـة أصابت النبي بسوء!!

وهذه المعركة موضوعها الرئيسـي محاولـة الجاهليـة وضـع الطـرف الإسـلامي في ميزانهـا التصـوري، مثلمـا كانت الشيوعية تفسر الحركة الإسـلامية تفسـيرا ماديًّا، وأن الصراع بين الإسلام والجاهلية صراع طبقي.

ومتابعــة بدايــة ظهــور المصــطلحات المعاديــة يحتم الحساسية الشديدة في قبول أي مصـطلح لم يـرِد فيـه نص شرعي.

مثـل قبـول تسـمية الشـورى ديمقراطيـة؛ هـو الـذي انتقل إلى مصطلح الإسلام الديمقراطي، والـذي يعـني: أن هــذا الــدين بكليتــه ديمقــراطي، ممــا أنشــأ بــدوره مصطلح الاعتدال الذي تحول إلى «الإسـلام المعتـدل»، والذي أظهر بدوره مصطلح التطرف والإرهاب والإسلام السياسي.

والخــط الأساسي لمعركــة المصــطلحات هــو تفريـغ التصور الإسلامي من مضمونه العقدي الصحيح.

فالمصطلح الشرعي الصحيح «الحاكمية» يتحول إلى مصـطلح «تقـنين الشـريعة»، الـذي تحـول بـدوره إلى: «تنقية القوانين»..!

والمقصود من «الإنسانية» القضاء على حقيقة الولاء للدين.

والمقصود من «الثقافة» تحول الدين إلى ظاهرة فكرية.

والمقصود من «الآخر» القضاء على المفاصلة.

إن محاولة إبعاد التصور «الإسلامي» عن واقع الناس هي مهمة جاهلية أساسية تظهر في كل المواقف والأفكار السياسية الجاهلية..

حتى عندما تضطر الجاهلية إلى التسليم بأي مرحلة قد تصل إليها الحركة الإسلامية فإن هذه المحاولة لا تختفي.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما هاجر إلى يثرب سماها المدينة؛ لكن المنافقين في إطار مواجهة النتائج التي وصلت إليها الدعوة يحاولون الرجوع بها إلى مرحلة ما قبل الهجرة؛ من خلال التسمية القديمة، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}** [الأحزاب: 13].

وهناك مصطلحات مشتركة، قد تُقرر من جانب النظرية الإسلامية من حيث اللفظ؛ فيصير الأمر الخطير أن تفهم بمدلولها في السياسة الجاهلية، مما يصير به الأمر أشد خطرًا؛ أن تفرض هذه المصطلحات بمدلولها الجاهلي فتنتفي دلالتها الصحيحة في النظرية الإسلامية، ولهذه المصطلحات أمثلة مشهورة أهمها مصطلح **الثورة والحرية**.

فالثورة في النظرية الجاهلية.. تعني بصورة مطلقة

«رفض الواقع.. الغضب.. العنف».

وهي أبـرز عناصـر أي ثـورة جاهليـة، ولعـل أوضـح أمثلتهـا الثـورة الفرنسـية الـتي حـدثت خلالهـا أهـوال تاريخيـة تفـوق مآسـيها مأسـاوية الأوضـاع الـتي جـاءت الثورة للقضاء عليها.

فــإذا انتقلنــا بمصــطلح «الثــورة» إلى النظريــة السياسية الإسلامية فإننا نـرى وجـودًا لعناصـر مصـطلح الثورة ولكنه وجود صحيح.

حيث نــرى الــرفض موضــوعيًّا.. والغضــب واعيًــا.. والعنف منضبطًا..

فـإذا مـا أصـبح مصـطلح «الثـورة» بهـذه العناصـر الصــحيحة كــان من الجــائز اعتبــاره مصــطلحًا من مصطلحات النظرية السياسية الإسلامية.

حيث سيكون الرفض الموضوعي للواقع في التغيـير، والغضـب الـواعي في التعامـل، والعنـف المنضـبط في المواجهة.

فالثورة الإسلامية ليسـت مجـرد رفض للواقـع، ولكن للباطل في هذا الواقـع، بحيث إذا كـان في هـذا الواقـع حق.. أخذت به الثورة الإسلامية، وأقره الإسلام، وأصبح جزءًا من نظامه..

وأما الغضب فهو قمة الوعي؛ لأنه غضب لله.. وليس غضبًا شخصيًّا يفقد فيه الغاضب وعيه ويصبح إغلاقًا..

وأمـا العنـف فهـو الأمـر المنضـبط بسياسـة القـوة وأحكامها الشرعية..

وبـذلك يتحقـق مصـطلح الثـورة الإسـلامية بمنطلـق خاص للتغيير، يتميز بالحسم الواعي المتأني.

والتقابـل المطلـق بين النظريـة السياسـية الإسـلامية والجاهلية يقتضـي الحـذر الشـديد من المحاولـة الخاطئـة للخلـط بين مصـطلحات النظريـة السياسـية الإسـلامية وغيرها..

ابتداءً بالمصطلحات الضخمة كـالثورة.. وانتهـاءً بـأدق التعبـيرات البسـيطة مثـل رفض تعبـير «الإمبراطوريـة الإسلامية» بدلًا من «الخلافة»..

مرورًا بأمثلة الخلط بين المفاهيم الإسـلامية وغيرهـا، مثل الخلط بين الشورى والديمقراطية.. بما بينهمـا من فوارق جوهريـة محـددة، حـتى في العناصـر المشـتركة بينهمـا؛ فالشـورى قائمـة على إجمـاع الـرأي، وكـذلك الديمقراطية، ولكن لصاحب الرأي في الشـورى اعتبـار كبير في هذا الإجماع.. وليس إجماع الهمج الرعاع أتبـاع كل ناعق؛ كما في الديمقراطية[20].

وانطلاق الممارسة السياسية من التصـور السياسـي بنظريته وأبعاده ومصـطلحاته لا يعـني الاتفـاق المطلـق بين مفكـري السياسـة الإسـلامية ومحلليهـا؛ لأن عنصـر التفكير العقلي ومهمة إدراك الواقع والتصـور المـرحلي للهدف داخلة ضمن هذه الممارسـة، وهي الأمـور الـتي يكون فيها الاختلاف شيئًا طبيعيًّا؛ ممـا يجعـل الممارسـة السياسية سببًا في حدوث أكبر اتسـاع لنطـاق الاختلاف بين مفكري الحركة الإسلامية.

ومواجهـة هـذا الخطـر تتمثـل بصـورة أساسـية في

---

20 (?) سـتعقد مقارنـة بين الشـورى والديمقراطيـة من خلال الكتـاب إن شاء الله.

تحديد:

(ب) ثوابت الفكر السياسي:

التأصيل الشرعي للفكر السياسي:

وأول ثوابت هذا التأصيل هو إدراكنا للعلاقة بين الفقه والسياسة الذي تتحدد به طبيعة الممارسة.. وهي الحكمة ذاتها.

ذلك لأن الحكمة كما اتفقنا هي أساس البناء الفكري للنظرية السياسية، والحكمة هي الفقه.. وبذلك تصبح كل أصول الفقه أساسًا في الممارسة السياسية.

والحقيقة.. أن الفقه الإسلامي هو العلم الشرعي المثبت لمفهوم السياسة الإسلامية؛ ذلك أن الفقه قائم على مراعاة الواقع في إجراء الأحكام، وقائم على اعتبار المآل، وقائم على دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، وقائم على الترجيح بين درء المفسدة وجلب المصلحة.

ومن هنا كانت الملاحظة التراثية المهمة، وهي أن كل من كتب في السياسة الإسلامية كانوا من الفقهاء.

الإطار السياسي للفكر الحركي:

والذي يُحدَّد بالإجابة على هذا السؤال: ما هي الكتابات التي تكوِّن في مجموعها إطارًا فكريًّا للحركة الإسلامية؟

إن هذا التحديد شرط جوهري في تنظيم العلاقة الصحيحة بين الفكر والحركة.. وفقد هذا التحديد يجعل الدعوة معرضة لخطر التحول إلى مجرد ظاهرة فكرية

ضخمة تتضاءل بجانبها واقعية الحركة حتى تضيع.

وتحديد هذه الكتابات بأصحابها قد يحقق فائدة السهولة في الرجوع إليها، ولكن الأفضل هو إثبات القاعدة التي يتحدد بها هذه الكتابات ليصبح هذا التحديد أساسًا للفكر بصورة مطلقة.

والقاعدة الأساسية:

- أن يكون صاحب الكتاب سلفي الفهم.

- أن يكون صاحب الكتاب هو نفسه من أصحاب التجارب الواقعية والعملية في مواجهة الجاهلية..

- وأن تكون كتاباته مرتبطة بواقعه وتجاربه ومواجهته بصورة مباشرة.

مع مراعاة أن ينطبق على جميع هذه الكتابات وأصحابها.. قاعدة: أن كل إنسان يخطئ ويصيب ويؤخذ من كلامه ويرد عليه. وأن تتجرد في نفس الوقت عملية الأخذ والرد من عوامل الغيرة والحسد، والأحاسيس الحقيرة التي قد تسعى بصاحبها إلى التفكير في هدم شوامخ الفكر ورؤوس الهدى والرشاد[21].

(ج) التنظيم السياسي للرأي في الجماعة:

وبعد تحديد ثوابت الفكر السياسية المحققة للاتفاق على الحق ننتقل إلى مقتضيات الاتفاق على الحق في

---

21 (?) مثل كتابات: ابن تيمية وابن القيم وأبي الأعلى المودودي وسيد قطب؛ حيث كتبت من خلال الخبرة العملية المستفادة من مواجهة أصحابها مع الجاهلية بقضية التوحيد.. وبذلك ثبت تحديد إطار الفكر الحركي من خلال أصحاب الفكر، وسيثبت تحديد الإطار من خلال القضايا الفكرية ذاتها.

تلك الممارسة.

وأهم مقتضـيات انطلاق الممارسـة السياسـية من الحـق تحديـد قواعـد نظـام الـرأي، وأول تلـك القواعـد تحديد مصطلح الجماعة الذي يتحـدد بـه الحكم على أي موقف أو رأي يتعلق بحركة الجماعة.

فهناك مصطلحات أساسية متعلقة بمفهوم الجماعة:

(1) الجماعة بمعنى الحق. (2) الجماعة بمعنى الأمير.

(3) الجماعة بمعنى العامة. (4) الجماعة بمعنى العلماء.

ونضيف إلى هذه المصـطلحات بخصـوص المعارضـة السياسية مصطلحين أوليين:

مصطلح الفِرقة: وهو الخروج عن الجماعة من خلال قضايا اعتقادية «خروج عقدي..».

ومصطلح الطائفة: وهو الخروج عن الجماعـة من خلال قضايا عملية «خروج عملي..».

ولكل منهما أسلوب في التعامل:

فأسلوب التعامل مع الفِرقة:

بحسـب قضـية خـروجهم عن الجماعـة سـواء كـانت كفرًا أو بدعة.

وأسلوب التعامل مع الطائفة:

بحسب قضية خروجهم عن الإمام أو الأمير.

وتعـدد معـاني الجماعـة قـائم على أسـاس الحفـاظ عليها في كل الظروف..

أما المعنى الأساسي للجماعـة فهـو الجماعـة بمعـنى الحـق، والـوارد فيـه قـول رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم في الحـديث: «**التـارك لدينـه المفـارق للجماعة**»[22].

ولكن عنـد تعـدد الحـق في الأفهـام في إطـار قضـايا التوحيد تكون المفاصلة وتكون الفرقة، وإذا تعدد الحـق في غير هذا الإطـار كـان رأي الأمـير هـو المعيـار الـذي تتبناه الجماعة في تلك القضية؛ وتتحقق بذلك الجماعة: بمعنى الأمير.. والوارد فيه حديثه صلى الله عليه وسلم: «**من أطاع الأمير فقد أطاعني**»[23].

وعند غيبة الإمارة يكون إجمـاع العامـة المسـلمة هـو معيار الحق وهو الوارد فيه قول رسول اللـه صـلى الله عليه وسلم: «**عليكم بالسواد الأعظم...**»[24].

وعند عجز السواد الأعظم عن الإجماع يكون للعلمـاء حق الطاعة، ويتحقق فيهم معنى الجماعة.

ولكن السـواد الأعظم الـذي يعتـبر معيـارًا للحـق لـه

---

22 (?) أخرجـه البخـاري في كتـاب الـديات (12/209/ح 6878 – فتح)، ومسلم في القسامة باب ما يباح به دم المسلم (6/11/164، 165 – نووي)، وأبو داود في الحدود باب الحكم فيمن ارتد (4/124/ح 4352)، انظر تخريج الحديث في كتـاب فتح ذي الجلال لتخـريج أحـاديث الظلال (ح 632).

23 (?) أخرجـه البخـاري في الأحكـام بـاب قولـه تعـالى: **{أَطيعُوا اللـهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ..}** الآيـة (13/119/ح 7137 فتح)، ومسـلم في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

24 (?) رواه ابن ماجـه (3950)، واللالكـائي في شـرح أصـول الاعتقـاد (153)، وابن أبي عاصـم في السـنة (ح 80، 84). عن أنس مرفوعًـا بلفظ: «فعليكم بالسواد الأعظم».

صفات محددة وأهمها: توطين النفس على هذا الحق.

ولذلك لا يكون هناك تقليد في التعامل مع العامة المسلمة كما قال صلى الله عليه وسلم: «**لا تكن إمَّعَة.. إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تسيئوا**»[25].

ومن هنا أيضًا فإن لرأي العامة في منهج الدعوة مسئولية خطيرة، بعيدا عن نمط الهياج والصور المزيفة..

وعندما يكون المطلوب معرفة إجماع العامة أو الرأي العام لهم فإن المهمة تبدأ بإثبات رأي الفرد.

يقول ابن إسحاق: إن وفد هوازن بالجعرانة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنُن علينا، منَّ الله عليك.

قال: وقام رجل من هوازن -أحد بني سعد بن بكر يقال له زهير يكنى أبا صرد- فقال: يا رسول الله! إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» فقالوا: يا

---

25 (?) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو (4/364/ح 2005) من حديث حذيفة به. وقال الترمذي: حسن غريب. وذكره البغوي تعليقًا في شرح السنة (13/32)، والحديث في المشكاة (ح 5129)، والترغيب للمنذري (3/341).

رسول الله، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تُردُّ إلينا نساؤنا فهو أحب إلينا، فقال لهم: **«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم»**.

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»** فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم[26].

وفي رواية: «فقال الناس: قد طبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **«إنا لنعرف من رضي منكم ممن لم يرضَ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»[27].**

فَرَدُّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن. فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت في يديه منهم، ثم ردَّها بعد ذلك، وكسا رسول الله صلى الله عليه وسلم السبي نبطية قبطية».

ولعلنا نلاحظ خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الموقف، وأنه قائم علي اعتبار كبير لرأي عامة المسلمين بدليل طلبه لهوازن: «**أما ما**

---

[26] (?) رواه أحمد في مسنده، ورواه البيهقي في الدلائل (5/197)، وذكره ابن هشام في السيرة (4/135).

[27] (?) لاحظ اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصول رأي الناس بطريقة صحيحة.

كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم..».. علمًا بأنه كان يستطيع اتخاذ القرار بإعادة السبي دون الرجوع إلى المسلمين.

ولعلنا نلاحظ ضرورة الاطمئنان إلى صحة إعلان المسلمين لرأيهم وصحة وصول هذا الرأي إليه صلى الله عليه وسلم، فتقول الرواية: فقال الناس: قد طبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**إنا لنعرف من رضي منكم ممن لم يرضَ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**» فَرَدُّوا عليهم نساءهم وأبناءهم.

وعندما يكون الحديث في أمر العامة فلا بد أن يكون للمتحدث صفات ضرورية ولازمة، أهمها نفي السفه الذي يثبت الحكمة، كما في الحديث: «**سيأتي على الناس سنوات خدّاعات يُصدّقُ فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**» قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»[28].

وكما تحددت صفة المتحدث في أمر العامة يتحدد مصطلح العامة نفسه.

ومصطلح العامة المسلمة يتحدد بانتفاء صفة الهمج الرعاع، وحديث علي بن أبي طالب يبين الصفة الأساسية للهمج الرعاع: «**الناس ثلاثة: عالم**

---

28 (?) صحيح: أخرجه أحمد وابن ماجه ومالك عن أبي هريرة.

رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، والباقي رعاع أتباع كل ناعق»[29].

وبذلك يتبين منهج الارتفاع فوق مستوى هـؤلاء الهمج الرعاع.

إن الهمج الرعــاع قــوم لا يفقهــون ولا يعلمــون.. لا يــدركون أصــول التفكــير فهم لا يفقهــون.. ولا يعلمــون صواب الواقع، وليسوا على سبيل النجاة.

وصواب التفكير وإدراك الواقـع هـو النجـاة من صـفة الهمج الرعاع.

وفي النهاية يجب أن يفهم أن حرية الـرأي في إطـار الجماعة مكفولة في حدود الكتاب والسنة وأنه لا حريـة خارج هذه الحدود.

وأن نظام الرأي في الإسلام يقبـل المعارضـة من أي فرد فيها.. ولكنه لا يقبل أن تكون المعارضـة موقفًا ثابتًا لأطراف ثابتة، وهـو مـا يطلـق عليـه الآن «**المعارضة السياسـية**»؛ لأن لهــذا النظــام خطــورة؛ أن تكــون المعارضة وظيفة سياسـية مرتبطـة بموقـف المعارضـة قبل موضوع المعارضة.

كما أن ثبـات طـرف المعارضـة يجعـل هـذا الطـرف يتجـه دائمـا نحـو المعارضـة الـتي أصـبحت مرتبطـة بـه كطرف ثابت لهـا، فتصـبح المعارضـة قضـية شخصـية لا قضــية عامــة، فالمعارضــة في التصــور السياســي الإسلامي ليست موقفًا ثابتًا من طـرف ثـابت؛ بـل تعـبر عن رؤية مغـايرة لرؤيـة الحـاكم، سـواءً كـانت لفـرد أو جماعة.. أو حتى للأمة كلها.

---

[29] (?) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص 29– طبعة دار الفتح.

بعد تحديد النظرية السياسية في إطارها الواقعي، وتحديد بناء النظرية السياسية بمقتضى الحق، نأتي إلى المحصلة بين الواقع والحق..

(د) العلاقة الجدلية بين الفكر والحركة:

نريد أن نوضح معنى «العلاقة الجدلية[30] بين الفكر والحركة».

ففي البدء تكون القضية في إطار فكري محدود ثم تكون الحركة في هذا الإطار المحدود، فتضيف الحركة خبرة جديدة تضاف إلى هذا الإطار، فيتسع نطاقه فنتحرك به حركة أوسع، فتضيف إلينا الحركة الأوسع خبرة أكبر تضاف إلى إطار الفكر ليتسع، فنمارس به حركة أوسع، وهكذا.. هذا هو تفسير جدلية العلاقة بين الفكر والحركة.

وعندما يزداد حجم الفكر دون أن نمارس به حركة مناسبة فإن هذا يمثل خللًا سياسيًّا، إذ قد تتحول الدعوة بسبب هذا الخلل إذا تضخم إلى ظاهرة فكرية بحتة.

ومن هنا يلزم كضرورة سياسية تحديد إطار الفكر الذي ينشأ من خلال العلاقة الجدلية الصحيحة مع الحركة وهو ما يسمى فكر الحركة.

والإطار الأساسي لهذا الفكر هو قضايا حد الإسلام «قضايا الحكم والنسك والولاء».

ويضاف إليها كل قضايا الفكر المستفادة من خبرة التحرك بقضايا حد الإسلام في الواقع.

وقد سبق تقرير أن الفكر في تطوره مع الحركة

---

30 (?) الجدلية هي المقابل العربي لكلمة الديالكتيكية الإنجليزية.

مستفاد من خبرة الحركة وأن تحديده يكون باعتبار أصحابه؛ فيصبح أي فكر ناشئ عن خبرة عملية مستفادة من مواجهة صاحبه مع الجاهلية.. داخلًا في إطار الفكر الحركي.

وكما تحدد الفكر تتحدد الحركة..

والإطار الأساسي لهذه الحركة هو: التبليغ بالكلمة، واستخدام القوة، وقيام السلطة؛ وبذلك يتحدد إطار الحركة الصحيحة التي تنشأ من خلالها العلاقة الجدلية الصحيحة مع الفكر.

ومعنى هذا التحديد: أن أي كيان لا يتبنى أسلوب التبليغ وإقامة الحجة ورفع الالتباس وتصحيح المفاهيم وأسلوب المواجهة القوية الهادفة إلى إقامة السلطة الإسلامية.. أي كيان لا يتبنى هذه الأساليب يكون خارجًا عن إطار التحديد السياسي للحركة..

وليكن معلومًا أن الخلل في العلاقة بين الفكر والحركة خطر عظيم يسبب الفتنة في مرحلة الحركة والجماعة، ويسبب الانهيار[31] في مرحلة الدولة.

وفي هذا الصدد يجب التنبيه على خطر الاستغراق في التقارير والدراسات والبحوث والندوات والحوارات التي يناقش فيها الغرب موضوع الحركة الإسلامية حتى لا يكون ذلك على حساب المواجهة العملية.

كما يجب التنبيه على خطر الانفصال عن الواقع بزعم ضرورة العلم قبل العمل، وليس هذا معناه التقليل من قيمة العلم؛ بل معناه إدراك حقيقة العلم في واقع الدعوة الذي يكون بالعمل والمواجهة «**من عمل بما**

---

31 (?) والمثال التاريخي على ذلك: انهيار الدولة العباسية، حيث كان النضوج الفكري والانهيار السياسي في نفس الوقت.

علم.. رزقه الله علم ما لم يعلم»[32].

وأبرز قضايا العلاقة الجدلية بين الفكر والحركة هي: **قضية المرحلة المكية والمدنية**، وتفسير تلك العلاقة من أساسها.

وهذه القضية لها عناصر يجب إدراكها ابتدًاء:

- أن مرحلة الدعوة بعد تمام نزول القرآن تجاوزت المرحلة المكية والمدنية شرعًا.

- أن اعتبار الدعوة في مرحلة مكية أو مدنية بعد ذلك يكون باعتبار الحركة وظروفها.

فإذا كانت ظروف الدعوة تماثل المرحلة المكية اعتبرناها مرحلة مكية، وإذا كانت ظروف الدعوة تماثل المرحلة المدنية اعتبرناها مرحلة مدنية، ومارسنا تطبيق الأحكام المنهجية لكل مرحلة.

وعندئذ نكون ملزمين بدراسة علة الاختلاف المنهجي بين المرحلتين من حيث الواقع.

وبمجرد البدء في الدراسة نجد أن الحد الفاصل البين في هذا الاختلاف هو حد القدرة والاستطاعة.

فإذا كان الأصل في الدعوة هو الإعلان فإن عدم القدرة عليه يجعلنا نمارس حكمًا منهجيًّا مكيًّا وهو السرية.

وأهم مثال عن الإعلان وإظهار الدين باعتبار القدرة: هو جواز إقامة الجمعة والجماعات في غير ديار الإسلام.

---

[32] (?) سنن الدارمي، المقدمة، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، ح 382.

فبالرغم من أن إقامة الجمعة التي تحدد لإقامتها شروط فقهية مباشرة: أن تكون الدار التي تقام فيها الجمع هي دار الإسلام؛ فإنها تقام في غيرها من باب الجواز إذا كان هناك قدرة على إقامتها.

ولا يحتج لعدم إقامتها بانتفاء الوجوب لانتفاء الشرط الفقهي؛ لأن إقامتها باعتبار القدرة يكون من باب الجواز.. مثل إقامة الجمعة للمرأة والغلام والعبد من باب الجواز عند القدرة، رغم عدم الوجوب بالنسبة لهم؛ لانتفاء شروط وجوبها عليهم.

غير أن السيرة تحفظ لنا حدثًا ثابتًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم به الدليل على اعتبار القدرة في التفريق بين المرحلة المكية والمدنية وهو محاولة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي بن أبي طالب كسر الأصنام ليلًا دون أن يراهم أحد[33].

---

33 (?) أخرج القصة أحمد في المسند (1/84، 159) وذكرها الهيثمي في المجمع (6/23) وتمامها: عن علي بن أبي طالب قال: «انطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وسلم حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجلِس، وصعد على منكبي» فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفًا فنزل وجلس لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اصعد على منكبي»، قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيل إلي إني لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى استمكنت منه، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقذف به» فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نستبق، حتى توارينا بالبيوت؛ خشية أن يلقانا أحد من الناس».

التص

الفصل الثاني

الجانب الثاني من جوانب النظرية

«الواقع»

تحليل الحركة السياسية:

السياسة هي: مراعاة الواقع في إحقاق الحق، واعتبار الواقع في سبيل الوصول إلى الغاية.

ولذلك لا تتم أي ممارسة سياسية صحيحة إلا من خلال الواقع، حتى أصبح هذا الارتباط شرطا في صحتها.

ومن هنا كان ابتعاد العلماء عن الحياة العامة سببًا في جعلهم بعيدين عن السياسة نظريًّا وعمليًّا، وقد سجل هذه الظاهرة المؤرخ ابن خلدون.. فذكر أن العلماء أبعد عن السياسة ومذاهبها؛ والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والخوض في المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن؛ أمورا كلية، ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات.

ويقصد ابن خلدون أن كثيرا من العلماء -لعيشهم مع الكتب- ينظرون إلى الأمور من خلال الكتب، مع أن الواقع الخارجي «الدول وأحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية» يكون مغايرا أو محتاجا إلى تدقيق في التفاصيل.

وقد بلغ هذا الخطأ حد اعتبار الغياب عن الواقع شاهدا من شواهد التعمق في العلم..

وقد ترتب على غياب العلماء عن الواقع أخطاء فادحة في تنزل الأحكام الشرعية على الواقع، حتى بلغ

الغياب عن الواقع ببعضهم أن اعتبر الحكام المعاصـرين «المبدلين للشريعة».. مثل بعض الحكام الظـالمين من الدولة الأموية أو العباسية.

فالسياسة -كما يقول ابن خلدون- تحتاج إلى مراعـاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال فإنها خفية..

هذا إذا كانت السياسـة بمعـنى معرفـة الواقـع تمامـا ومحاولـة للنهـوض بالمسـلمين من خلال هـذه المعرفـة إلى الدرجة التي يريدها الإسلام، أمـا إذا كـان المقصـود بالسياســة المراوغــة والاحتيــال وإتقــان فن المداهنــة والنفاق فلا[34].

والإطار الواقعي للنظرية السياسـية يتحقـق مقتضـاه في الممارســة من جـانبين: الواقـع الـذي تُمـارس فيـه الدعوة، والبعد التاريخي لهذا الواقع.

الواقع الذي تمارس فيه الدعوة:

حيث تتم الممارســـة من خلال التقـــييم السياســـي للواقع، وهو التصـور الـذي يختلـف عن التحديـد الفقهي المباشر في الحكم على هذا الواقع..

مثال ذلـك: التفريـق بين الـروم والفـرس باعتبـار أن الروم ينتسبون إلى دين سماوي والفرس مجوس؛ ممـا جعـل المسـلمين يفرحـون لنصـر الـروم رغم أن الحكم الشرعي في الدولتين هو الكفر.

ومثال ذلك أيضا:

اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم الحبشة لتكــون مكانًـا للهجـرة الأولى قـائلًا: «**اذهبـوا إلى الحبشـة**

---

34 (?) أي فليست هذه الأمور هي المقصودة بالسياسة.

فــإن فيهــا ملكًــا لا يُظلم عنــده أحد»[35]. رغم مساواته في الكفر مـع غـيره؛ لأن كلام الرسـول صـلى الله عليه وسلم فيه كان قبل إسلامه.

ومن هذين المثالين يتضح الفرق بين التصـور الفقهي المجرد والتصور السياسـي؛ فالتصـور السياسـي يفـرق في التعامل بين دولة كافرة ودولـة كـافرة أخـرى، وبين حاكم كافر وحاكم كافر آخر.

ومن التقييم السياسـي للواقـع يتم التعامـل الصـحيح معه والاستفادة بطبيعته وخصائصه.

مثــل الاســتفادة **بالطبيعــة الاجتماعية** وتقاليــدها كتقاليد الجوار.. كما دخـل رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم مكة في جوار أحد المشركين[36]، وتقاليـد نصـرة المظلوم، كما أقـر رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم اجتماع العرب قبل الإسلام على أن لا يُظلم بينهم أحـد، وهو المعروف بحلف الفضول الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو دعيت إليه لأجبت**»[37]**.**

وبذلك تكون الاستفادة بـالواقع بكـل عناصـره **حتى جغرافية المكان**.. ولقد كـان موقـع غفـار في طريـق تجارة قريش مانعا لقريش من قتل أبي ذر.. وهــذا نص الحديث كما رواه أبو ذر الغفاري:

يقول أبو ذر لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم بعـد إسلامه:

---

35 (?) أخرجه ابن إسحاق (1/343/ابن هشام) (فتح 7/227).

36 (?) هـذا المشـرك هـو مطعم بن عـدي، وذكـر القصـة محمـد بن عبـد الوهاب في السيرة النبوية (ص: 83، 84).

37 (?) أخرج أحمد وأبو يعلى وصححه ابن حبـان والحـاكم من حـديث عبـد الرحمن بن عوف مرفوعا: «شهدت مع عمومتي حلف المطيـبين، فمـا أحب أن أنكثه» [10/518 - فتح].

والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم. فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا لهذا الصبي. فقاموا، فضُربتُ لأموت، فأدركني العباس فأكب عليَّ، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم... تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار؟! فأقلعوا عني، فلما أصبحت الغد رجعت فقلت ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا لهذا الصبي. فصُنع بي مثل ما صُنع بالأمس، وأدركني العباس فأكب علي وقال مثل مقاله بالأمس[38].

وكذلك الاستفادة من **العلاقات التجارية والموارد الطبيعية** وكان موقع أبي ثمامة من أهل اليمامة وموقع اليمامة من أهل مكة مانعا لقريش من قتله، وتقول السيرة: فلما أسلم أبو ثمامة خرج إلى مكة معتمرا، حتى إذا كان ببطن مكة قال: فكأني أول من دخل مكة. أخذته قريش وقالوا: لقد اختبأت علينا. وأرادوا قتله، فقال قائل منهم: دعوه؛ فإنكم محتاجون إلى الطعام من اليمامة. فتركوه، فقال لهم: والله لا أرجع إلى دينكم ولا أرفق بكم فأترك الميرة تأتيكم من اليمامة ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم[39].

والاستفادة من الواقع لا تقف عند حد الحاضر؛ بل تبلغ البعد التاريخي له والارتكاز على تجاربه التاريخية في التعامل مع أهله.

ولقد احتج مؤمن آل فرعون على فرعون احتجاجًا تاريخيًّا صحيحًا عندما قال له: **{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ**

---

38 (?) أخرجه البخاري: باب إسلام أبي ذر (7/210/3861 - فتح).

39 (?) والقصة ذكرها ابن عبد البر في ترجمة ثمامة بن أثال الحنفي (1/250)، والحافظ في ترجمته.

مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِـهِ حَتَّى إِذَا هَلَـكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللـهُ مِنْ بَعْـدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَـابٌ} [غافر: 34].

ومن هنا يجب التعامل مع الواقـع الـذي تمـارس فيـه الـدعوة بكـل هـذه الاعتبـارات: معرفـة طبيعـة النـاس وتقاليدهم وخصائص موقعهم وتاريخهم.

فعنـدما تكـون الـدعوة في مصـر -مثلا- يجب الانتبـاه إلى كل أبعاد هذا الواقع من حيث الطبيعة الإنسانية[40].

ولكن الجاهلية تحاول منع العقل المسلم من القـدرة على متابعة الواقع حتى أصبح هذا المنع أخطـر أسـاليب المواجهة الجاهلية للحركة الإسلامية.

لقد بلغ أمر التعمية السياسية التي يتعرض لها العقل المسـلم إلى حـد اعتبـار أن مجـرد متابعـة الموقـف السياسي هو الحد النهائي الذي يمكن الوصول إليه وأن تجاوز هذا الحد يكون أمرًا مستحيلًا.

وبـذلك يصـير أهم واجبـات الـدعوة هـو اجتمـاع كـل إمكانيـات الحركـة الإسـلامية بكـل اتجاهاتهـا في مهمـة إدراك الواقـع ومتابعتـه، باعتبـار أن السياسـة وظيفـة جماعيـة.. وأن إدراك الواقـع يجب أن يكـون هـو الآخـر وظيفة جماعية؛ ليصـبح نظـام جمـع المعلومـات ومتابعـة الواقع الجاهلي بكل الوسائل والأسـاليب لصـالح الحركـة الإسلامية أهم واجبات الممارسة السياسية للحركـة بكـل كياناتها. كضرورة أساسية لتحقيق المواجهة اللازمة لكـل المخططات الجاهلية ضد الدعوة.

---

40 (?) انظر: شخصية مصر لجمال حمدان.

تقييم الواقع الجاهلي:

وقيام الجماعة المسلمة يفرض على المسلم تقييم الواقع الذي قامت فيه؛ لأن التصور الذي لا يصل بصاحبه إلى حد تقييم الواقع لا يصل إلى حد الكمال والصواب.

وتقييم الجماعة المسلمة للواقع الجاهلي له أساسان:

- أساس عقدي يقوم به وجود الجماعة في هذا الواقع.

- أساس حركي تتم به مواجهة الجماعة لهذا الواقع.

أما عن التقييم العقدي فإنه يعد من أبعاد التصور الاعتقادي الذي قامت به الجماعة، وهؤلاء هم فتية الكهف يقول الله فيهم: **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}** [الكهف: 13-15]

وواضح من النص أن إعلان عقيدتهم بقولهم: **{رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** تبعه تلقائيًّا: **{هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}** وهو تقييم لواقع قومهم بمقتضى تصورهم.

وقيمة تقييم الواقع الجاهلي لا تنتهي عند اعتبارها شرطًا لصحة الاعتقاد الإسلامي، ولكنها كذلك تكليف شرعي كلفنا الله به باعتبارنا شهداءه سبحانه في

الأرض بدليل قوله عز وجل:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»[41].

وإذا كان الإحكام أساس لمعنى الحكمة فإن ذلك يقتضي ألا تطغى مهمة الشهادة أو الحكم على الناس على مهمة دعوتهم وغاية هدايتهم.

كما تقتضي عدم تجاهل مهمة التقييم والحكم والشهادة في واقع دعوتنا لهؤلاء الناس.. وبذلك يتقرر بمقتضى الحكمة أن نكون «دعاة وشهداء» في إحكام بين المهِمَّتين.

البعد التاريخي لواقع الدعوة:

يبدأ الكلام على الواقع التاريخي للدعوة بمناقشة تحقق الامتداد التاريخي الصحيح للدعوة ابتداءً من عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى واقعنا القائم.

وهنا نجد أنفسنا أمام أخطر قضايا التصور السياسي وهي قضية التراث كأساس لتحديد النظرية السياسية الإسلامية بالتعامل الصحيح مع التراث، ابتداءً من مهمة التحليل السياسي للتراث.

التحليل السياسي للتراث:

ومناقشة قضية التراث تكون بالمنطق السياسي ذاته، بمعنى أن التعامل مع كتب التراث لا يكون تعاملًا مع نصوص مجردة، بل يجب ربط النص التراثي بصاحبه

---

41 (?) البخاري (288/3) ومسلم (9499) من حديث أنس.

وواقعه وهدفه، وبذلك يؤخذ التراث بمنطق الحكمة، حيث يتوفر في التعامل عناصر التعريف الأساسية لمعنى الحكمة: «النص، وصاحب النص، وظروف النص، والغرض منه».

وبذلك تتحقق مهمة إحياء التراث، وتنبع من طبيعة وحقيقة التصور الصحيح لوظيفة ذلك الإحياء.. أما الاقتصار على الوظيفة اللغوية أو حتى التاريخية فإنه يجعل الإحياء قاصرًا..!

لكن الإحياء الكامل هو الإحياء بالحكمة، أو الارتفاع بالإحياء إلى مستوى الوظيفة السياسية.

والتحليل اللفظي لنصوص التراث يسمح باكتشاف حقيقة المدركات الكامنة في الألفاظ.. والتحليل التاريخي يحدد الواقع من حيث الزمان والمكان.

أما التحليل السياسي فهو ربط المدرك بالواقع.. والإنسان هو الذي يقوم بذلك الربط فينطبق مفهوم الحكمة على مهمة التحليل.

ولذلك يقول حامد ربيع: «التحليل السياسي للتراث يلغي عنصر الزمان؛ إذ يفرض على المحلل أن يسعى لإدراج التراث في إطار أكثر اتساعًا؛ حيث يصير النص التقاءً بين ماضٍ وحاضر ومستقبل بحيث يكشف الحقائق الثابتة الدائمة وتمييزها عن الأخرى المؤقتة...»[42].

ونحن إذ نركز على الإنسان المحلل فإنما يكون ذلك بسبب أن الإنسان نفسه هو الذي يربط بين النص وواقع صاحبه.. وهو الذي قد يضطر إلى تجريد النص

---

42 (?) سلوك المالك في تدبير الممالك.

التراثي من تلك العوامل إذا كانت نتيجة التحليل هي الوصول إلى حقيقة مطلقة يجب الاستفادة بها مجردة من ظروفها التاريخية.

ومهمة ربط النص بظروفه.. لإدراكه بصورة صحيحة.

وتجريد النص من ظروفه.. لاستخلاص حقيقته المطلقة والثابتة[43] هو ما يسمى بـ «الوعي السياسي».

إذن: الوعي السياسي هو مجموعة الحقائق المطلقة المأخوذة من التحليل السياسي للتراث التاريخي للأمة.

ومن هنا يجب ألا نتعامل مع النص التراثي كمجرد استجابة إلى نوع من أنواع الفضول، إنما من منطلق الحركية العلمية وهي أهم خصائص التنظيم السياسي. والحركة العلمية كخصيصة من خصائص التنظيم السياسي هي التعامل مع النص التراثي بمقتضى مفهوم الحكمة أو التصور السياسي.

نقل الخبرة:

وفي إطار تحليل الواقع التاريخي للدعوة تتحدد أخطر قضاياها تحديدًا سياسيًّا: وهي نقل الخبرة، التي تمتد من التاريخ حتى الواقع القائم للدعوة بكل تجاربها.

وفي نقل الخبرة السياسية من التراث يقول شهاب الدين بن أبي الربيع صاحب كتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» في أول صفات الزعيم السياسي: «**الرأي المتين بالبحث والنظر في تدابير**

---

43 (?) مثل قصة أصحاب الأخدود التي جردها القرآن وظروفها الشخصية والزمانية والمكانية، وذكرها كحقائق مطلقة ومحققة للوعي السياسي في واقع الدعوة حتى قيام الساعة.

السلف وتجاربهم».

وقضية نقل الخبرة السياسية تمتد من التاريخ القديم وهو التراث حتى التاريخ الحديث والواقع القائم.

والخبرة ترجع في مضمونها إلى التجربة سواء كـانت تاريخية أو حديثة.

ولكن التجربة كمصـدر للخـبرة ليسـت مجـرد إضـافة عقلية أو سـلوكية ولكنهـا قبـل ذلـك مصـدر يقين قلـبي يجعل من الإضـافة العقليـة والسـلوكية دافعـا لمواجهـة المواقف واطمئنانا في ممارسة تلك المواجهة.

والأخــذ بالتجربــة من أهم ضــرورات المواجهــة مــع الجاهلية لسـبب عملي واضـح وهـو أن الجاهليـة تجربـة واحدة بدأها إبليس بمعصيته واسـتكباره وسـيظل قائمًـا عليها إلى يوم البعث.

وهذا معناه أن الجاهلية تـاريخ واحـد وأن المواجهـة من جانبها للإسلام قائمة بخبرة تاريخية كاملة، ولنـا أن نتصـور بتلك القاعدة مدى التطور الجـاهلي في المواجهـة عنـدما يكون العامل الزمني الذي تتطور به هو هذا التاريخ القديم المستمر.

والمواجهـة الإسـلامية للجاهليـة وهي تجربـة تاريخيـة واحدة بتجارب مبتورة معناه فقد أكبر إمكانيات القــدرة الإسلامية في تلك المواجهة.

ولهذا تم لقاء مباشر بين موسى رسول بني إسرائيل وبين رسـولنا عليهمـا الصـلاة والسـلام ليلـة الإسـراء والمعراج في السماء.

واستجاب نبينـا عليه الصـلاة والسـلام لنصـيحة أخيـه

موسى..

واستجاب الله عز وجل لسؤال نبينا صلى الله عليه وسلم بالتخفيف، وأصبحت الصلاة خمسًا بعد خمسين[44].

وتقييم التجارب الإسلامية السابقة علينا ليست مجرد إضافة خبرة أو زيادة معرفة، ولكنها استمداد للخير من أصله؛ لأن أي تجربة حدثت في مجال الدعوة هي أحداث سبقنا بها دعاة نحن نليهم في استمرار الدعوة.

والخير على مستوى تاريخ هذه الأمة مرتبط بصفة السبق الزمني بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[45].

وصفة السبق الزمني هي التي تعطي للأحداث صفة التجربة.

وهذه مقارنة قرآنية بين فترة ما قبل الفتح وما بعده من خلال الإنفاق والقتال وذلك في قول الله: **{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** [الحديد:10].

وما سبق يحدد قيمة التجربة على المستوى التاريخي للدعوة، ليبدأ بعده تحديد قيمة التجربة على المستوى الفردي، وأثر التجربة في الداعية بصفة شخصية من خلال عدة نقاط:

---

44 (?) صحيح ابن حبان، كتاب الإسراء، ح50.

45 (?) البخاري (258/5) ومسلم (2535).

أولا: أن التجربة أساس للتربية:

ولذلك رعى كل الأنبياء الغنم قبل ممارسة الدعوة ليتزودوا من خلال تجربة الرعي بصفة السكينة والوقار[46].

ولعلنا ندرك قيمة الإنسان وخطورة التعامل معه في مجال الدعوة بدون تجربة، من خلال تزود الأنبياء بتجربة رعي الغنم قبل التعامل مع البشر.

ثانيًا: أن التجربة مصدر للثقة:

ولذلك جعل الله موسى يخوض تجربة العصا عندما تصير حية في الوادي المقدس، قبل أن يذهب إلى فرعون:

{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [طه: 17- 20].

ورغم أن موسى ذهب إلى فرعون مزودًا بتلك التجربة فإنه في موقف المواجهة أوجس في نفسه خيفة، فما بالنا لو ذهب بغير تجربة..؟!

ثالثًا: أن التجربة ضرورة لليقين:

لأن التجربة واليقين يلتقيان في الواقع؛ إذ إن الواقع هو مجال التجربة ومصدر اليقين؛ ولذلك كانت رؤية

---

46 (?) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الفخر والخيلاء في أهل الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم**».

زكريا لمريم في تجربة ملموسة للرزق بغير حساب هي مصدر يقينه بإمكانية أن يرزق الولد بعد أن اشتعل رأسه شيبًا:

{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 37، 38].

رابعًا: أن التجربة ضمان للصواب:

ولذلك يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم الحذر من معاودة الخطأ بالاستفادة من أي تجربة خاطئة فيقول: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»[47].

غير أن الاستفادة الحقيقية من تجارب الدعوة السابقة رهن بالتقييم الصحيح لها فكرًا وتطبيقًا.

فمن ناحية الفكر والمنهج يتم التقييم على أساس الالتزام بالكتاب والسنة والفهم السلفي لهما.

ومن ناحية التطبيق والواقع فإن التقييم يتم على أساس بلوغ حد الاستطاعة ماديًّا وتنظيميًّا لتحقيق الهدف المحدد للتجربة.

أما التقييم الخاطئ للتجربة فهو الذي يبتعد عن جوهرها الشرعي والحركي فيفقدها أثرها في واقع الدعوة؛ حيث يصير التقييم بالابتعاد عن جوهر التجربة مجرد كلام نظري لا يتجاوز ناحيتها الشكلية أو نتائجها

---

47 (?) البخاري، كتاب الأدب، باب لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، ح 6133. مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، ح7690.

المادية، وبناء على التقييم الإيماني الصحيح فإن هناك تجارب إسلامية عظيمة وإن لم يكن لها نتائج مادية في الواقع ولكنها أخذت تلك الصفة لتحقق المستوى الإيماني الكامل فيها.

وهؤلاء هم أصحاب الشجرة يبايعون النبي صلى الله عليه وسلم على القتال بصدق فيرضى الله عنهم دون أن يقاتلوا: **{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** [الفتح: 18].

وقد يكون للتجربة آثارٌ ونتائج سياسية وإعلامية ضخمة وظاهرة، ولكن دلالاتها الإيمانية تكون خافية بجانب هذه الآثار الظاهرة؛ فيصبح من الواجب تحري هذه الدلالات الإيمانية للتجربة لتكون مثلا لأصحاب الدعوة.

ونضرب لذلك مثلاً يوضحه.. وهو حادث اغتيال السادات.

فقد كان لهذا الحادث آثار سياسية ضخمة أدركها العالم كله، ولكن كان بجانب هذه الآثار.. دلالات إيمانية لم يدركها إلا القريبون من الحدث.

ونترك شاهدًا من القوم على موقف لا يقل في دلالته الإيمانية عن موقف الاغتيال ذاته، وهو موقف تنفيذ الحكم الباطل بقتل خالد شوقي الإسلامبولي.

يقول الضابط المشارك في تنفيذ الحكم: من المعتاد في مثل هذه المواقف أن يسحب الجنود من سينفذ فيه الحكم لأنه غالبًا ما يفقد قدرته على التحكم في

أعصابه ويكون غير قادر على المشـي، ولكن خالد كان يسير بنفسه دون أن يكون معه أحد، بل ويسير مسرعـًا ثم يقف بنفسه في المكان ثابتًا مبتسمًا أمام طلقات الظلم والكفر..

هل يقل هذا الموقف عن بطولة وثبات حادث الاغتيال نفسه..؟

وهل يجوز أن ينقص تقييم التجربة إدراك هذا الموقف وتفسيره..؟

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكل تجربة خطؤها فإن التقييم الصحيح هو الحد الفاصل بين الخوف من الخطأ الذي يجعلنا نبذل أقصى الجهد لتحقيق صواب العمل وبين الخوف الذي يترتب عليه توقف العمل.

وبذلك، فإن التقييم الصحيح للتجربة هو الذي يضع المسلم في سبيل ميسر للعمل الصحيح بعد أن ينفض عنه غبار الخطأ ويعيد إليه دافع الاستمرار مزوَّدًا بتجربة ماضية ليخوض بها تجربة مقبلة.

قواعد نقل الخبرة:

ومما سبق يتبين أن مهمة نقل الخبرة لها عدة قواعد:

- **الصواب الشرعي**؛ فعند تقييم أي عمل إسلامي في واقع الدعوة نسأل أولًا عن الحكم الشرعي في هذا العمل.

- بلـوغ حـد الاسـتطاعة المـادي والتنظيمي المقدر لتحقيق الهدف..

فإن كان صوابًا شرعيًّا نسأل: هـل بلـغ أصـحاب هـذا العمل حد الاستطاعة المادي والتنظيمي قبل القيام به؟

فإن لم يبلغوا فيكون الحكم عليهم بالتقصير من هذه الناحية، وإن كانوا قد بلغوا فلا بأس عليهم.

فإذا توافر الدليل الشرعي بالصواب من حيث الحكم وتــوافر حــد الاســتطاعة المــادي والتنظيمي من حيث العمل، ثم كان الخطأ في الممارسة.. فإننـا نواجـه هـذا الخطأ بعدة واجبات:

الأول: معالجة هذا الخطأ وأثره في الواقع..

الثاني: قد يحدث خطأ باعتبار الخطة وبالقياس إلى الهدف المحـدد، ولكن قـد يكـون لهـذا الخطـأ بالاعتبـار القدري جانب إيجابي بالقياس إلى الواقع، فعندئـذ يجب الانتباه لهذا الخطأ المنهجي مع تحديد أسلوب الاستفادة من أي نتائج كائنة بقدر الله في واقع الممارسة.

فلا يمنـع خطـأ الممارسـة مهمـة الاسـتفادة من النتـائج الحادثة بصفة قدرية بحتة!

كما أن الاسـتفادة من النتـائج الحادثـة قـدرًا لا يعـني إقرار خطأ الممارسة..

الثالث: ربـط آثـار التجربـة بكـل جوانبهـا الإيجابيـة المحددة تخطيطًا، أو السلبية الناشئة عن الممارسة، أو الحادثـة قـدرًا، بواقـع الـدعوة، وتقـييم الوضـع النهـائي للتجربة، استعدادًا لمرحلة جديدة.

الرابع: الارتفاع بمفهوم الأخوَّة فوق مستوى الصــواب أو الخطأ، فلا يعني الحكم بخطأ الممارسة أن ينسحب أثر هذا الحكم على صاحب هذه الممارسة، لأن المقصود من

تقـييم الممارسـة الاسـتفادة من الأخطـاء لتفاديهـا، وليس الأشخاص بذاتهم.

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكـل تجربـة خطؤهـا فإن التقييم الصحيح هو الذي يرتفع بحقيقـة الأخـوة، فلا تكون مرهونة بصواب أو مفقودة بخطأ، طالما أن قيـام التجربة كان في حدود الإيمان الصحيح..

ويسعنا في ذلك قول الله عز وجل:

{رَبَّنَـا اغْفِـرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَـا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَـا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُـوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

التقييم التاريخي:

كمـا يجب تقـييم أي تجربـة على أسـاس الواقـع والظـروف الـتي تمت فيهـا، فيقـاس تقـييم أي حـدث تاريخي بالنسبة لواقع الدعوة القائم إلى ظروف البدايـة التي لم يملك فيها أصحاب الـدعوة أي تصـور حـركي أو خبرة سابقة أو إمكانية للعمل.

فعنـدما يقـوم رجـل ليمشـي بعـد وقت طويـل من المـرض والرقـاد وعـدم الحركـة لا يجب أن نسـأله إلى أين أنت سائر؟ وما هي وجهتـك؟ إنـه يتحـرك.. يتحـرك فقط وهذا يكفي.. أو عندما يفر إنسان من حريـق يكـاد يلتهمه، لا نسأله إلى أين أنت ذاهب؟ ومـا هي وجهتـك؟ إنه يفر من الحريق.. يفر فقط وهذا يكفي!

هكذا كان الحال في البداية..[48]

---

[48] (?) المقصود بالبداية هنا هي الفترة من 1965 حيث كان قادة الحركـة الإسلامية في السجون، ولم يكن في الواقع أي عناصر تتمتـع بـالخبرة، وتستطيع قيادة التجربة.

ومن هنا كانت التصرفات التي لا يمكن الاقتناع بها الآن.. تمثل بالنسبة لأصحاب هذه المرحلة خطوة متقدمة..

مثل: فكرة الهجرة التي تبناها زعيم إحدى الجماعات..

فجمع أتباعه في إحدى المناطق الصحراوية في الصعيد ليقيم مجتمعا بعيدا عن المجتمع الجاهلي، هذه الفكرة التي تبدو الآن غريبة لا معنى لها، كانت في وقتها فكرة متقدمة ملهمة لعدد كبير من الشباب الذين انضووا تحتها بقناعة وحماس.

وابتداء من المحاولات الأولى وانتهاء بالمرحلة القائمة كانت كل تجارب الدعوة وأحداثها تمثل أقصى حد للاستطاعة يبلغه أصحاب الدعوة من حيث التحديد المنهجي ومن حيث الإمكانيات التنظيمية والمادية.

وهذا التحديد شرط عملي هام لكي تكون هذه الجماعة امتداد صحيحًا للواقع التاريخي للدعوة وذلك بأن تجتمع فيها كل تجارب الدعوة السابقة.. وهذا ما يتحقق بربط الجماعة القائمة بالواقع التاريخي برباط التجربة.

وفي ذلك تحقيق لأهم مقتضيات الحكمة؛ حيث جاء في تعريفها من حيث علاقتها بالتجربة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل حليم عثرة ولكل حكيم تجربة»[(49)] ولقولهم في تعريف الحكمة: «رجل حكيم أي رجل أحكمته التجارب».

---

[49] (?) الحاكم في المستدرك، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

التفسير التاريخي للحركة الإسلامية

ويدخل في نقل الخـبرة وتقـييم التجربـة الإسـلامية.. التفسـير التـاريخي للـدعوة، وقيمـة هـذا التفسـير هي إدراك النتـائج الناشـئة عن السـياق التـاريخي للحركـة بصفة عامة وهو الأمر الذي يختلـف عن النتـائج الناشـئة عن حدث محدد أو فترة محددة.

فلا يمكن قيـــاس المســـتوى المنهجي للحركـــة في المرحلة القائمة إلا بقياسـها على المحـاولات البسـيطة التي بدأتها الحركة.

ولا يمكن قيــاس اســتقرار ظــاهرة الالــتزام بــالزي الشرعي للنساء إلا بقياسها على محاولـة خـروج الأخت الأولى بهذا الزي إلى الشارع، والاحتمـالات الـتي كـانت قائمة من جهة الناس.

ولا يمكن قيـــاس الوصـــول إلى المرحلـــة العمليـــة للمواجهة إلا بقياسها على المرحلة التي لم تتجاوز بكـل اتجاهاتها الحد النظري ومجرد الكلام.

ولا يمكن قياس النتائج المتحققة في واقع الدعوة إلا بإدراك حجم القوة الجاهلية المانعة من هذه النتـائج من الناحية الأمنية والسياسية وجميع النواحي الأخرى وعلى كل المستويات العالمية والإقليمية.

الفصل الثالث

الجانب الثالث من جوانب النظرية

الإنسان «المسلم السياسي»

أما جانب «الإنسان» في النظرية السياسية فإنه يتمثل في مصطلحين:

الأول: المفكر السياسي

وذلك باعتبار أن الفكر مهمة إنسانية صادرة عن الإنسان المرتبط بالحق والناظر في الواقع والمدرك للغاية.

لتصبح جوانب الحكمة هي بذاتها عناصر الفكر السياسي.

وبذلك أصبح لزامًا على المفكر السياسي الإسلامي الالتزام بالأساس الشرعي؛ ليكون الحق هو القيمة العليا التي منها وبها تتحدد جميع أبعاد الممارسة السياسية.

وأصبح لزامًا على الفكر السياسي الإسلامي الارتباط بالواقع بجانبيه: الاجتماعي والحركي؛ وذلك من خلال الارتباط بواقع الدعوة، وكذلك من خلال الالتزام بقواعد الحركة لهذا الواقع أيضًا.

وأصبح لزامًا على المفكر السياسي الإسلامي اعتبار قضية الخلافة هي منطلقه الوحيد في بناء وتصور الحقيقة السياسية وذلك على أساس أن الخلافة هي الغاية النهائية للحركة.

وبذلك يُنشئ الفكر السياسي علاقة تفاعل بين التأمل في الحق، الذي يقوم به الإنسان، وهو يحيا في

الواقع، لإدراك الغاية.

وإذا كان التأمـل يعكس النبـوغ الفـردي والحساسـية الذاتية.. فإن الواقـع ترجمـة للمعانـاة اليوميـة من خلال الممارسة..

والاسـتمرارية الفكريـة تفـترض التتـابع المسـتمر، والمعاناة المنتظمة، في علاقة ثابتة بين الفكر والحركة؛ حتى تتحقق الغاية.

والمحصلة النهائية لبعدي الحق والإنسـان هي تكـوين المفكر السياسي.

والذي يجب فهمه هـو أن الإنسـان المـؤمن -صـاحب التصور السلفي- هو الذي يملك القدرة -بإذن الله- على أن يكون مفكرًا سياسيًّا.

وافتقاد هذا التصور يعني العجز عن تقديم أي عطـاء، بل والعجز عن الارتباط الصحيح بأحـداث الأمـة، وهنـاك أمثلة تاريخية لهذا الانفصال:

الغزالي: يعاصر الغزوة الصليبية فلا يعلق عليها..

الفارابي: يترك الواقع ويعيش مدينته الفاضلة..

ابن رشـد: يعيش مأسـاة انهيـار الدولـة الإسـلامية بالأنـدلس، ومـع ذلـك يحيـا تهـافت الفلاسـفة وغـير الفلاسفة..[50]

وقـد مـر بنـا الارتبـاط بين الفقـه والسياسـة، وأن الفقهاء كانوا هم المفكرين السياسيين في الأمة.

---

50 (?) هذه الأمثلة نقلا عن حامد ربيع في سلوك المالك.

الثاني: الزعامة السياسية:

الزعامة السياسية تعني باختصار: القدرة الذاتية على اتخاذ القرار السياسي المحقق لأقوى إمكانيات الصواب، وأقصى درجات الاطمئنان النفسي.. يعني «الجانب الإنساني للقرار السياسي».

ومن مجموع كتب الفكر الإسلامي التراثية والحديثة تتحدد **صفات الزعامة السياسية** اللازمة لاتخاذ القرار السياسي وأساسها:

- **الحكمة،** وهي الروية، والتميز، والورع، وضبط النفس، والشجاعة، والإقدام، سعة الأفق، قوة الحدس والتخمين.. ثم الرأي المتين، بالبحث والنظر في تدابير السلف وتجاربهم.
- **الإخلاص** الملهم للصواب، والمجبر للخطأ، والمحقق للثواب في كلا الاحتمالين، والمحقق في نفس الوقت للتجرد من الصراعات النفسية والمؤثرات العاطفية.
- **الصبر** على الشدائد بلا تردد الخائف، ولا تهور المتحمس، والذي يتحمل به المناوأة من المختلفين معه داخل كيانه السياسي، والمتربصين به خارج كيانه، والضاغطين عليه من العقول غير الفاهمة، والنفوس غير السوية..
- **الذكاء** المحقق للإحاطة بالقرار وآثاره واحتمالاته وبدائله؛ بدقة ذهنية واستشفاف مستقبلي يستوفي حق التفكير في القرار بأنسب وقت ممكن بحيث لا يكون فيه تعجل.. ولا تردد.
- **العلم** والخبرة المستخلصة من تجارب الواقع المشابهة للتجربة القائمة لتحقيق كل عناصر الصحة

والصواب بأسـهل الأسـاليب، وتحقيـق أكـبر العوامـل المنبهة للتجربة القائمة إلى المزالـق والثغـرات الـتي دفع ثمنها أصحاب التجارب السابقة حـتى لا يتضـاعف الثمن وتتضاءل الحصيلة.

- **الشـورى** الجامعــة لأقصــى إمكانيــة الصــواب في الرأي.

- **العزم** الـذي يجعـل صـاحب القـرار منطلقًـا بقـراره بأقصـى الاطمئنـان الشـرعي والحـركي والنفسـي.. اطمئنانًا يملؤه ويتعداه منـه إلى جميـع المحيطين بـه فيطمئنوا كما اطمأن اطمئنانًا واثقًا، بغير غرور يعمي عن الحقيقــة، وبغــير تــردد يضــيع الهــدف ويحــير المشاركين له في الموقف.

- **التوكل** المعين على خوض التجربة قبل بدئها وعلى تحمل آثارها بعد تمامها.

- **الحب والألفة**: الــتي تعين على الاطمئنــان لقــراره وتخفف من وطأة الخطـأ إذا حـدث وتعين على تحمـل المعانــاة المترتبــة على الخطــأ.. الحب الــذي يجعــل الجميع يبـذل كـل مـا في وسـعه؛ لإنجـاح قـرار يحبـون صاحبه **(خَيْرُ أمرائكم من تحبونهم)**[51].

وبصفة نهائية تكون **القوة الشخصـية**.. الـتي يأخـذ بهـا فرصـته الكاملـة في اتخـاذ قـراره، ويتنبـه بهـا إلى المحاولات الطبيعية المصاحبة لكل قــرار جديـد، والـتي يحاول فيها أصحابها نقد أو رفض القــرار من المحيطين بصاحب القرار عندما يكون حولـه المخلص غـير الـذكي

---

[51] (?) رواه مسلم في الإمارة باب وجوب الإنكار على الأمير فيما يخــالف الشرع (4/12/244 – نووي)، وأحمد في المسند (6/24) عن عوف بن مالك بلفظ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم**».

والـذكي الفاقـد للخـبرة؛ حيث سـيترتب على فقـد أي عنصر من عناصـر الإخلاص والـذكاء والخـبرة.. محاولـة معاكسة لصاحب القرار..

القوة الشخصية التي ينشئ بها واقعًا جديدًا، ومرحلة جديدة، ومتغيرات بقرارات سياسية تتطلب رجلًا قويًّا..

وأقـوى مـا تتمثـل فيـه القـوة الشخصـية للـزعيم السياسي هو قدرته على مواجهة جماعته ذاتها في حال الوقوع في خطأ جمـاعي يجب تصـحيحه، والـدليل على هذه الحقيقة ما كان من موقف موسـى مـع قومـه بعـد عبادتهم العجـل، الأمـر الـذي لم يسـتطعه هـارون، ومـا كـان في غـزوة أحد: **{أَوَلَمَّا أَصَـابَتْكُمْ مُصِـيبَةٌ قَـدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَـا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُـلْ هُـوَ مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمـران: 165].. أي: بسبب عصيانكم رَسُول الله صـلى الله عليه وسلم حين أمـركم أن لا تـبرحوا من مكـانكم فعصـيتم، يعني بذلك الرماة..

أو في حال اتخـاذ قـرار يـراه صـوابا ولا يشـاركه في هذه الرؤية أحد غيره، مثلما كان من أبي بكر في حرب الردة، وهذه الحالة لا تعتبر استبدادًا:

لأنها تستند إلى أساس شرعي..

ولأن القرار كان بعد المشورة..

ولأن العلاقة النفسية بين الجماعة والأمير كـانت قويـة بالدرجة التي تجاوزت بها الجماعة هذا الموقف، فاقتنعت بالرأي بعد ثبات أبي بكر عليه، ولذلك يقول عمر: (فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَـدْرَ أَبِى بَكْـرٍ لِلْقِتَـالِ

فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ)[52].

وأساس القوة الشخصية هو إيمان صادق يتعـرف بـه الـزعيم السياسـي على مصـلحة الـدعوة بكـل كيانـه ومواهبه..

وربانيـة تحميـه من أي تنـاقض بين إنسـانيته والحـق الـواجب.. وبصـيرة تثبُتُ بهـا الغايـة في فـؤاده.. وعلمٌ يمنعه من الغفلة عن الواقع وطبيعـة الأمـور، تخطـر لـه الفكرة ويلهم الأمر، ويلازم الصواب..

يعيش قضيته.. يتحرك بجماعته.. ينهض بأمته.. يحـيي حضارته.

وبـذلك تجتمـع في الزعامـة السياسـية كـل العناصـر المحققـة لمضـمون النظريـة السياسـية، والمحصـلة النهائية للممارسة.

وكمـا كـانت صـفات الزعامـة السياسـية أساسًـا في تحقيق غاية الجماعـة، فإنهـا هي نفسـها أسـاس حمايـة الجماعة من أخطار الزعامة.. وأشدها الإحساس بتعلـق أهداف الدعوة بهذا الزعيم وارتهانها بشخصه.

ومكمن الخطـر هـو أن الشـروط المحققـة للزعامـة هي نفسـها الـتي يتسـلل من خلالهـا هـذا الخطـر.. وخصوصا إذا طال الوقت بهـذا الـزعيم وكـثرت أعمالـه الساعية إلى تحقيق هدف الجماعة، فينشأ الشعور بـأن الجماعـة غـير قـادرة على تحقيـق أهـدافها بغـير هـذا الزعيم..

لقد تنبه عمر إلي هذا الخطر فكان قرار عـزل خالـد، ليؤمن المسلمون أن الأمر بيد اللـه وحـده..وفي غـزوة

[52] (?) رواه البخاري (6/2657، 6855)، ومسلم (1/51، 20).

أحد «لما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف، أشرف أبــو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمـد؟ فلم يجيبـوه. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبـوه -وكـان النـبي صـلى الله عليه وسلم منعهم من الإجابة- ولم يسـأل إلا عن هـؤلاء الثلاثة **لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسـلام بهم**-. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملـك عمـر نفسـه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقـد أبقى الله ما يسوءك»[53].

فنلاحـظ في الموقـف أن تصـور الجاهليـة للزعامـة -متمثلة في موقـف أبي سـفيان- يقـوم على الأشـخاص، وهو ما أكد عليه صاحب الرحيق المختـوم بقولـه: «ولم يسـأل إلا عن هـؤلاء الثلاثـة **لعلمـه وعلم قومـه أن قيام الإسلام بهم**».

قــد تمثـل في التصـور الإسـلامي الصـحيح لموقـف الزعامـة موقــف أنس بن النضــر -في نفس الغــزوة- عنـدما أشـيع خـبر مقتـل رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم، حيث قال لقومه من الأنصار: «يـا قـوم إن كـان محمد قد قتل، فـإن رب محمـد لم يقتـل ومـا تصـنعون في الحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على مـا قاتـل عليـه رسول الله، وموتوا على ما مات عليه».

وإشـاعة مقتـل رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم تسجل درسًا هامًا في قضية الزعامة السياسية، إذ قـدر الله سبحانه هذه الإشاعة لينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهـو حي، ليخـبرهم مـا يكـون إذا مات الرسول: **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُـلُ أَفَـإِنْ مَـاتَ أَوْ قُتِـلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى**

[53] (?) رواه البخاري وأحمد وأبو داود وابن حبـان، والاقتبـاس من الرحيـق المختوم للمباركفوري.

أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:144].

ويموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتمثل موقف الأمة في موقف عمر وأبي بكر..

عمر لا يصدق ويقول: محمد ذهب ليلقى ربه وسيعود..

وأبو بكر يستوعب الموقف ويقف خطيبًا ويقول كلمته المشهورة: يا أيها الناس! من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية، فيقول عمر: وكأني لم أسمعها من قبل!

فخاطبت الآية الأمة بعد وفاة رسولها صلى الله عليه وسلم **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}**.

وهذه العقيدة نتعامل بها مع زعمائنا في حياتهم وعند مماتهم وغيابهم، فإذا غاب منا زعيم وقلنا: «إنا لله وإنا إليه راجعون» أخلفنا الله خيرا منه..

فلا يجب أن تتجاوز الصدمة حق العقيدة، ولا تؤثر في هذه المسلمات..

والله سبحانه الذي صنع هذا الزعيم وأقدره على الوصول لهذه المكانة بيننا.. قادر على أن يخلفنا فيه خيرا.

طالوت.. درس في الزعامة:

وهناك تجربة قرآنية تاريخية في قضية الزعامــة.. هي قصــة طــالوت، الــتي عقب اللــه عليهــا بقولــه ســبحانه: **{تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَـا عَلَيْـكَ بِـالحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ}** [البقـرة: 252] لنفهمهــا درسًــا منهجيًــا باقيًــا لأتباع المرسلين..

والبداية هي تفسير حقيقة الموت والحياة:

والاستعداد للموت.. أساس الفهم الصــحيح، والحركـة الصــحيحة، ولــذلك تبــدأ الآيـات بمعالجـة هـذا الإحسـاس بحقيقة أن الحــرص على الحيـاة لا يبقيهــا، والخــوف من المــوت لا يمنعــه، وهــذه هي الحقيقــة في المعالجــة: **{الَّذِينَ خَرَجُــوا مِنْ دِيَــارِهِمْ وَهُمْ أُلُــوفٌ حَــذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا}** [البقرة: 243].

أماتهم الله وهم حريصون على الحيـاة، وبعـد أن مـاتوا وفقدوها.. أحياهم الله..!

وبعد فهم قضـية المــوت والحيــاة.. يكــون القتـال في ســبيل اللــه أمــر ســهل: **{وَقَاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**..

وعنــدما يكــون الاســتعداد للمــوت يكــون الاســتعداد للبذل.. سنة نفسية ثابتة، ومعيار سلوكي صــحيح: **{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَـنًا فَيُضَـاعِفَهُ لَـهُ أَضْــعَافًا كَثِيــرَةً وَاللــهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُــطُ وَإِلَيْــهِ تُرْجَعُونَ}**.

والله يحي ويميت.. ويقبض ويبسـط: **{تُـولِجُ اللَّيْـلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْـرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَـرْزُقُ مَنْ**

تَشَـــــــــــاءُ بِغَيْـــــــــــرِ حِسَـــــــــــابٍ}
[آل عمران:27]**..**

بهذه القاعدة نعيش الواقع ونخوض التجربة..

وتبـدأ الآيـات بالتحديـد الزمـني للتجربـة.. ملأ من بـني إسـرائيل: **{أَلَمْ تَـرَ إِلَى المَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ مِنْ بَعْـدِ مُوسَـى إِذْ قَـالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَـا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ}**

والتحديد الزمني **{مِنْ بَعْدِ مُوسَى}** كـان ضـروريًا، لأن آية الملـك سـتكون بقيـة ممـا تـرك آل موسـى وآل هارون..

ولكن الأمــر يتطلب الاطمئنــان إلى مصــداقية هــذا الطلب: **{قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا}**..

ولكن أصحاب الطلب يثبتون أهميته: **{قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا}**..

إجابــة مقنعــة.. فعنــدما يكــون الإخــراج من الــديار والأبنـاء.. لابـد أن يكـون القتـال، ومـع ذلـك فقـد يكـون الإخراج من الديار والأبناء، ولا يـرون وجـوب القتـال بـل يحاربون أهله..

حالـة تجـاوز فيهـا هـؤلاء النـاس حـد الطبـع الإنسـاني بالغيرة على العرض والأهل..فمسخوا وغابوا عن الـوعي والطبع، فلما كتب عليهم القتـال بعـد مطـالبتهم بـه.. لم يواصـــلوا الطريـــق الـــواجب: **{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَـــــالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللـــــهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}**..

ومن ذلـك أن اختبـار الحماسـة الظـاهرة والانـدفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.. فإن أكثرية بني إسرائيل هؤلاء قـد تولـوا بمجـرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم..

{وَقَـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللـهَ قَـدْ بَعَثَ لَكُمْ طَـالُوتَ مَلِكًـا} وكلمـة «بَعَثَ» تـدل على أن نشـأة الإمارة في مثـل هـذا الواقـع قضـية قدريـة خالصـة، لأن المعايير اللازمة للإمارة غير قائمة في واقع الفراغ، وهذا لا يعني إلا اللجـوء إلى اللـه والاسـتعانة بـه في أن يبعث من تجتمـع حولـه القلـوب، بـدلا من الهـروب وإسـقاط واجب الجماعة والاتجاه نحو العزلة..

كما أن كلمة «بَعَثَ» تـدل على أن الزعامـة في مثـل هذه الظروف ارتفاع بمستوى شخص من قدرها الله لـه فوق انحطاط الواقـع، والخـروج بـه عن سـياق الضـعف والتخبط.

وبمجـرد بعث طـالوت بـدأت مشـكلة الصـراع على الزعامة..

وقد يتبادر إلى الذهن أنه مـا كـان لهـذه المشـكلة أن تظهـر في مثـل هـذه الظـروف، ولكن هـذه المشـكلة تفرض نفسها على كـل الظـروف، وتلـك هي خطورتهـا، مما يقتضي التعامل معها باعتبار تلك الخطورة: **{قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَـهُ المُلْـكُ عَلَيْنَـا وَنَحْنُ أَحَـقُّ بِالمُلْـكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ}**

جميعهم قالوا.. كل واحد منهم قال..

كل واحد منهم كان يتصور أنه أحق بالزعامة..

وفهم هذه المشكلة هو الذي يحقق التعامـل الصـحيح

معها، وأول قواعد هذا التعامل هو فـرض الزعامـة كـأمر واقع: **{قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ}**..

ثم تحقيق القناعة النفسية بالزعامة بعد فرضها..

وتـرتيب الآيـة في تفسـير المشـكلة هـو نفسـه تـرتيب مواجهتها.. الفرض ثم القناعة.

وإثبات إمكانيـة الزعامـة المفروضـة هي أول أسـباب تحقيـــق القناعـــة: **{وَزَادَهُ بَسْـــطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ}** وهما عنصري الزعامة..

فالنـاس يحتـاجون إلى العلم الصـحيح ويحتـاجون إلى صاحبه، وتكون لـه الولايـة عليهم، وكـذلك يحتـاج النـاس إلى العمل ويحتاجون إلى صاحب القدرة عليه..

ولا يؤثر في الأتباع ويضمن ولاءهم إلا العطــاء العلمي والقدرة العملية:

العطاء العلمي الذي يجده الأتباع في زعيمهم فيتحقق لهم الإيمان بأنهم على الحـق في كـل موقـف وفي كـل خطوة..

والقـدرة العمليـة في تحـريكهم إلى العمـل بمقتضـي هذا الحق..

وبتحقيق الولاء للزعامة السياسية بخصائصها وقدراتها الذاتية والنفسية والسلوكية في شخص الزعيم.. ينقطــع طمع كل واحد فيها لتبدأ مرحلة تقييم هذه الزعامة التي فرضت عليهم: **{وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللــهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}**.

والإيمــان بــأن الملــك بيــد اللــه يؤتيــه من يشــاء هــو

الأسـاس النفسـي الـذي تتحقـق بـه المعالجـة.. وهـذا الترتيب له تفسيره:

فالأمر الأول هو فرض الزعامة الـذي سـينهي الطمـع فيها..

لتنتقل النفس بعد اليأس منها إلى تقييم من اسـتحقها دونهم..

فيـأتي الأمـر الثـاني وهي بالإمكانيـات واقـع ثـابت في الزعيم المختار يصعب على الإنسان ادعائه لنفسه، ليأتي الاختصاص الذي لا حيلة لأحد فيه: وهو المشيئة الإلهية..

واعتبار الكفاءة في اختيـار الزعامـة يعـني أن القـدرة على تحقيـق الهـدف الإسـلامي هـو المعيـار الأساسـي للاختيـار، وأن المقارنــة بين أصـحاب الفكــر النظــري وأصحاب القدرة على تحقيق الهدف الإسـلامي الصـحيح عمليًا يجب أن تكون لصالح أصحاب هذه القدرة العملية.

وكل ما سبق قـد لا يكفي النفس للتسـليم بالزعامـة، فيدخل إلى النفس أن كل هذه الاختصاصات غـير كافيـة إذا كان الأمر متعلقا بمصير الأمة..

فـترغب النفس بعـد ذلـك إلى الاطمئنـان إلى صـواب الزعامـة وإمكانيـة تحقيـق النصـر بهـا، فتنتقـل الآيـات لمتابعة المشكلة: **{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَـةَ مُلْكِـهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيـهِ سَـكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**

التابوت حقيقة محسوسة ملموسة للاطمئنان..

والتابوت نفسه جعل الله فيه السكينة..

وكـان التـابوت كافيًـا.. ولكن طـالوت أتي بالتـابوت **{وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُـهُ الْمَلَائِكَةُ}** ليكون الارتباط القـدري الشخصـي بين نـبي الأمة ونصرها هو ما تعنيه البقية..

ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة هذا الارتباط باعتبار أن امتداد صلة الأمـة بـالنبي هي أسـاس الفتح فيقـول: «**يـأتي على النـاس زمـان يغـزون، فيقـال: فيكم من صـحب رسـول الله** صـلى الله عليه وســلم؟ **فيقولــون: نعم، فيفتح عليهم، ثم يغزون فيقال لهم: هل فيكم من صحب رسول الله** صلى الله عليه وسلم؟ **فيقولـون: نعم، فيفتح لهم**» البخاري في صحيحه.

وفي رواية أبي داود: عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**يأتي على الناس زمان - فيغزو فئـام من الناس. فيقال لهم: هـل فيكم من رأى رسـول الله** صلى الله عليه وسلم؟ **فيقولـون: نعم، فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هـل فيكم من رأى من صـحب رسـول الله** صـلى الله عليه وسلم؟ **فيقولون: نعم فيفتح لهم. ثم يغـزو فئام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صـحب رسـول الله** صـلى الله عليه وسلم **ويقولون: نعم فيفتح لهم**».

ولعلنـا نلاحـظ عبـارة هـل فيكم من رأى رسـول اللـه صلى الله عليه وسـلم الـتي تـدل على أن رؤيـة رسـول الله صلى الله عليه وسلم كانت أساسًـا للفتح، ومن هنـا قدم البخاري من خلال أبواب كتاب الجهاد صورة وصفية لكل تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وكأننا نراه ليقــترب المســلمون من رؤيــة الرســول ليتحقــق في

المسلمين أمرًا يعينهم على فتح الله لهم.

وإن كانت البقيـة الـتي تركهـا آل موسـى وآل هـارون هي التابوت فيه السكينة من الله.. فإن ما تركـه رسـول اللــه صــلى الله عليه وســلم هــو كتــاب اللــه وســنته: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعـدي أبدا كتاب الله وسنتي**».

{فَلَمَّا فَصَلَ طَـالُوتُ بِـالجُنُودِ}.. لم يكن هنـاك فــارق زمــني بين اختيــار طــالوت زعيمًــا وبين فصــله بالجنود، ولـذلك لم تـذكر الآيـة إعلان اتفـاق الأتبـاع على زعامة طالوت، بل جاء مباشرة الفصل بالجنود -الخـروج بهم إلى القتال- فإن أخطر ما يواجـه الزعامـة أن يعيش الأتباع في فراغ من العمل ولو لوقت ضئيل..!

وأخطر مشـاكل الـدعوة هي جمـع الأتبـاع دون وجـود الخطط المتفق عليها للعمل، ولابد من تطور العمـل لأن الأتباع لا يقنعون إلا بالعمـل، ولا يقتنعـون بعـد العمـل إلا بعمل أقوى منه: **{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللـهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَـرٍ فَمَنْ شَـرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي}**

فالابتلاء بالنهر جـاء بعـد الفصـل بـالجنود، وهنـا يتـبين الفهم الصــحيح لمرحلــة التربيــة.. أن تكــون من خلال الواقع، وفي إطار المواجهة والواقـع القتـالي، وفي هـذا الواقع يكون البلاء..

وتأتي حقيقة التوازن بين الصـبر على البلاء.. والثبـات على الحــق والطاعــة.. من ناحيــة، واعتبــار الطبيعــة البشرية.. من ناحية أخرى!

فكان مقتضي الصبر على الطاعة هو: **{فَمَنْ شَرِبَ**

مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي}

وكان اعتبـار الطبيعـة هـو **{إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَـةً بِيَدِهِ}**

فيـدخل في تحقيـق التـوازن في التربيـة: العـدل بين الأتباع..

لأن الاحتيـاج إلى المـاء سـيكون بقـدر حجم الجسـم، ومعيار حجم الجسـم هـو حجم اليـد، ولـذلك كـان الأمـر بالشرب بغرفة اليـد، وهـو مـا جـاء في نص الأمـر: **{إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ}**..

ولما كان البلاء هنا هو اختبار الاستعداد للموت.. كانت طبيعة البلاء من جنس طبيعة الهدف منه، فكان الامتنـاع عن شرب الماء وهو سـبب الحيـاة.. اختبـار في القـدرة على التضحية بهـذه الحيـاة: **{فَشَرِبُوا مِنْـهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ}**..

وفي ذلك يقول سيد قطب:

«شربوا وارتووا. فقد كـان أبـاح لهم أن يغـترف منهم من يريد غرفة بيده, تبل الظمـأ ولكنهـا لا تشـي بالرغبـة في التخلــف! وانفصــلوا عنــه بمجــرد استســلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقـه وعـاتقهم. وكـان من الخـير ومن الحـزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف , لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم , ولكن بـالقلب الصامد , والإرادة الجازمة , والإيمـان الثـابت المسـتقيم على الطريق»[54].

{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ}..

---

54 (?) في ظلال القرآن.

وهذه الآية تناقش أخطر قضايا فقه الـدعوة: فالذين آمنوا هنا لا تعني كفـر من عصـي وشـرب، لكنهـا تعني إيمان من أطاع! وهذا هو حد الارتباط بين مصطلح الإيمان وعلاقته بالواقع العملي للدعوة والسمع والطاعة فيها.. أن تكون الطاعة إيمانا دون التكفير بالمعصــية، إلا أن تكون المعصية نفسها كفرًا.

ورغم الطاعة.. قد يكون الضـعف، فالطاعـة والإيمـان يكون معهما معالجة الطبيعة البشرية الضعيفة: **{قَـالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}**.

والمتكلمون هنا هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر والابتلاء بــه، الــذين ثبت اســتعدادهم للمــوت.. لم يصــطدموا بالحرص على الحياة.. ولكنهم اصطدموا بواقع المواجهة الصعب!

نحن مستعدون للموت.. ولكننا قلة!

وتجاوز هذه الظروف يتطلب مستوى أعلى من تجاوز الابتلاء بالنهر، وهنـا يظهـر أهـل النصـر عنـدما يرتفعـون بإيمانهم فوق الظروف.. مستوى اليقين بلقاء الله الــذي تعــرج بــه النفس فــوق مســتوى الواقــع: **{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُــو اللـــهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَـــةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}** [البقرة: 249].

لم يصل إلى مرحلة القدرة على القتال إلا من تجــاوز مشكلة الزعامـة.. ثم بلاء النهـر.. ثم بلاء الصـدام ولقـاء العدو!

وذلـك بـالتجرد من حب الإمـارة، وهـو أشـد حظـوظ النفس..

والتحكم في الرغبــة النفســية الطبيعيــة في الحيــاة.. وهي أشد رغبات النفس..

والإقبال على الموت.. وهو أشد مكروه إلى النفس..

ليتحقق اليقين في لقاء الله!

وبعد إنشـاء الواقـع العملي بأبعـاده الكاملـة.. تنشـأ معـايير الاختيـار الشـرعية والعمليـة بصـورة طبيعيـة، والمثال عليها اختيار داود عليه السلام، وذلــك أن داود كان فردا ضمن الذين كانوا مع طالوت، وكـان لـه دور متقـــدم بين الصـــفوف.. مَكَّنَــهُ من أن يقتــل جــالوت، فتمــيز داود بصــورة لم تجعل له قرينًا فكـان هـو الملـك بعـد طـالوت بصـورة تلقائية: **{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالحِكْمَةَ}.**

وقتل داود لجالوت هـو اختصـار لمعنى التجربـة كلـه، وهذا الاختصار.. مثالٌ منهجيٌ لحقيقة الصراع كمـا أراده الله..

فقتل داود الفتى الصغير لجالوت ملك العمـاليق يـدل على قـدرة اللــه المطلقــة، ولــذلك يقــول ســيد قطب: «وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل. وجالوت كــان ملكا قويا وقائدا مخوفا.. ولكن الله شاء أن يـرى القــوم وقتــذاك أن الأمــور لا تجــري بظواهرهــا, إنمــا تجــري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو. ومقاديرها في يده وحــده. فليس عليهم إلا أن ينهضــوا هم بــواجبهم, ويفــوا اللـــه بعهدهم. ثم يكون ما يريـده اللـه بالشـكل الـذي يريـده. وقد أراد أن يجعل مصـرع هـذا الجبـار الغشـوم على يـد هـذا الفـتى الصـغير , لـيرى النـاس أن الجبـابرة الـذين يرهبونهم ضعاف.. يغلبهم الفتية الصغار حين يشـاء اللـه

أن يقتلهم.. وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله؛ فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت, ويرثه ابنه سليمان , فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل، جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود.

{وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}..

ونمضي مع القصة.. فإذًا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله, التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء, وتستمد قوتها كلها من إذن الله, وتستمد يقينها كله من الثقة في الله, وأنه مع الصابرين.. إذًا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة , الثابتة , التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته , مع ضعفها وقلتها.. إذًا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله, وتتجه بقلوبها إليه, وتطلب النصر منه وحده , وهي تواجه الهول الرهيب: **{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}**..

هكذا.. **{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}**.. وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضًا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم , وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة. **{وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}** فهي في يده - سبحانه - يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد **{وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ}**.. فقد وضح الموقف.. إيمان تجاه كفر. وحق إزاء باطل. ودعوة إلى الله لينصر أولياءه

المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجلج في الضمير , ولا غبش في التصور , ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: **{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ}**.. ويؤكد النص هذه الحقيقة: **{بِإِذْنِ اللهِ}**.. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون , ولطبيعة القوة التي تجريه.. إن المؤمنين ستار القدرة ; يفعل الله بهم ما يريد , وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم من الأمر شيء , ولا حول لهم ولا قوة , ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته , فيكون منهم ما يريده بإذنه.. وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عبد الله. اختاره الله»[55].

أما العبرة الكلية للقصة ففيها يقول سيد قطب:

«العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف, ومن تخلِّي القوم عنها فوجًا بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله.. فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدا.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين, بعد الهزيمة المنكرة, والمهانة الفاضحة, والتشريد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين».

---

55 (?) في ظلال القرآن.

إنسانية الممارسة السياسية:

وتعني ما يتعلق بالجانب الإنساني في الممارسة السياسية، وتتلخص في:

الوطنية:

والمفهوم الوطني في التصور السياسي الإسلامي يتحدد في عدة عناصر:

- **العنصر الأول:** الإقرار بالإحساس الطبيعي للإنسان تجاه الوطن الذي نشأ فيه، وهو ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر من مكة؛ فقال مخاطبًا لها: **«ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»[56].**

ففي هذا الحديث كان الخطاب من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة، ومعنى ذلك شدة العاطفة نحوها، وفيه الإقرار بأنها أطيب البلاد، حتى لا يفهم الخروج منها بأنه تحول عنها، ولكنه كان تصرفا اضطراريًّا..

- **العنصر الثاني:** أن حب الوطن هو السعي لمصلحته، وأن تكون كلمة الله هي العليا فيه، وهذه هي مصلحته العليا..

وهذه المصلحة العليا لا تقف عند حد النجاة من النار في الآخرة، بل تتضمن الرخاء في الدنيا والرغد في العيش:

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *

---

56 (?) سنن الترمذي (5/723).

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: 10-12].

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: 3، 4]، ومن هنا كانت أولوية العشيرة في الدعوة إلى دين الله، وهو الأمر الوارد في قول الله عز وجل **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** [الشعراء: 214].

- **العنصر الثالث:** وفي حالة إعراض القوم والعشيرة يجب بذل أكبر جهد في معالجة هذا الإعراض، وهو ما تعلمناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال بكل قوة عاطفته موجهًا قريش إلى ما فيه مصلحتها:

«**يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ**».. أي قاتلوه هو!

ومع كل هذه الرحمة والشفقة فإنه يقول بعد ذلك:

«**فماذا تظن قريش؟! والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة**»[57].

وهذا الحديث يتضمن الحد الفاصل بين العاطفة نحو القوم والوطن، ومقتضيات العقيدة.. فالعاطفة نحو القوم

---

[57] (?) أخرجه أحمد في المسند (18930) وأبو داود، وحسنه الشيخ أحمد شاكر، وصححه الألباني.

لا تت

[58] (?) وفي هذا السـياق يجب مناقشـة مفهـوم القوميـة؛ ذلـك أن ارتبـاط الإسلام بالعرق العربي أوجد خلطًـا في المفـاهيم، حـتى تحـول مفهـوم القوميـة العربيـة إلى الحالـة الـتي كـان عليهـا الأمـر قبـل الإسـلام من التعاكس والتقابل مـع الـدعوة. يراجـع خـط الصـد عن سـبيل اللـه في السياسة الشيطانية، الباب الثالث، الفصل الأول.

الفصل الرابع

الجانب الرابع من جوانب النظرية

«الغاية»

أهداف العمل السياسي

وجانب الغاية في التصور السياسي له معنى جوهري وهو الهداية؛ لأن الهداية هي غاية الدعوة وحكمتها.

وباعتبار أن السلطة هي الوسيلة الأساسية لتحقيق الهداية **«إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»**[59].

وباعتبار أن للسلطة حدًّا نهائيًّا.. وهو الخلافة، أصبحت الخلافة هي الصيغة السياسية لغاية الهداية.

ولكن إقامة السلطة -ابتدًاء- والخلافة -كحد نهائي لها- تقتضي القوة.. والقوة غايتها الشهادة.. والشهادة غايتها الجنة، لتكون الشهادة والجنة غاية نهائية على المستوى الفردي لأصحاب الدعوة.

وبذلك يتحدد مجموع الغايات بصورة مرتبة:

الهداية: كغاية نهائية للدعوة.

الدولة والخلافة: كصيغة سياسية لتلك الغاية.

الشهادة والجنة: كمقتضى لتحقيق تلك الصيغة. وهذه الحقائق الثلاث هي التي تمثل في التصور السياسي جانب الغاية.

---

59 (?) أورده ابن كثير في تفسيره (5/109 – ط. كتاب الشعب).

أولًا: الهداية:

وبحسب ترتيب حقائق الغاية في التصور السياسي أصبحت غاية الهداية هي الهدف الذي ترتبط به كل الأساليب.

وهذا الارتباط حقيقة بارزة في التصور الإسلامي العام؛ حيث إن الغاية والأسلوب ليس بينهما في التصور الإسلامي أي تناقض، ومن هنا أصبحت غاية الهداية هي المحصلة النهائية لكل أبعاد التصور السياسي.

فالهداية هي محصلة البعد العسكري بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[60] وقوله: «**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**»[61].

وكذلك نجد في تعبير النبي صلى الله عليه وسلم حرصًا على ألا يطغى الأمر بالقتال على غاية الهداية تحقيقًا للإحكام بين المفاهيم، مثال قوله صلى الله عليه وسلم:

«**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» ثم قرأ: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}** [الغاشية: 21، 22] وذلك حتى لا تطغى مهمة القتال على مهمة التذكير في فهم الناس.

---

60 (?) أخرجه البخاري (3/1096، 2847)، ومسلم (4/1872، 2406) عن سلمة بن الأكوع.

61 (?) أخرجه البخارى (3/1096، رقم 2848)، وأحمد في المسند (2/406)، وأبو داود (2677).

ويشكو صحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يثبت على الخيل، فيدعو له النبي: «**اللهُمَّ ثَبِّتْهُ.. وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا**»[62].

واعتبار القوة وسيلة هداية يرجع إلى كونها أساسًا لقيام السلطة الإسلامية التي تعتبر بدورها أساسًا في تحقيق الهداية.

ودليل العلاقة بين القوة والسلطة والهداية هو قول الله عز وجل: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [النصر: 1-3].

ولذلك يجب أن يكون خط القتال مشدودًا إلى موقع السلطة، لتحقيق العلاقة التي أثبتها القرآن بين النصـر والفتح؛ باعتبار أن النصـر هو النتيجة العسكرية للقتال، وأن الفتح هو النتيجة السياسية للنصر، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر بعد القتال أيامًا في موقع القتال يقيم الأحكام، لتصبح دار الحرب دارًا للإسلام، ويتحقق الفتح بعد النصـر، مثلما انتظر الرسول في مكة بعد الفتح.

وإثبات القرآن للعلاقة بين القتال والسلطة هو الذي يرد أي تصور لقيام السلطة بغير القتال؛ ذلك لأن السلطة الإسلامية هي التي يتحقق بها الإظهار لدين الحق ولو كره الكافرون، ولن يكون ذلك إلا بالقوة، كما أن السلطة الإسلامية هي التي يأمن تحتها المسلم على ماله ودينه وعرضه، ولن يكون ذلك أيضًا إلا بالقوة.

والهداية هي محصلة البعد الاقتصادي بدليل قول

---

[62] (?) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: من لا يثبت على الخيل، (56/162).

الله: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [التوبة: 60].

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني أعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكبه الله في النار**»[63].

والهداية هي محصلة البعد الجماهيري[64]..

وفي تحديد معنى الغاية في التصور السياسي عدة حقائق أساسية:

- **ارتباط كل مراحل الدعوة وأساليبها بالغاية النهائية للدعوة:** وهذا الارتباط هو الذي يحمي الغاية من أن تتحول إلى شعار أو ادعاء ليس له وجود في الواقع.. مما يقتضي ارتباط كل مراحل الدعوة وأساليبها بغاية الدعوة.

- **العلاقة بين الكيانات المتعددة في الواقع الواحد:** وهي نقطة الضوء المكثفة حول حقيقة الغاية في التصور السياسي وهي حق هذه الغاية على مستوى كيانات الحركة المتعددة التي تتبنى جميعها الهداية كغاية واحدة لتلك الكيانات.

فيجب أن يكون لهذه الغاية الواحدة -وهي الخلافة- حق مفروض على طبيعة العلاقة بين الكيانات المتعددة الهادفة إلى هذه الغاية الواحدة.

---

63 (?) روى البخاري وأحمد حديثًا بمعناه عن عمرو بن تغلب (6/288/ح 3145)، والمسند (5/69).

64 (?) كما سيتضح – إن شاء الله – في باب أبعاد التصور السياسي.

وأهم القواعد في هذا الحق هي أنه: **«لا صراع مع مسلم»**.

ثانيًا: الخلافة.. الصيغة السياسية لحركة الهداية:

(أ) دولة الدعوة:

والسعي للخلافة كصيغة سياسية للغاية يبدأ بإقامة الدولة المرتبطة بالهداية.

فالدولة الإسلامية أساس قيامها: الدعوة ونشـر العقيدة، والدعوة الإسلامية محورها ووظيفتها: تحقيق القناعة بحقيقة الدين.

وواجب الرسول صلى الله عليه وسلم هو الدعوة: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل: 125]..

هذه الطبيعة المتميزة لابد وأن تكوِّن بخصائصها جميع عناصر ومتغيرات النموذج السياسي الإسلامي..

فالدولة وظيفتها الدفاع عن العقيدة..

وأساس شرعية السلطة ومحور وسبب وجودها هو نشـر الدعوة فيها..

والدعوة والسلطة يتفاعلان كحقيقة ديناميكية واحدة..

ورغم أن المحور الأساسي وجوهر هذا التفاعل هو الدين، إلا أن السلطة هي التي تأتي فتخلق ذلك الإطار الذي يتيح للفرد أن يحقق ذاته من خلال الاستجابة إلى

قواعد الممارسة الدينية..

وهكذا فإن شرعية السلطة هي الدين.. وأداة الدين هي السلطة.

إن واجب الدولة هو أن تدعو إلى كلمة الحق، وأن تدعو من خلال الإقناع، والاقتناع بهذا المفهوم لا بد أن يتحول إلى قواعد للممارسة في كل ما له صلة بنظرية التعامل السياسي في الحضارة الإسلامية.

وكذلك فإن البيعة كعقد سياسي مصدر للسلطة يتمركز حول عنصـر أساسي هو وحده محور شرعيتها، وهو مضمون الممارسة للسلطة..

«وخصائص العلاقة السياسية في النموذج الإسلامي هي: أنها علاقة مباشرة لا تعرف الوسيط: فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم هي علاقة بين اثنين يقف كل منهما من الآخر موقف مساواة، لا يفصل بينهما أية عقبات اجتماعية أو نظامية.

- أنها علاقة تابعة: تنبع من مفهوم العلاقة الدينية وتتحدد بها، حيث إن علاقة الإنسان المسلم بالكتاب الكريم هي التي تحدد خصائص العلاقة السياسية.

- أنها علاقة كفاحية: حيث إن مفهوم الدعوة ونشر تعاليم الإسلام الذي ينبع من طبيعة العلاقة الدينية يفرض على الفرد المسلم الدفاع عن المثالية الحركية، وبجميع الأدوات والوسائل.

- أنها علاقة مطلقة: لا تعرف التمييز والتنوع، والمقصود بالتنوع هنا التنوع الطبقي، أي التدرج التصاعدي، وبالتالي فالتمييز بين الحاكم والمحكوم هو تمييز وظيفي لا ينبع من متغير الانتماء ولا من متغير

الاستمرارية الوراثية.

- **أنها علاقة تتسم بالبساطة:** فهي لم تعرف التجريد المثالي الذي عرفته الحضارة اليونانية، والتركيب النظامي الذي عرفته الحضارتان الرومانية والكاثوليكية، ولا الاستيعاب المطلق الذي عرفه نموذج الدولة القومية.

وبالتالي فإن النموذج الإسلامي يعبر عن مذاق خاص يجمع بين الفكر والحركة، ويخلق توازنًا معينًا بين الحاكم والمحكوم، ولا ينسى أن السيادة هي وليدة القوة، وأن القوة هي وحدها التي تحمي الشرعية»[65].

والدولة هي مقتضى التوحيد؛ لأن الدولــة هي الحُكم، والحكم هو مقتـضى التوحيد: **{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِــهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللــهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُــدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِــكَ الــدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَــرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف: 40].

والدولــة هي التمكين للــدين في الأرض: **{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}** [النور: 55].ـ والدولة هي الأداة الأساسية لإقامة الدين:

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَآتَــوُا الزَّكَــاةَ وَأَمَــرُوا بِــالمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج: 41].

وهذا النص القرآني يتضمن أهم أصول التصور السياسي وهو الارتباط المنهجي بين العبادة والسياسة.

---

65 (?) بتصرف من تعليق الدكتور حامـد ربيـع -رحمـه اللـه- على «سـلوك المالك في تدبير الممالك».

لقد كانت بيعة العقبة الأولى هي أول مرحلة فعلية لإقامة الدولة.. وكان مضمونها: «**حتى أُبَلِّغَ دعوة ربي**»[66].. فالدولة هي الوسيلة الأساسية للدعوة.

ومن قول الله تعالى: **{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا}** [القصص: 5] ندرك أن هدف الدولة.. هو رفع الاستضعاف عن المسلمين.

وفي قوله سبحانه: **{حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ}** [البقرة: 193] ندرك أن الدولة لرفع الفتنة عن الناس؛ **{وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ}**.

ولذلك جاء تعريف وظيفة الدولة في التصور السياسي بأنها: مجموع الأهداف التي يجب أن تسعى الإرادة السياسية إلى تحقيقها من خلال الأداة النظامية[67].

إن الدولة عندما تكون للدعوة.. فإن هذا معناه أن يكون الحاكم ونظام الحكم والمحكومين به.. أداة للدعوة.

بل تكون الدعوة قضية كل إنسان وحياة كل نسمة في دولة الدعوة.

بل بلغ الأمر أن تكون الدعوة قضية الهدهد في دولة سليمان نبي الله:

فيعرف الشرك: **{وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ}** [النمل: 24] ويعرِّف التوحيد: **{أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي**

---

66 (?) أخرجه أحمد والبيهقي في الدلائل وفي السنن، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والهيثمي.

67 (?) أما الماوردي فيقول القول الأخير في مسألة الوظيفة الأساسية للدولة: وظيفة الدولة هي الدفاع عن العقيدة، وهو محور الحركة السياسية للدولة والمبرر لوجودها المسيطر على أهدافها.

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} ويعرِّف سبب الشـرك: **{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}** ويعرِّف السبيل: **{فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}**.

يتأخر وهو مطمئن؛ لأن معه نبأ عظيم.. نبأ فوق النظام.. نبأ من أجله كان النظام.. يتأخر ومعه عذره؛ لأن معه قضية الدعوة وهي قضية الحاكم وقضية الدولة وقضية الأمة..

هدهد يعرف أن الدعوة لأهل الأرض جميعهم؛ فيجب ألا يكون شرك في أي مكان، ففي سبأ شرك يجب القضاء عليه.. حتى لو لم تكن سبأ في ملك سليمان.

ودون أن يكون من رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ودون أن يكون من رجال الحسبة.. ودون أن يكون مكلفًا.. أو موظفًا.

فالـدعوة هي الضـمير.. وهي الـوعي والـذات.. وهي الهوية.

ولذلك يقول الإمام ابن القيم في شفاء العليل: «ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له.. جاء النهي عن قتله..».

لقد كانت دعوة الهدهد ولاءً للدولة الإسلامية، فكان لا بد أن يكون على الدولة الإسلامية واجب حمايته بعد أن أعطاها ولاءه، فجاء نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله ومعه النملة والنحلة[68]. من أجل ذلك يجب أن تكون خطوط الحركة مشدودة إلى هدف إقامة الدولة.

---

68 (?) أخرجه أحمد في المسند (1/332)، وأبـو داود (5267)، وابن ماجـه (3224)، جميعًا عن ابن عباس: «نهى عن قتـل أربـع من الـدواب: النملـة والنحلة والهدهد والصرد». وصححه الألباني في الإرواء (2490).

وهذه الخطوط هي أخطر خطوط التصور السياسي للحركة الإسلامية:

الخط الأول: هو أن يكون لقيام الدولة الاعتبار الأول في منهج الحركة وبحسب مقتضيات الواقع وطبيعة الظروف وبكل الإمكانات.

ولكن.. هذا الاعتبار لا يوقف كل كيان الحركة على هذا الهدف؛ إذ إن هناك أهدافًا موازية، ضرورية في ذاتها بصفة شرعية، ومؤدية إلى هذا الهدف الأساسي بصفة حركية..

وأهم هذه الأهداف:

- رفـع الالتبـاس عن النـاس واستفاضـة البلاغ -وهـو هدف شرعي.

ولكنــه -في نفس الــوقت بالصــفة الحركيــة- يعــني تكوين القاعدة المؤيدة للدولة الإسلامية ونظـام الحكم الإسلامي عندما يقوم.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -وهو هدف شـرعي-، ولكنه -في نفس الوقت بالصفة الحركية- يعني تهيئة الواقع الاجتماعي للإذعان لحكم الله.

- جمع الإمكانات لإقامة الدولة -وهو من إعداد القوة بالصفة الشـرعية-، ولكنه -في نفس الوقت بالصفة الحركية- يمثل الحماية التي تحمي الدولة من العجز الإداري والفني عند إقامة السلطة.

والشـرط الأساسي في ممارسة تحقيق هذه الأهداف الموازية لهدف إقامة السلطة:

- هو ألا يطغى هدف بعينه على بقية الأهداف الموازية..

- وألا يطغى مجموع الأهداف الموازية على هدف إقامة السلطة، والإعداد لها بالصورة الحركية المباشرة.. لأن هذا الهدف له الاعتبار الأول في الدعوة..

الخط الثاني: هو أن يكون للمستضعفين في زمن الحركة الولاية في نظام الدولة[69].. وذلك لأن الدولة والسلطة فتنة، فلا يجب أن يتعرض لها إلا من لا تضره بإذن الله..

والمستضعفون هم الذين عرضت على قلوبهم الفتن كالحصير عودًا عودًا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث[70].

فالمستضعفون هم الذين لا تضرهم الدنيا والسلطان بعد أن مروا بمرحلة الاستضعاف.. فتوليتهم حرز من فتنة السلطة، وهم –بقلوبهم البيضاء- خير من يحفظ أمانة السلطة.

من ناحية أخرى.. فإن تولية المستضعفين مسألة عدل.. ويدل على ذلك خطبة عمر بن الخطاب التي رواها ابن عمر: خطب عمر بن الخطاب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم

---

69 (?) إذا كانت الأحكام الشرعية تحمي الهدهد الذي كان له الولاء المطلق للدعوة، فكيف بمن كان له هذا الولاء من المسلمين؟!.

70 (?) عن حذيفة بن اليمان: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**» أخرجه مسلم (1/128، 144).

فقال:

«استوصوا بأصحابي خيرًا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[71].

كما قال عمر أيضًا في موضع آخر: إن الله عز وجل جعلني خازنًا لهذا المال وقاسمه له، ثم قال: بل الله يقسمه وأنا بادئ بأهل النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أشرفهم، نفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم عشـرة آلاف إلا جويرية وصفية وميمونة، فقالت عائشة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا، فعدل بينهن عمر، ثم قال: إني بادئ بأصحابي المهاجرين الأولين فإنا أخرجنا من ديارنا ظلمًا وعدوانًا، ثم أشرفهم.

ففرض لأصحاب بدر منهم خمسة آلاف، ولمن شهد بدرًا من الأنصار أربعة آلاف، ولمن شهد أحدًا ثلاثة آلاف، قال: ومن أسرع في الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء؛ فلا يلومن رجلٌ إلا مناخ راحلته[72].

وهــذه خطبــة عتبــة بن غــزوان الــتي تمثــل الوثيقــة السياسية التي يتأكد منها منهج الدعوة في الانتقـال من مرحلة الحركة إلى مرحلة الدولة.

عن خالد بن عُمَيْـر العَـدَوِيِّ، قَـالَ: «خَطَبَنَـا عُتْبَـةُ بنُ غَـزْوَانَ، وَكَـانَ أَمِـيرًا عَلَى البَصْـرَةِ، فَحَمِـدَ اللــه وَأَثْنَى عَلَيْـهِ، ثُمَّ قَـالَ: أَمَّا بَعْـدُ، فَـإِنَّ الـدُّنْيَا قَـدْ آذَنَتْ بِصُـرْمٍ، وَوَلَّتْ حَـذَّاءَ، وَلَمْ يَبْـقَ مِنْهَـا إِلاَّ صُـبَابَةٌ كَصُـبَابَةِ الإِنَـاءِ

---

[71] (?) رواه أحمـد في المسـند (1/18) عن عمـر بن الخطـاب، وابن حبـان في صحيحه (16/239/ح 7254).

[72] (?) رواه أحمــد في المســـند (3/475) عن أبي عمـــرو بن حفص بن المغيرة.

يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَاللهِ لَتُمْلأَنَّ.. أَفَعَجِبْتُمْ؟! وَلَقدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَليَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَام، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ اليَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصرٍ مِنَ الأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا، وإنَّه لم تكن نُبُوَّة قَطُّ إلا تَناسَخَت حتى تكونَ عاقِبَتُها مُلْكًا، وسَتَخْبُرون وتُجرِّبون الأمراءَ بعدَنا»[73].

ومن تحليل الوثيقة يتبين: كيف أن الولاية لم تؤثر في إيمان الولاة وارتباطهم بالآخرة واحتقارهم لشأن الدنيا، وكيف أن الولاية لم تنسَ الولاء فترة الاستضعاف، وأنها لا زالت هي الفترة التي تملأ عقله ووجدانه ولم تزحزحها عن ضميره ممارسة الحكم.

وكيف أن الولاية لم تصبه بأمراضها، فنراه يستعيذ بالله أن يكون في نفسه عظيمًا وعند الله صغيرًا، وكيف أن الولاية مرحلة ستمر ولن تبقى لهم وأنه سيأتي ولاة آخرون محددو الصفات والمعالم.

وهذه وثيقة أخرى تتضمن نفس القاعدة وهي وثيقة تعيين أول سفراء بعد إقامة الدولة الإسلامية..

وهذا بيان بأسماء المعينين وصفات كل

---

[73] (?) أخرجه مسلم في الزهد (4/2278،ـ 2967)، وأحمد في المسند (4/174) عن خالد بن عمير.

منهم:

حاطب بن أبي بلتعة: سـفير إلى مصـر أرسـل إلى المقوقس، وهو بدري شهد الحديبية[74].

دحية بن خليفة الكلـبي: سـفير إلى الـروم أرسـل لهرقل، وهو قديم شهد المشاهد[75].

سليط بن عمرو العامري: سفير اليمامـة أرسـل إلى هوذة بن علي وهو بدري له قدم في الإسلام[76].

شـجاع بن وهب الأسـدي: سـفير إلى دمشـق أرسـل إلى الحـرث بن أبي شـمر، من السـابقين هـاجر للحبشة[77].

عبد الله بن حذافة السهمي: سـفير إلى فـارس أرسل إلى أبرويز بن هرمـز، مجـاب الـدعوة من سـادة الصحابة[78].

عمـرو بن أميـة: سـفير إلى الحبشـة أرسـل إلى الأصم بن أبجر النجاشي، أسلم يوم أحد[79].

عمرو بن العـاص: سـفير إلى عمـان، أسـلم قبـل الفتح[80].

---

74 (?) انظر: الإصابة (1/314).

75 (?) انظر: الإصابة (1/463).

76 (?) انظر: الإصابة (2/70).

77 (?) انظـر: ترجمتـه في الإصـابة (2/137)، والاسـتيعاب في الإصـابة (2/157).

78 (?) انظـر: ترجمتـه في الإصـابة (2/287/ت 4622)، والاسـتيعاب في الإصابة (2/274).

79 (?) انظر: الإصابة (2/157/ت 5768).

80 (?) انظـــر: ترجمتـــه في الإصـــابة (3/2/ت 5884)، والاســـتيعاب في الإصابة (2/501).

وعندما نقدم هـذا النمـوذج التـاريخي لدولـة الـدعوة، نقدم معه هذه الحقيقة:

إن حقيقــة دولــة الــدعوة لا تتجلى إلا في التجربــة الإسلامية؛ لأن دار الإسلام هي الدار التي تعلوها أحكــام الإســلام، وعنــدما لا تعلوهــا أحكــام الإســلام لا تكــون إسلامية، وتصير خارج نطاق التجربة.

والإســلام يــرفض إثبــات اســم دار الإســلام لدولــة لا تعلوها أحكام الإسلام، ويعلن الفقه الإسلامي أن الدولــة الــتي لا تعلوهــا هــذه الأحكــام ليســت محســوبة على الإسلام.

وفي كــل مراحــل الدولــة المســلمة.. كــان شــرط الدعوة قائمًا، ابتدًاء من الخلافــة الراشــدة حــتى الملــك العضوض.. كانت الدعوة.

أما التجارب التاريخية للأمم السابقة في العلاقــة بين الدولــة والــدعوة فإنهــا تســمح بمتناقضــات غايــة في الخطورة، فالحضـارة اليونانيـة والرومانيـة والفارسـية.. لم يكن لها اهتمام بالدين. وحـتى الحضـارة الكاثوليكيـة الــــتي قــــامت على حقيقــــة التعصــــب الاســــتفزازي للمســيحية.. كــان هــذا التعصــب فارغًــا من مضــمون الدعوة.

حيث كــانت صــيغة هــذا التعصــب هي المزايــدة بين الأمراء والاتهامات بالهرطقة والسيطرة المقيتـة لرجـال الدين.. كـانت هوسًـا فارغًـا من مضـمون الـدعوة. حـتى مثال الدولـة اليهوديـة كرمـز للربـط بين الدولـة والـدين يثبت ويؤكـد أن دولــة الــدعوة ليســت إلا الإســلام؛ لأن اليهود ليست لهم أية صلة باليهودية.

ومن هنا استحقت الدعوة الإسلامية -دون غيرهـا- أن تكون المقيمة لدولة الحق، واستحقت الخلافة الإسلامية أن تكون المقيمة لحضارة الحق.

(ب) المضمون الحضاري لدولة الدعوة «الحق»:

فلكـل حضـارة مضـمون.. والحركـة صـانعة الحضـارة.. والحق هو مضمون الحركة الإسلامية وحضـارتها، ومن هنـا يتحدد مقتضى الحق كمضـمون للحضـارة الإسـلامية الـذي تنشـأ عنـه خصائصـها المسـتمدة من حركتهـا من البدايـة؛ لتكون هذه الخصائص:

- **العـدل**: متمثلًا في الوحــدة في معــايير السـلوك، والوحــدة في معــايير التعامــل.. **{كُونُـوا قَـوَّامِينَ بِالقِسْـطِ شُـهَدَاءَ للـهِ}** [النســاء:135]، **{كُونُـوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ}** [المائدة: 8].
- **العالمية**: فـإن الحـق الـذي تتبنـاه الحضـارة يجب أن يستوعب الواقع البشري جميعًا..
- **البقاء**: فإن مقتضى الحق الاسـتمرارية..«**لاَ تَزَالُ طَائِفَـةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَـقِّ حَتَّى يَـأْتِيَ أَمْـرُ اللهِ**»..
- **القوة**: فالحق مقتضاه من حيث التعامـل السـيطرة والظهور..

{هُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالهُـدَى وَدِينِ الحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْـرِكُونَ} [الصف:9]، من أجل ذلك تصبح القـوة الـتي تفـرض بهـا هذه السيطرة هي أهم مقتضيات الحق باعتبارهــا أداة تحقيق كل المقتضيات.

(ج) الصيغة السياسية للمضمون الحضاري:

إن قضية الخلافـة هي القضـية الإنسـانية الأولى لأنهـا ضبط للوجود الإنساني وفقًا لشرع الله سبحانه.

فإننـا إذ نحكم قومًـا معيـنين في مكـان معين بحكم الإسلام.. فإن ذلك قد يكون سهلًا إذا كان هـؤلاء النـاس يؤمنون بذلك ويرغبون فيه.

أما إقامة الخلافة الـتي تعـني جمـع كـل البشـر تحت نظام واحد.. فهو الأمر الذي يتطلب الدراسة الوافية.

لأنها الولاية على كل الأجنـاس، كـل القـارات، الـذين يؤمنـون، والـذين لا يؤمنـون، وبصـورة إنسـانية راقيـة.. يشعر فيها كل إنسان بأمنه وحقه ومكانته، رغم اختلاف الطبائع الفردية والجماعية والأممية.

ولأن هذه الولاية تقتضي اختيار الجماعـة الـتي تقـوم على عملية إنشاء هذه الولاية بدقة متناهية.

بخصائصـها الأساسـية: العـدل، والعالميـة، والبقـاء، والقوة..

ولقد سبق القـول إن الحضـارات السـابقة حضـارات مصـنوعة، جـاء مضـمون كـل حضـارة منهـا كـرد فعـل للحضارة التي تسبقها..

مثلما جاءت حضارة القوة الماديـة «الرومانيـة» كـرد فعل لحضارة المثالية الخيالية «اليونانية»..

وجاءت حضارة الحاكم الإلـه «الفارسـية» كـرد فعـل للقوة المادية «الرومانية»..

ومثلما جاءت حضارة الفرد والقومية «الأوربية» كرد فعل للتعصب الكاثوليكي «الكاثوليكية»..

وهذا دليل على أنها حضارات مصنوعة.

ودليل آخر على ذلك هو أن النظرية السياسية لكل حضارة لم تتكون إلا بعد فترة زمنية طويلة، وقطع أشواط تاريخية عبر حياة الأمة.. بل إن هناك أممًا لم تتكون نظريتها إلا في أواخر عمرها.

الأمر الذي يختلف تمامًا في حضارة الأمة الإسلامية التي تكونت نظريتها السياسية في حياة مؤسسها الأول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الحركة حتى الخلافة.

لأن الممارسة السياسية للمضمون الحضاري للأمة تعني أن يكون الموقف السياسي امتدادًا طبيعيًّا لتاريخ الأمة وانسجامًا مطلقًا مع حضارتها.

وذلك يقتضي أن تجتمع في هذا الموقف كل الخبرة السياسية للأمة المأخوذة عن تراثها السياسي وتجاربها التاريخية.

الباب الثاني

الممارسة السياسية

التص

بعد طرح النظرية السياسية ببنائها الفكري وجوانبها الأساسية (الحق والواقع والإنسان والغاية)..

تبدأ مناقشة الممارسة السياسية التي يجب أن تجتمع فيها كل جوانب وأسس النظرية السياسية..

وفي بداية الممارسة السياسية يكون الموقف السياسي..

التص

الفصل الأول

الموقف السياسي

(أ) الموقف السياسي «نقطة البدء»:

وكما تسهم كل نقطة عندما تتحـرك في صـنع الخـط.. كذلك يسهم الموقـف في تحديـد اتجـاه الخـط السياسـي للدولة وطبيعة البناء الحضاري للأمة في واقع الممارسة.

إذن فـالموقف السياسـي هـو النقطـة المتحركـة الصانعة للخط السياسي.

ولإنشاء الموقـف السياسـي عـدة قواعـد واعتبـارات أهمها:

الترتيب الإجرائي:

1- الحكم الشرعي في مضمون الموقف «الفقه»:

ولنضرب مثلًا لما نعنيه بكلمـة «مضـمون الموقـف».. فعنـدما نقـول بعـدم جـواز دخـول **المجـالس النيابية** يكون هذا هو عنوان الموقف.. بينما يكـون مضـمونه هـو قضية الحاكميـة، الـتي تعـني حكم اللـه للنـاس، وبطلان حكم الناس لأنفسهم.

فلابد من الوقوف على حكم الشرع في كل تفاصـيل الموقف قبل الشـروع فيـه.. ومطالعـة مبدئيـة للأبـواب التي صنفها الإمام البخاري في كتـاب الجهـاد تؤكـد هـذا المبدأ، لنجد أنه تم اسـتيفاء قضـية الجهـاد في البخـاري بصورة كاملة..

ابتـداء من تكـوين الـدافع من خلال التعريـف بفضـل

الجهاد وفضل المجاهد وأجره ومقام الشهادة..

ثم العدة من الرمي والخيل..

ثم تحديد أحكام الأعمال القتالية والأعمال المساعدة.. وأحكام السلاح واللباس في الحرب..

ثم تحديد العدو الاستراتيجي للأمة: اليهود والنصارى، الذي يبقى عداؤه لها حتى قيام الساعة..

ثم تحديد الضوابط الشرعية للخروج للقتال، وما ينبغي عمله مباشرة قبل الخروج، وأثناءه.. وانتهاءً بأحكام المسائل المترتبة على الجهاد، كقضية الأسرى والغنائم والعودة من القتال..

2- الحفاظ على وحدة الجماعة:

فقد يكون الموقف صحيحًا شرعًا، ولكنه لا يحظى بإجماع الجماعة؛ حيث يسبب مجرد إعلانه انشقاقًا.. عندئذٍ يكون الأوْلَى ترك هذا الموقف حتى يتحقق الإجماع عليه، وهذا ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعلن الدخول في معركة بدر حتى حقق إجماع المهاجرين والأنصار، بعد أن قال له سعد بن عبادة سيد الأنصار: «**والذي نفسي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا**»[81].

إن مراعاة واقع الجماعة في اتخاذ القرار مبدأ سياسي هام يتجلى واضحًا في كل مواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم السياسية[82].

---

81 (?) أخرجه مسلم في المغازي، باب غَزْوَةِ بَدْرٍ (4721).

82 (?) كما سيتضح إن شاء الله، من عرض نماذج لهذه المواقف.

3- تحقيق الهدف:

فيجب دراسة أثر الموقف في تحقيق الهدف العام للجماعة من ناحيتيه:

النتيجة العملية، والهدف الدعائي.

فقد يكون للموقف أثر صحيح من الناحية العملية، ولكنه يسبب اهتزازًا لصورة الدعوة في نظر الناس، وهذا الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل عبد الله بن أبي ابن سلول وهو مستحق للقتل قائلًا لعمر: **«دَعْهُ! لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»**[83].

ومن هنا كانت الترجيحات هي أساس إنشاء الموقف السياسي بعد ثبوت الترتيب الإجرائي.

فعندما ننشئ موقفًا سياسيًّا بصورة مبدئية، ننظر إلى الحكم الشرعي..

فإذا ثبتت شرعيته ننظر إلى أثر الموقف على ولاء الجماعة؛ لأن الحفاظ على هذا الولاء أولى من تحقيق أي نتيجة عملية..

فإذا لم يكن للموقف ضرر على ولاء الجماعة، ننظر إلى نتيجته العملية في الواقع.. فإذا كانت له نتيجة محققة لمصلحة الدعوة.. ننظر في الأثر الدعائي والإعلامي للدعوة..

فإذا كان للموقف أثر دعائي ضار، يكون من

---

83 (?) أخرجه البخاري في التفسير في سورة المنافقون، باب: **{يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ}** (8 /520/ح 4907 – فتح).. وسيأتي هذا الموقف بالتفصيل إن شاء الله.

الضروري دراسة إمكانية معالجة هذا الأثر، فإن لم يمكن معالجته، يتم قياسه على المصلحة المتأثرة به..

فإذا كان تأثيره راجحًا.. فلا نمارس هذا الموقف؛ لأن الضرر الدعائي مفسدة؛ ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وفي إطار الترجيحات الواجبة في إنشاء الموقف السياسي من حيث المآل المقبول والغير المقبول، يجب أن نفرق بين ما قد يصيب الدعوة من ضرر وما يصيب الأشخاص من أذى، فما يصيب الدعوة من ضرر هو المآل غير المقبول، ولكن ما يصيب الأشخاص من أذى هو مآل لا بد أن يكون.

وبذلك يلزم التوقف عن أي عمل يترتب عليه ضرر للدعوة.. كما يلزم عدم التوقف عن أي عمل لمجرد توقع الأذى للأشخاص، بل نعمله مع بذل الطاقة لدفع هذا الأذى والصبر عليه عندما يقع.

والدليل على التفريق بين الضرر والأذى هو قول الله عز وجل: **{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى}** [آل عمران: 111] حيث إن معنى النص هو أنه لن يضروكم في دعوتكم ودينكم، ولكن قد يصيبوكم في أشخاصكم ودنياكم.

كما يراعى في إنشاء الموقف.. الاعتبارات الأصلية الآتية:

1- التوافق بين الأسلوب والنتيجة:

والتوافق بين الأسلوب والنتيجة خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي العام، فالإسلام منهجًا هو الإسلام أثرًا ونتيجة بغير تناقض.

بـل إن النتيجـة الصـحيحة الـتي يمكن الوصـول إليهـا بأسلوب غير صحيح محكوم عليها بالبطلان..

ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ بِرَأْيِه؛ فَأَصَـابَ.. فَقَـدْ أَخْطَـأَ**»[84] لأن منهج أو أسـلوب الوصـول إلى النتـائج يجب أن يكون صحيحًا في ذاته حتى يكـون صـحيحًا في نتيجتـه؛ وبـذلك تقـوم الـدعوة بـالحق، ويقـوم الإسـلام بالإسلام.

2- التوافق بين المبدأ والمصلحة:

إن أهم الحقائق المعروفة في الدعوة الإسلامية أنهـا دعوة مبادئ؛ وهذا ما سلَّم به أعـداء الـدعوة أنفسـهم.. حتى إن أبا سـفيان يُسـأل عن رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم أمام هرقل -ولم يكن قد أسلم بعـد- سـؤالًا خطيرًا: أيغدر؟ قال: لا يغدر[85]..

وهناك موقف آخر يدل على أن الحفـاظ على مبـادئ الدعوة أمر لا يمكن التفريط فيه مهما بلغت درجته..

موقف لرجل أمام رسول صلى الله عليه وسـلم وقـد أحلَّ دمه، فوقف الرجل أمـام الرسـول ومشـى دون أن يمسـه أحـد فقـال رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم للصـحابة: **لِمَ لم تقتلوه؟** قـالوا: يـا رسـول اللـه! هلَّا أشرت إلينا؟ فقال: «**إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ**»[86].

---

84 (?) رواه أبـو داود (3 /ـ 319 / ح 3652)، والترمـذي (5 /ـ 200 / ح 2952)، وغيرهما.

85 (?) صحيح: (الفتح – ص 42) كتاب بدء الوحي.

86 (?) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

3 – التوافق بين الوسيلة والغاية:

والوسائل -بعد الأساليب- يجب أن تكون من الإسـلام ذاتــه، من أجــل ذلــك ردَّ النــبي صــلى الله عليه وســلم مشركًا يريد القتال مع المسلمين قائلًا له:

«**نحن لا نستعين بمشرك**»[87].

بـل قـد يبلـغ الأمـر أن يـرد الرسـول صـلى الله عليه وسلم رجلًا لعن ناقته أثناء الذهاب إلى الغـزو قـائلًا لـه: **«ارجع بها لا تصحبنا بملعون»[88].**

---

87 (?) رواه أحمد ومسلم وابن حبان وأبو داود والـبيهقي في السـنن (9 / 63 / ح 17877) عن عائشـــة، وفيهـــا: «**ارجـــع فلن أســـتعين بمشرك».**

88 (?) أخرجه مسلم وأبو داود.

التص

الفصل الثاني

التحليل السياسي

الدلالة السياسية للموقف السياسي:

اتفقنا أن النقطة المتحركة -هندسيًّا- هي الصانعة للخط.. وأن الموقف السياسي هو النقطة الصانعة للخط السياسي..

فلا بد أن يكون للموقف السياسي معناه الدال على الاتجاه أو الخط السياسي، وهذا المعنى هو ما نتفق على تسميته بـ«**الدلالة السياسية**».

والدلالة السياسية لا تتحدد إلا بالربط بين «الحدث.. وظروفه»، وبين «الحدث.. وفاعله»، ثم لا تتحدد إلا بتقدير آثاره المستقبلية في واقع الممارسة السياسية.

وعلى هذا الأساس.. يقوم إنشاء الحدث على إثبات دلالة مقبولة، أو نفي دلالة مرفوضة، أو الاثنتين معًا.

والدلالة السياسية.. منها العملي، ومنها القولي، ومنها الشخصي.

ونبدأ بطرح نماذج عامة للموقف السياسي الإسلامي وتفسير دلالاته السياسية:

1- دلالة سياسية تحققت بالكلام دون العمل:

- فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا لعائشة: «**يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين؛**

بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا فبلغت به أساس إبراهيم»[89].

ودلالة هذا الموقف هي تقرير الحق حتى لو كانت الظروف تمنع التطبيق؛ لأن هذا التقرير سيكون حجة لمن أراد التطبيق عندما تكون الظروف مناسبة..

ويكون تقرير الحق متضمنًا لحقائق منهجية -ولو بصورة مجردة- حفاظًا علي مبادئ الدعوة وترسيخًا لها في الواقع.

مثلما كان من عمر بن الخطاب في اختياره لمن يخلفه في المسلمين؛ إذ حدد بعض الناس معلنًا أنه لو كان أحدٌ منهم حيًّا لاستخلفه؛ يريد بذلك إثبات معايير الاختيار والاستخلاف وإن كان الأشخاص غير موجودين.

حيث قال حين حضرته الوفاة: «لو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيًّا لاستخلفته، ولو كان سالم حيًّا لاستخلفته؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة لله قانتًا ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله، لو كان لا يخاف الله لم يعصه»**[90].

2- تحقيق دلالة سياسية بأساليب غير مباشرة:

ومن أمثلة ذلك حادثة المرأة التي ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلتها وقاتل القبائل حولها، فعن عمران بن حصين قال: كنا في سفر مع النبي صلى الله

---

[89] (?) أخرجه البخاري في الحج، باب: فضل مكة وبنيانها (3 /ـ 51 / 1586 – فتح) عن عائشة.

[90] (?) تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي.

عليه وسلم، وإنا أسرينا حتى إذا كنا في آخر الليـل وقعنـا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسـافر منهـا، فمـا أيقظنـا إلا حر الشمس... فلما استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم شكوا إليه الذي أصابهم، قـال: «**لا ضير -أو لا يضـير- ارتحلـوا**». فارتحـل، فسـار غـير بعيـد، ثم نـزل فـدعا بالوضوء فتوضأ، ونـودي للصـلاة ف صـلى بالنـاس، فلمـا انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصلِّ مـع القـوم، قال: «**ما منعك يا فلان أن تصـلي مـع القـوم؟!**» قال: أصابتني جنابة.. ولا ماء. قـال: «**عليـك بالصـعيد؛ فإنه يكفيـك**». ثم سـار النـبي صـلى الله عليه وسـلم فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلانًـا -كـان يسميه أبو رجاء نسيه عـوف- ودعـا عليًّا فقـال: «**اذهبا فابتغيا الماء**». فانطلقا فتلقيـا امـرأة بين مـزادتين -أو سطيحتين- من ماء على بعـير لهـا فقـالا لهـا: أين المـاء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، ونفرنا خلوفًا. قالا لها: انطلقي إذًا. قـالت: إلى أين؟ قـالا: إلى رسـول اللـه صلى الله عليه وسـلم. قـالت: الـذي يقـال لـه الصـابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي.

فجـاءا بهـا إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم وحـدثاه الحديث. قال: فاستنزلوها عن بعيرها، ودعـا النـبي صـلى الله عليه وسلم بإناء ففرغ فيه من أفـواه المـزادتين –أو السطيحتين– وأوكأ أفواههما وأطلق العـزالِي ونـودي في النـاس: اسـتقوا. فسـقى من شـاء، وكـان آخـر ذاك أن أعطى الـذي أصـابته الجنابـة إنـاء من مـاء قـال: اذهب فأفرغه عليك. وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها. وايم الله لقد أقلع عنها وإنـه ليخيـل إلينـا أنهـا أشـد ملأة منهـا حين ابتـدأ فيهـا. فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «**اجمعـوا لهـا**» فجمعـوا لهـا -من بين عجـوة ودقيقـة وسـويقة- حـتى جمعـوا لهـا طعامًـا فجعلوهـا في ثـوب وحملوها ووضعوا الثوب بين يـديها، قـال لهـا: تعلمين مـا

رزئنا من مائك شيئًا، ولكن الله هو الذي أسقانا.. فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذي هي منه. فقالت يومًا لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدَعونكم عمدًا، فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها، فدخلوا في الإسلام[91].

ولعلنا نلاحظ من الحدث أن المسلمين فرضوا عليها فهمًا محددًا لموقف المسلمين من قبيلتها.. حتى فهمت المرأة دلالة الموقف فأسلمت هي وقومها.

3- استبدال الدلالة السلبية للحدث، بدلالة إيجابية:

- عن ابن عمر قال: كنا في غزاة فحاص الناس حيصة[92]. قلنا: كيف نلقى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: **«من القوم؟»** فقلنا: نحن الفرارون، قال: لا، بل أنتم العكارون «أي الكرارون»، فقبلنا يده، فقال: **أنا فئتكم وفئة المسلمين**، ثم قرأ **{لَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ}** [الأنفال: 16][93].

وذلك في تفسير قول الله عز وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}** [الأنفال: 15].

---

91 (?) أخرجه البخاري في التيمم، باب: الصعيد الطيب وضوء المسلم (1/531/344).

92 (?) فحاص الناس: أي جالوا جولة يطلبون الفرار قاله في «النهاية» انظر: تحفة الأحوذي.

93 (?) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والبخاري في الأدب المفرد والبيهقي.

- وفي غزوة أحد حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الغزوة وجمع المسلمين حوله ليردوا على أبي سفيان الذي أراد أن يحقق نتيجة سياسية للغزوة..

حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار وراء المشركين بالجيش وأقام ثلاث ليال حتى سميت غزوة حمراء الأسد[94]، وكان في هذا أيضًا نفي دلالة سلبية وإثبات دلالة إيجابية.

فالوقوف بعد أُحد ثلاث ليال.. لنفي دلالة سلبية.. وهي قبول الهزيمة.

وإثبات دلالة إيجابية.. وهي الإصرار على مواصلة الجهاد بعد حرمان العدو من تحقيق أي نتيجة سياسية لصالحه.

4- تجريد حدث من دلالة مرفوضة وإثبات دلالة مقبولة:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قِبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **«ما عندك يا ثمامة؟»** فقال: عندي خير يا محمد؛ إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل ما شئت، فتُرك حتى كان الغد ثم قال له: **«ما عندك يا ثمامة؟»** قال: ما قلت لك؛ إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: **«ما عندك يا ثمامة؟»** قال: عندي خير.

---

94 (?) روى ذلك ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والسيوطي في الدر المنثور ص 179.

فقال: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**»[95]...

والملاحظة الأساسية في الحديث: أن ثمامة في اليوم الأول ذكر الدم والمال؛ لذا تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم مربوطًا؛ لأنه لو أطلقه بعد ذكره الدم والمال لكان معنى الموقف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خاف قومه فأطلقه، أو طمع في الدية أو الفداء.

وفي اليوم الثاني أشار ثمامة إلى ما قاله في اليوم الأول، فلم يطلقه.

أما في اليوم الثالث فلم يذكر ثمامة الدم أو المال فقال: عندي خير فقال: «**أطلقوا ثمامة**».

إن القاعدة السياسية التي يتضمنها هذا الموقف هي شرط جوهري في الممارسة السياسية، وإنشاء الموقف السياسي.. وهو الوضوح، ومعناه: أن يكون للموقف تفسير واضح لا يحتمل غيره.

ولذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمامة حتى أصبح لإطلاق سراحه تعبيرٌ واحد ومعنى واحد.. هو الإكرام الذي لا يختلط به معنى الخوف من الثأر أو الطمع في الدية.

---

95 (?) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والبيهقي وأحمد، والقصة ذكرها ابن عبد البر في ترجمة ثمامة بن أثال الحنفي (1/205)، والحافظ في ترجمته وعزاها لابن إسحاق في المغازي والحميدي، وقد تقدمت.

5- حدث قام على حفظ وحدة الموقف:

ومن أخطر دلالات الموقف السياسي حفظ وحدة الموقف الإسلامي، فحينما غدر يهود بني قريظة بالمسلمين في غزوة الخندق وتحالفوا مع المشركين.. كان لا بد من إجلائهم؛ لأن وجودهم كان مرهونًا بالمعاهدة التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن تحالف اليهود مع الأنصار قبل دخول الرسول صلى الله عليه وسلم -والذي لم يزل قائما بعد دخوله صلى الله عليه وسلم المدينة- كان يمثل مشكلة خطيرة.. فما الموقف..؟!

كان الموقف السياسي.. هو إحالة أمرهم إلى الأنصار أنفسهم، فطلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على حكم من يختارون.

فكان من الطبيعي أن يكون اختيارهم من الأنصار باعتبار التحالف الذي بينهم؛ فاختاروا سعد بن معاذ سيد الأنصار.

تقول كتب السيرة: «فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت..

فلما كلمته الأوس قال: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذاك إلى سعد بن معاذ.. فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من

أدم، وكان رجلًا جسيمًا جميلًا، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم؟ فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل. فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهي سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قوموا إلى سيدكم...**» فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من ها هنا، في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معرض عن رسول الله إجلالًا له؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نعم**»؛ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**»[96].

6- توجيه أعداء الدعوة لما يناسب مصلحتها:

فعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش

---

[96] (?) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل (6/191/ح 3043) مختصرًا، ورواه أحمد بطوله، وذكره الهيثمي في المجمع، وحسنه الحافظ في الفتح (11/51).

كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخـزرج ورسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم يومئـذ بالمدينـة: آويتم صـاحبنا، وإنـا نقسـم باللـه لتقاتلنـه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم..

فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ! ما كانت تكيدكم بـأكثر ممـا تريـدون أن تكيـدوا بـه أنفسـكم؛ يريـدون أن تقـاتلوا بأبنـائكم وإخـوانكم**» فلمـا سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا[97].

وهـذا الموقـف يتضـمن قاعـدة سياسـية مهمـة وهي توجيـه أعـداء الـدعوة إلى اتخـاذ الموقـف المناسـب للدعوة.. بمنطق المصلحة لهؤلاء الأعداء.

وهذا ما فعله رسول اللـه صـلى الله عليه وسـلم مـع عبدة الأوثان الذين اجتمعوا لقتاله، وما فعله مع قـريش ذاتها..

فعندما بلغه أنهم خرجـوا بـالعوذ المطافيل[98] لقتالـه فقـال: **ويح قـريش! لقـد أكلتهـا الحـرب، خلـوا بيني وبين القبائل، فإن كـان الأمـر لي عليهم كان شرفًا لهم وإن كان الأمر لهم عليَّ.. كـان ما يرجون[99].**

---

97 (?) رواه أبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب: في خـبر النضـير (3/155/ح 3004)، ورواه البيهقي في الدلائل (3/178، 179).

98 (?) العوذ: جمع عائذ وهي التي لم تلد، والمطافيـل: جمـع مطفـل وهي التي لها طفل.

99 (?) ذكره ابن هشام في سيرته (3/356، 357)، ووصلها عبد الرزاق في مصنفه (97206) ومن طريقه البخاري في الشـروط (5/388/ح 2731، 2732 – فتح) مطولا وفي المغازي (7/158/ح 4178، 4179).

نفس منطق المصلحة يتحدث به الرسول إلى أعدائه ليوجههم إلى الموقف المناسب للدعوة.

وبعـد هـذه النمـاذج.. تبقى المفاوضـات والمعاهـدات هي الاتجـاه الجـامع لتفسـير معـنى الدلالـة السياسـية، باعتبـــار أن المفاوضـــات والمعاهـــدات هي الموقـــف السياسي الجامع بين الاتجاه الإسلامي والجاهلي.

والدلالة الثابتة التقليديـة للمعاهـدات من أي طرف هي:

(1) إثبات وحدة الموقف.
(2) فرض الإرادة السياسية.
(3) تحقيق مكاسب عملية.

ومن الطرف الآخر يكون الهدف هو هدم هـذه الأهـداف وتضييع هذه الدلالات.

مثلما قال المفـاوض عن قـريش للرسـول صـلى الله عليه وسلم في معاهدة الحديبية: يا مُحمدُ جمعت أوباش الناس ثُم جئت بهم لبيضتك لتفُضها، إنهـا قُـريشٌ!.. وايم الله لكأني بهؤُلاء قد انكشفُوا عنك غدًا... ثم تناول لحيـة رسول اللـه صـلى الله عليه وسـلم والمغـيرة بن شـعبة واقفٌ على رأس رسول الله صـلى الله عليه وسـلم في الحديد قـال يقـرع يـده ثم قـال: أمسـك يـدك عن لحيـة رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم قبـل واللـه لا تصـل إليـك! قـال: ويحـك مـا أفظـك وأغلظـك! قـال: فتبسـم رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم، قـال: من هـذا يـا محمـد؟ قـال هـذا ابن أخيـك المغـيرة بن شـعبة، قـال: أغدر؟! هل غسلت سوأتك إلا بالأمس...

فقام من عند رسُول اللـه صـلى الله عليه وسـلم وقـد

رأى ما يصنع به أصحابه؛ لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبسق بساقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيءٌ إلا أخذوه.

فرجع إلى قريشٍ فقال: يا معشر قريشٍ إني جئت كسرى في ملكه وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكًا قط مثل محمدٍ في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيءٍ أبدا[100].

ومثلما حاول مفاوض الفرس في معاهدته مع المسلمين إنشاء شرخ في بناء موقفهم السياسي، فاتفق مع المفاوض المسلم على معاهدة الصلح، وأخبره أنها تبدأ من اليوم الذي تم فيه عقد هذا الصلح.

ثم جاء في اليوم الثاني مفاوض آخر فوافقه مفاوض الفرس على المعاهدة وأخبره أنها تبدأ من اليوم الذي جاء فيه المفاوض الثاني، فرفض المفاوض المسلم أن يكون بدء المعاهدة من اليوم بل من الأمس كما حدد ذلك أخوه السابق عليه.

وبذلك تتحقق وحدة الموقف وتخفق خطة الفرس في التفريق بين المفاوضين المسلمين، حتى ولو بفارق يوم في تحديد تاريخ المعاهدة.

ولعل وحدة الموقف هذه التي أثبتها المفاوض الثاني وهي التي ثبت معها فرض الإرادة السياسية، وذلك بتمسكه باتفاق أخيه على تاريخ المعاهدة.

المناورة السياسية:

من صور الموقف السياسي.. المناورة السياسية، وهي اتخاذ إجراءات غير مباشرة للوصول إلى مواقف

---

[100] (?) مسند أحمد ح 18910.

مباشرة مطلوبة ومحددة..

ففي غـزوة الأحـزاب، والمدينـة تحت الحصـار.. جـاء الحارث الغطفاني يساوم النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقـال: يـا محمـد، شـاطرنا تمـر المدينـة قـال: **حـتى أستأمر السعود**، فبعث إلى سعد بن معاذ، وسـعد بن عبـادة، وسـعد بن الربيـع، وسـعد بن خيثمـة، وسـعد بن مسـعود -رضـي اللـه عنهم- فقـال: «**قـد علمْتُم أَن العَـرَب قـد رمتكم عَن قَـوسٍ وَاحِـدَة، وإِن الحَارِث يسألكم أَن تشاطروه ثَمَر المَدِينَة، فَإِن أردتم أَن تدفعوه عامَكم هَـذَا حَتَّى ينْظـرُوا فِي أمركُم بعد**» قالوا: يا رسول الله! أَوَحْيٌ من السماء.. فالتسـليم لأمـر اللـه، أو عن رأيـك أو هـواك فرأينـا تبـع لهواك ورأيك؟ فإن كنت إنما تريد الإبقـاء علينـا، فواللـه لقد رأيتنـا وإيـاهم على سـواء، مـا ينـالون منـا تمـرة إلا بِشِرى أو قِرَى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هـو ذا تسـمعون مـا يقولـون**» قـالوا: غـدرت يـا محمد.

فلمـا اتهم الغطفـاني رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم بالغـدر.. كـان لابـد من نفي ذلـك عنـه بصـورة إعلامية تساند موقفه وترد عنه، فقـام حسـان بن ثـابت إليهم قائلا:

يا حار من يغدر بذمة ... **أبدا فإن محمدا لا**

وأمانة المرء حيث ... **كسر الزجاجة**

إن تغدروا فالغدر ... **واللؤم ينبت في** (101)

---

101 (?) انظـر معجم الطـبراني ح 5416، وقـال الهيثمي: رواه الـبزار والطبراني ورجالهما فيهم محمد بن عمـرو حديثـه حسـن وبقيـة رجالـه ثقات، مجمع الزوائد 6/132- 133.

وبعد تفسير الموقف السياسي والمنـاورة السياسـية يكـون مصـطلح **المرحلة السياسـية**.. وهي مجمـوع المواقـف السياسـية المتجانسـة في موضـوع سياسـي واحد خلال زمن محدد.

الفصل الثالث

أبعاد الممارسة السياسية

البعد الجماهيري:

والجماهير هم العامة، وهم عنصر أساسي من عناصر الأمة؛ حيث إن الأمة.. هي الحكم، والملأ، والعامة..

وهذا العنصر –العامة- هو المحقق لمعنى الأمة المرتبط بخصائصها القدرية.

وهذه الخصائص هي:

- **العصمة**: حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله لا يجمع أمَّتي على ضلالة**»[102].

- **الرحمة**: حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ**»[103].

- **النصر**: حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**هذه الأمة منصورة**»[104]. وقال: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر هذا الدين لا يضرهم من خالفهم**»[105].

وهذه الخصائص مرهونة بالأمة؛ بمعنى السواد الأعظم، باعتبارها العنصر الأساسي للأمة، والضمان

---

102 (?) رواه الترمذي (2167) وحسنه الألباني، وله طرق كثيرة بألفاظ مقاربة لهذا المتن.

103 (?) رواه أبو داود (4 /ـ 103 / ح 4287)، وأحمد في المسند (4 / 410)، وحسنه الألباني.

104 (?) أخرجه ابن عساكر (1/258) [كنز العمال 38222] بلفظ: «لن تبرح هذه الأمة منصورة».

105 (?) أخرجه البخاري، وقد تقدم.

الأخـير لتحقيـق معـنى الجماعـة؛ ولـذلك جـاء معـنى الجماعة في مجموع النصـوص الـواردة بأربعـة معـايير؛ وكان منها معيار العامة[106].

ومما يجب إدخاله في الاعتبار وجوبًـا شـرعيًّا جوهريًّا هو أن العامة في دار الإسـلام هي المقصـودة -أساسًـا- بهذا المصطلح، أما العامـة في دار الكفـر فلا تنطبـق إلا على من كره مـا عليـه المجتمـع من الكفـر، وهـذه هي البراءة المذكورة في قول رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم: «**فمن كـره فقـد بـرئ، إلا من رضـي وتابع**»..

فلا يمكن أن نتصور أن مجمـوع الراضـين عن الكفـر والتابعين لأهلـه الملتصـقين بهم في كفـرهم أو مجمـوع الهمج الرعاع أتباع كـل نـاعق هم المحققـون لمصـطلح السواد الأعظم.

قيمة التوجه للعامة:

والحقيقـة أن التعامـل مـع العامـة ترجـع أهميتـه إلى ارتباطه المباشر بغاية الدعوة، وهي الهداية.

وذلك أن غاية الدعوة هي أن يـؤمن النـاس، وعنـدما يتمكن أصحاب الدعوة من التعامل المباشر مـع النـاس فإن هذا الأمر تكـون لـه أهميـة ضـخمة قـد تقـترب من أهمية محاولة إقامة السلطة الإسلامية؛ لأن هدف هداية الناس هو أهم أسباب قيام هذه السلطة.

كما نعلم أن إسقاط الحكم الجاهلي هو إزاحة لأخطر أسـباب منـع وصـول الحـق إلى النـاس، وعنـدما تنشـأ

---

[106] (?) وذلك عندما لا يكون العلماء الذين يمكن الرجـوع إليهم، باعتبـار أن العامة هم الكثرة الغالبة الملتزمة بأحكام الكتاب والسنة.

ظروف الدعوة التي تتاح فيها إمكانية وصول الحــق إلى الناس.. تكون قد تحققت نتيجـة أصـلية هي نفسـها أهم نتائج إسقاط الحكم الجاهلي وإقامة الحكم الإسلامي.

ومن هنـــا كـــان من أهم معـــاني الفتح[107] معاهـــدة الحديبيــة؛ لأن هــذه المعاهــدة هي الــتي أتــاحت هــذا الاتصال المباشـر بين المسـلمين والكفـار، فحقـق هـذا الاتصال إيمان تسعة أعشار المسلمين الـذين كـانوا في فتح مكة، فسـمَّى اللـه معاهـدة الحديبيـة **فتحًا مبينًا**؛ لأن لها حقيقته وغايته، وهي أن يؤمن الناس..

وكما ترجع قيمة فرصة الاتصال بالنـاس إلى نتيجتهـا، ترجع إلى سببها.

إن الجاهلية لا تتيح هذه الفرصة.. بغير حساب.

إنها تتيحها تسليمًا بأقل الأخطار عليها.

إن الجاهلية تُوازِن كمـا وازنت قـريش فـوافقت على المعاهدة، وأعطت فرصة الدعوة عندما أيقنت أنها أمــر واقع لا يمكن مواجهته، وعندما أيقنت أن استنفاد طاقـة الدعاة في الدعوة بالكلمة هو البديل الحتمي لممارسـة القوة.

فالفرصة لها ثمن، والفرصة ليست رخيصة، وليســت عارضة..

إنها محسوبة وبدقة من جانب الطرف الجاهلي الذي سلَّم بحركة الدعاة المتجهة إلى الناس.

وباعتبار أن عنصر الكثرة هو أهم عناصـر العـوام، فـإن

---

107 (?) وذلـك في تفسـير قـول اللـه عـز وجـل: **{إِنَّا فَتَحْنَـا لَـكَ فَتْحًـا مُبِينًا}**.. الفتح هنا: معاهدة الحديبية.

تحقيق الإضلال لهم أصبح أكبر أهداف الشيطان؛ لأن الشيطان يسعى أن يموت أكثر الناس على الكفر.

ومن هنا فإن التعامل المباشر مع الناس هو الذي يقطع على الشيطان هدفه في الإضلال العام.

وقد تكون مهمة إسقاط الحكم الجاهلي بالصفة الانقلابية أخطر وأشد؛ ولكن دعوة الناس مباشرة تستوعب أكبر عدد ممكن من هؤلاء الناس.

وهذا هو الذي يعطي لأسلوب الاتصال المباشر بالناس أهمية وقيمة.

فليست الخطورة معنى مرادفا للأهمية في منهج الحركة، فقد يكون الأمر أقل خطورة وأكثر أهمية، أو أقل أهمية وأكثر خطورة.

والتوجه للعامة هو الذي يحقق أكبر فرصة لاستخلاص الطاقات الصالحة للحركة..

فهناك في واقع الناس معادن مغمورة يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[108].

إن التوجه إلى الناس لا يعني أن يؤمن كل الناس، فإذا كانت الاستجابة قليلة فإن هذه القلة هي النتيجة الطبيعية؛ وإدراك هذه الحقيقة يعالج اليأس الذي قد يطرأ على أصحاب الدعوة إذا بذلوا جهدًا ضخمًا مع الناس.

يقول سبحانه: **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ**

---

108 (?) أخرجه البخاري (6 / 608 / ح 3493، 3496 – فتح)، ومسلم في الفضائل.

بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف:103]..

كما يعالج الرسول صلى الله عليه وسلم اليأس في نفوس الدعاة إذا اقتربوا ممن يحمل كرهًا شديدًا للدعوة بحيث يصبح هذا الأمر سببًا في الأمل والرجاء؛ فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**تَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ.. أَشَدَّهُمْ كَرَاهِيَةً لِهَذَا الأَمْرِ، حَتَّى يَقَعَ فِيهِ**»[109].

مصلحة الجماهير:

والجماهير لها قضاياها.. وأولها الطعام والأمن!

واعتبار هذه القضايا عند مخاطبة الجماهير أمر واجب، لقوله تعالى: **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** [قريش: 1-4].

ولكن الأمر المحظور حظرًا شديدًا هو تبني المطالب الاقتصادية للجماهير.. بصورة منفصلة عن قضية الدعوة الأساسية وهي العقيدة والتوحيد، حتى لا تتحول الدعوة بمنهجها إلى توجه اقتصادي يؤثر في صبغتها الربانية.

ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من تفهيم الناس أن المشروع الإسلامي سيكون منطلقًا لتحقيق المصالح الاقتصادية للناس.

ولعل قصة يوسف ورؤية العزيز المنذرة بالمجاعة، والخطة التي وضعها يوسف لإنقاذ مصر والمنطقة المحيطة بها.. دليلٌ على أهمية التصور الاقتصادي في

---

109 (?) رواه البخاري في المناقب (3496).

منهج الدعوة.

وبعـد الطعـام والأمـان.. تبقى عوامـل التـأثير في العامة.

والقاعـدة السياسـية في تحقيـق هـذا التـأثير.. هي تحقيق مقتضيات الكيان الصحيح للدعوة:

1– البطولة: وهي النموذج الإنساني السـليم للتأسـي والاقتداء إسلاميًّا.
2 – التماسك: ويراجع فيه معاهدة الحديبية.
3 - التضحية والبذل.
4 - الثبات على العقيدة: الـذي جعـل مشـركًا يسـلم لما ضـرب مسـلمًا ليقتلـه، فسـمعه يقـول: فـزت ورب الكعبة.

أما أساسيات التوجه من حيث الأسلوب الحركي ومن حيث قضايا التبليـغ.. فـإن الأسـلوب الحـركي في دعـوة العامـة قـائم على قاعـدة أن نغشـى النـاس، كمـا قـال الصحابي للنبي صـلى الله عليه وسـلم عنـد قدومـه إلى المدينة: «اغشنا في مجالسنا»[110].

ومن كلمـة «اغشـنا» ينطلـق أسـلوب التعامـل مـع العامة.

ومن كلمـة «غشـي» تنشـأ عناصـر الأسـلوب، ومن لسان العرب:

1- غَشِيَهُ غِشْيانًا: أَتاهُ..
2- غَشِيَ الأَمرَ غَشيانًا: باشرَهُ..

---

110 (?) كما جاء في الصحيح على لسان عبد الله بن رواحـة ردًّا على طلب عبد الله بن أبي ابن سلول بألا يتحرك الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم من المدينة.ـ

3- فَـإِنْ غَشِـينَا مِنْ ذَلِـكَ شَـيْئًا[111]: من القَصـد إِلى الشيءِ والمُباشَرَة..

4- وفي حديث المسعى: (فإِن الناسَ غَشُـوه)[112] أَي ازْدَحَمُوا عليه وكَثُروا..

5- الغشاء: الغطاء والعموم.

وبـذلك يجتمـع في معـنى «غشـي» التوجـه، والتعميم والازدحام والكثرة والملابسة.

يجب أن نغشى النـاس فنـذهب إليهم بكـثرة.. وليس مجرد التسلل إليهم.

ونغشاهم.. وليس مجرد لقاءات عابرة.

والهدف.. هو أن تعيش الجمـاهير واقـع الـدعوة الـذي يستردهم من أسـر الإعلام الجـاهلي.. الجمـاهير أسـيرة، والدعوة تتطلب إنقاذهم واستردادهم وفك أسرهم..

والوسـيلة: هي أن تصـبح دعـوة الجمـاهير موازيـة ومقابلة لمكر الليل والنهار: السـحر، البهـارج، والألـوان الشيطانية التي تأخذ عيون الناس..

موازيـــة للخبث الـــذي يصـــل إلى أعمـــاق النفس البشرية.

موازية للإغراء والفتنة.. للكيد والدهاء.

---

111 (?) أخرج الإمامان البخاري (5/70، 3680) ومسلم (3/1333، 1709) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَـالَ: «بَايَعْنَـا رَسُـولَ اللـهِ صـلى اللـه عليـه وسلم عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ نَزْنِىَ وَلاَ نَسْرِقَ وَلاَ نَقْتُـلَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ نَنْتَهِبَ وَلاَ نَعْصِىَ فَالْجَنَّةُ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ **فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا** كَانَ قَضَاءُ ذَلِكَ إِلَى اللهِ».

112 (?) أخـرج الإمـام مسـلم (3/1333، 1709) عَنْ جـابر قَـالَ: «طَـافَ رَسُولُ اللهِ بِالْبَيْتِ في حَجَّةِ الوَدَاعِ عَلَى رَاحِلَتِهِ يَسْـتَلِمُ الـرُّكْنَ بِمِحْجَنِـهِ لأَنْ يَرَاهُ النَّاسُ وَلِيُشْرِفَ وَلِيَسْأَلُوهُ فَإِنَّ النَّاسَ **غَشُوهُ**».

الجماهير في وضع لا يطاق.. نادرًا ما تجد ناجيًا من لوثته.

وحتى لا تخاف الجماهير عندما ترى الدعاة يقتربون منهم.. يجب أن يكون هذا الاقتراب من خلال المبررات الطبيعية لهذا الاقتراب، فترتكز حركة التوجه إلى الجماهير من خلال مبرراته الطبيعية:

القرابة.. الجوار.. الصداقة.. أو أي مبرر طبيعي آخر.. هذا هو الأساس في الأسلوب الحركي في التوجه للعامة.

ثم نأتي إلى الأساس في أسلوب عرض القضايا وهو البساطة.

الأمية:

والحد النهائي للبساطة هو مفهوم الأمية..

والأمية تعني التسليم بحقائق هذا الدين بغير مسلمات فكرية مسبقة؛ وعندئذ يخلو المتلقي من الخلط بين وحي السماء والثقافات الخاصة.

ويعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الأمية بقوله: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ، وَالشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**» مشيرًا بيده وأصابعه[113].

ولعل أهم أمثلة التعالي الجاهلي بالثقافة المقابلة للأمية.. كانت الثقافة اليونانية والرومانية.. وكانت هذه

---

[113] (?) أخرجه البخاري (2/675، 1814)، ومسلم (2/761، 1080) ومعناه أنه أشار بيده ثلاث مرات: في المرة الأولى والثانية يبسط أصابعه كلها دلالة على عشرة أيام وعشرة أيام، وفي الثالثة بسط أصابعه عدا واحدًا؛ للدلالة على رقم (9) أي أن الشهر (29) يومًا..

الثقافة هي بذاتها.. مادة اختلاط حقائق الدين المسيحي المنزلة من عند اللـه، وكـانت سـببًا مباشـرًا في دخـول الوثنية إليه، والترحيب بهـا لـدى كثـير من بلـدان الـدين المسيحي ذاته.

وكما تكون البساطة أساسا في أسلوب عرض قضايا الدعوة كذلك تفعل الجاهلية في مواجهة قضايا الدعوة.

لكن الجاهليـة لن تتركنـا والعامـة، بـل سـتحول بيننـا وبينها، وستمنعها عنا، وسترتكز الجاهليـة في ذلـك على خصائص الجماهير.

الارتكاز الجاهلي على خصائص الجماهير:

هذا هو النمرود الذي حاج إبراهيم في ربه يقول: «أنا أحيي وأميت».. فينتقل سـيدنا إبـراهيم إلى دليـل آخـر، ولم يكن هــذا تسـليمًا بإمكانيــة ذلــك، ولكنــه اليقين بإمكانيـة خـداع الجمـاهير بـأي صـورة من الصـور الـتي وردت في التفسير..

وهي أن يأتي باثنين محكومًا عليهما بالإعـدام فيعـدم أحدهما ويترك الآخر، ويقول: أنا أحـيي وأميت، فتصـرخ الجماهير بذلك الموقـف الـوهمي والمتحمسـة لموقـف الملك الكذاب!!

هذه هي الجماهير في ظل الجاهلية..

وعندما قال فرعـون: **{يَا هَامَـانُ ابْنِ لِي صَـرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ}** [غافر: 36].. إنما أراد أن يضاعف إخضـاع الجمـاهير؛ لأنهم يعرفـون هامـان كمـا يعرفـون فرعون.

تتضاعف رموز السلطة في إحساس الجماهير.

وعنـدما قـال: «ابنِ لي صـرحًا» أراد أن يبـدو أمـام الجمـاهير في غايـة الموضـوعية والمنطقيـة، وكأنـه سيسير مع القضية خطوة خطوة، وأمام الناس.

وبذلك تصبح الجماهير الساذجة أمام الفضاء..

يضـع أعينهم أمـام الفـراغ.. مـاذا بعـد الصـرح؟! لا شيء.. وهذه هي النتيجـة المطلوبـة.. أن يعتقـد النـاس أنه لا شيء في السماء، وأن موسى كاذب.

إن البسـاطة أمـر فرعـوني واضـح في التعامـل مـع الجماهير، والعامة تنخدع بمنتهى البساطة.

ألم يجعل لهم السامري عجلًا جسدًا له خوار؟

وبنفس منطق السامري واصل الصليبيون الخداع..

وهذا فصل حيل الرهبان:

وفيـه يقـول ابن تيميـة: «وقـد صـنف بعض النـاس مصنفًا في حيل الكهان، مثل الحيل المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتًا بأن يكون الزيت في جـوف المنـارة فـإذا نقص صـب فيهـا مـاء فيطفـو الـزيت على المـاء؛ فيظن أن نفس الماء انقلب زيتًا.

ومثل الحيلة المحكيـة عنهم في ارتفـاع النخلـة، وهـو أن بعضـهم مـر بـدير راهب.. أسـفل منـه نخلـة فـأراه النخلة صعدت شيئًا حتى حازت الدير فأخـذ من رطبهـا، ثم نزلت حتى عادت كما كانت، فكشف الرجل الحيلة.. فوجد النخلـة في سـفينة في مكـان منخفض إذا أرسـل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السـفينة، وإذا صـرف المـاء

إلى موضع آخر هبطت السفينة.

ومثـل الحيلـة المحكيـة عنهم في التكحـل بـدموع السيدة مريم، وهو أنهم يضـعون كحلًا في مـاء متحـرك حركـة لطيفـة، فيسـيل حـتى يـنزل من تلـك الصـورة فيخرج فيظن أنه دموع.

ومثـل الحيلـة الـتي صـنعوها بالصـورة الـتي يسـمونها القونة بصيدنايا، وهي أعظم مزاراتهم بعـد القيامـة وبيت لحم، حيث ولـد المسـيح وحيث قـبر -في زعمهم- فـإن هذه هي صورة السيدة مريم، وأصلها حشة نخلة سـقيت بالأدهان حتى سمنت وصـار الـدهن يخـرج منهـا مصـنوعًا يظن أنه من بركة الصورة.

ومن حيلهم الكثيرة.. النار التي يظن عوامهم أنها تنزل من السماء في عيدهم في قمامة.. وهي حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصـارى ورأوهـا بعيـونهم أنهـا نار مصنوعة يضلون بها عـوامهم، يظنـون أنهـا نـزلت من السماء، ويتـبركون بهـا، وإنمـا هي صـنعة صـاحب مِحَـال وتلبيس»[114].

وقد أورد ابن كثير رحمه الله عند تفسيره قـول اللـه تعالى: **{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}** [البقرة: 102] حكاية عن بعض الرهبـان، وهـو أنـه سـمع صـوت طـائر حـزين الصـوت ضـعيف الحركـة، فـإذا سـمعته الطيـور تـرق لـه فتلقي في وكـره من ثمـر الزيتـون ليتبلَّغ بـه، فعمـد هذا الـراهب إلى صـنعة طـائر على شـكله، وتوصـل إلى أن جعله أجوف فإذا دخلته الـريح يسـمع منـه صـوتًا كصـوت ذلك الطائر، وانقطع في صومعة ابتناهـا، وزعم أنهـا على قبر بعض صالحيهم، وعلَّق ذلـك الطـائر في مكـان منهـا، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحيته، فتـدخل الـريح

114 (?) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

إلى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضًا، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئًا كثيرًا فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه، ففتنهم بذلك وأوهمهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر.. عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة[115].

وكما يكون الارتكاز على بساطة الجماهير في الإضلال.. يكون الارتكاز على تحقيق العصبية الجماهيرية للجاهلية.. إن تحقيق عصبية العامة للحكم الجاهلي مهمة صعبة، ولكن الجاهلية تمارسها بكل دقة.

ونموذج تلك الممارسة هو الممارسة الفرعونية..

وعناصر تلك الممارسة هي أن يشعر العامة أنهم أصحاب السلطة «شركاء في القرار»، وهذه هي فكرة فرعون عندما قال: **{فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}** [الأعراف: 110].

استيعاب: المشاركة في اتخاذ القرار..

المجالس النيابية..

الرأي في النكسة..

الرأي في الاتحاد الاشتراكي..

ويبلغ إحساس العامة بالسلطة الكاملة عندما يقول لهم فرعون: **{ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى}** [غافر: 26].. إن فرعون يقول للعامة: ذروني! مع أنه لا يوجد من يستطيع أن يمنعه.. يطلب فرعون من العامة أن يتركوه.. يطلب التفويض الشعبي في اتخاذ القرار

---

115 (?) تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}**.

المناسب تجاه موسى، وأن يشعر العامة أنهم أصحاب المصلحة **{يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ}** [الأعراف: 110].

أن يشعر العامة أنهم أصحاب السياسة **{وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}** [طه: 63].. سياستكم ومذهبكم السياسي.

أن يشعر العامة أنهم أصحاب القضية والمبدأ **{إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ}** [غافر:26].

أن يشعر العامة أنهم حماة الواقع وأصحاب الإصلاح.

إن أهم عناصر العصبية هي إنشاء الخوف على النظام الحاكم في نفوس الناس؛ ولذلك يعبر الناس عن الخوف قائلين: **{أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** [الأعراف: 127].

وحينئذٍ يكون واجب النظام هو طمأنة الناس: **{قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}**.

ومن أهم عناصر العصبية أن يشعروا بأنهم محور النظام، ومن هنا كان الضمير يعود على الناس: «أرضكم – طريقتكم – دينكم...».

قال تعالى: **{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ**

فَأَغْرَقْنَـاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَـاهُمْ سَـلَفًا وَمَثَلًا لِلْآَخِرِينَ} [الزخرف: 51-56].

ولما كـان الزخـرف جـزءًا من الواقـع.. كـان خطـاب فرعـون هروبًـا من الحـق في متاهـات الواقـع، فيقـوم خطابه على المسلمات الواقعية لتحـل محـل مسـلمات الحق..

فكان أول ما فعله: نداؤه في قومه، والكثرة لهـا رونـق عند النداء، وأثر في العقول، وتلك طبيعة العقل الجمـاعي الباطل الذي يعتبر الجمع في ذاته معيارًا للحق..!

{أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ}.. وهكذا يستمد الشــرعية لحكمه من استقرار وضعه.. **{وَهَـذِهِ الْأَنْهَـارُ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِي}**.

وحركة الأنهار من تحته تساهم مسـاهمة ضـخمة في تأكيد معنى السيادة والاستقرار.. **{أَفَلَا تُبْصِرُونَ}**.

تضـليل.. واسـتفزاز لقبـول الضـلال.. **{أَمْ أَنَا خَيْـرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَـادُ يُبِينُ}**.. ولا بــد أن المقارنة ستكون لصالحه عندهم؛ لأنــه ملكهم ورمــز حياتهم ومثال قوتهم.. وهذا ما فعله فيهم وبهم.

وبذلك يتبين أن إطار التعامل الجـاهلي مـع الجمـاهير يقـوم على البسـاطة المرتكـزة على سـذاجة الجمـاهير في إضلالهم وتحقيق عصبيتهم للضلال عن الحق.

وبعـد عـرض البعـد الجمـاهيري للتصـور السياسـي.. قيمته وضرورته وأسس ممارسته، فإنه يجب أن يتقرر:

أن العمــل الجمــاهيري لا يمثــل بــديلًا عن العمــل العسكري ولا مقابلًا له ولا مؤثرًا فيه..

لأن حسـابات العمـل الجمـاهيري قائمـة على هـدف استيعاب «القوة الجاهلية» في تيار الحركـة الإسـلامية، أمـا هـدف العمـل العسـكري فهـو إضـعاف هـذه القـوة وإفناؤها.

وفي حالـة العمـل الجمـاهيري المحقـق «لاسـتيعاب» القـوة الجاهليـة، وفي حالـة العمـل العسـكري المحقـق «لإفنــاء» القــوة الجاهليــة الــتي لم يســتوعبها العمــل الجماهيري.. لن تقوى «الجاهلية» على منـع إقامـة الحكم الإسلامي.

ولكن السنة الثابتة للتدافع بين الجاهلية والإسـلام لن تــترك التيــار الإســلامي يســتوعب الواقــع الجــاهلي بجماهيره وقوته دون أن تمنعه.

ومن هنا نشأ مفهوم حتمية العمل العسـكري.. بحيث يصــل هــو الآخــر إلى مرحلــة الســنة الثابتــة للعمــل الإسلامي.

ولذلك قرر ورقـة بن نوفـل لرسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم حقيقـة المعـاداة باعتبارهـا سـنة ثابتـة من سـنن الثـوابت، وليس باعتبارهـا حقيقـة مستخلصـة من خبرة الواقع.

فكانت حقيقة التدافع هي الحقيقة الأولى الـتي قالهـا النــبي صـلى الله عليه وسـلم بعـد حقيقـة الـوحي من حديث ورقة، إذ قال له بعد إخباره بالنبوة: يا ليتني كنت جذعًا إذ يخرجك قومك. قال: «**أوَمخرجيَّ هم؟!**».

قال: نعم.. مـا أتى أحـد بمثـل مـا أتيت بـه إلا أُخـرج وعُودي[116].

---

[116] (?) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي (1/30/ ح 3 – فتح).

البعد العسكري:

سياسة القوة:

وهذا البعد من أخطر أبعاد التصور السياسي للحركة الإسلامية؛ وذلك لأن المستقر في الأذهان أن السياسة تقابل القوة، ولكن التصور السياسي يتضمن أن هذه السياسة توافق القوة أو توازيها في مهمة تحقيق الغاية النهائية للدعوة، ومن هذه الحقيقة ينطلق هذا البعد.

والتفسير السياسي للعمل العسكري يقوم على عدة عناصر:

- تحديد أهمية العمل العسكري قياسًا على الأبعاد الأخرى لمنهج الدعوة.
- تحديد ضرورة العمل العسكري وفقًا لظروف وواقع الدعوة.
- تحليل عناصر الممارسة العسكرية للاستفادة بفاعليتها في حال توقف الممارسة الفعلية للعمل العسكري كضرورة سياسية.

أما تحقيق ذلك في مجال الممارسة فإنه يقتضي عدة أمور:

- تحليل القوة العسكرية إلى عناصرها الأساسية في التنفيذ.
- الاستفادة بهذه العناصر بغرض التأثير في الواقع الجاهلي في حال توقف الممارسة الفعلية للقوة كضرورة سياسية.

وتفسير ذلك:

أن الجاهلية تعتبر الحركة الإسلامية قوة سياسية

طالما أيقنت بقدرتها على الممارسة العسكرية.

والقوة العسكرية لها عناصر لا تقوم إلا بها، وإدراك الجاهلية لتوافر هذه العناصر لدى الحركة الإسلامية ينشئ تأثيرًا عند الجاهلية لا يقل شأنًا عن الممارسة الفعلية للقوة العسكرية.

وهذه العناصر هي:

- الزعامة.. والولاء المطلق لها.
- القوة والمستوى المرتفع للكفاءة العملية.
- الاستعداد التام للبذل والتضحية.

كذلك تحليل القوة العسكرية إلى عناصرها الأساسية في التأثير وتحقيق هذه العناصر بصورة مباشرة في الواقع.. فتحقق آثار القوة العسكرية دون ممارستها وأهمها الرهبة وفرض الإرادة..

ولما كان تحقيق هذه العناصر في واقع الدعوة -سياسيًّا- يعتبر أهم ضرورات التصور السياسي للقوة؛ لذلك كانت المعاهدات باعتبارها مجالًا للربط بين السياسة والقوة هي أيضًا المجال الفعلي لإبراز هذه العناصر في الواقع.. مثلما كان في معاهدة الحديبية، حيث تحقق فيها مجمل العناصر المذكورة.

كما تقول كتب السيرة: خرج عروة بن مسعود زعيم ثقيف حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس بين يديه ثم قال:

يَا مُحَمّدُ.. أَجَمَعْت أَوْشَابَ النّاسِ ثُمّ جِئْت بِهِمْ إلَى بَيْضَتِك لِتَفُضّهَا بِهِمْ؟!

محاولة التأثير في حقيقة الجماعة فيصف المؤمنين

برسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم المجتمعين حولـه، التـــاركين لأهلهم وديـــارهم، نُـــزَّاع القبائـــل.. بقولـــه: «أوشاب الناس».

ثم يقول:

إِنَّهَا قُرَيْشٌ قَـدْ خَـرَجَتْ مَعَهَـا العُـوذُ المَطَافِيـلُ.. قَـدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنْـوَةً أَبَدًا.. وَايْمُ اللَّهِ لَكَأَنِّي بِهَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْك غَدًا.

محاولة التخويف بأشد الأساليب.
إنها قريش.. قد خرجت معها العوذ المطافيل.
قد لبسوا جلود النمور.
يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا.
وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا.
قال: وأبو بكر الصديق خلـف رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم قاعـد، فقـال: امْصُـصْ بَظْـرَ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَنكَشِّفُ عَنْهُ؟!
ولم يجد أبو بكر رضي الله عنه أمام تلك المحــاولات وهذه الأساليب للتعبير عن الرفض إلا تلك العبارة.
فالإيمـان العميـق القـوي أمـام هـذا المكـر الخطـير السخيف هو الذي أنطق أبا بكر.. أنحن ننكشف عنه؟!
نحن؟!.. نحن ننكشف عنه؟!
قال: مَنْ هَذَا يَـا مُحَمّـدُ؟ قَـالَ: هَـذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَـةَ، قَالَ: أَمَا وَاللّـهِ لَـوْلَا يَـدٌ كَـانَتْ لَـك عِنْـدِي لَكَافَأْتُـك بِهَـا، وَلَكِنّ هَذِهِ بِهَا.
وتستمر المحاولة الكافرة الفاجرة..
قال: ثُمّ جَعَلَ يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُكَلِّمُهُ..
محاولـة التـأثير في مهابـة رسـول اللـه وشخصـيته المبجلة في نفوس أصحابه..

فيعبر صـحابي آخـر عن رفض المحاولـة، ولكن ليس بالكلام مثل أبي بكر ولكن باليد..

وَالْمُغِـيرَةُ بْنُ شُـعْبَةَ وَاقِـفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُـولِ اللّـهِ صلى الله عليه وسـلم فِي الحَدِيـدِ.. قَـالَ: فَجَعَلَ يَقْـرَعُ يَدَهُ إذَا تَنَاوَلَ لِحْيَـةَ رَسُـولِ اللّـهِ صـلى الله عليه وسـلم وَيَقُولُ: اكْفُفْ يَدَك عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللّهِ صـلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ لَا تَصِلَ إلَيْك..

فيقول عروة: وَيْحَك! مَا أَفَظّك وَأَغْلَظَك!

فَتَبَسّمَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم..

تبسم رسول الله.. لأن شخص صاحب الـرد أبلـغ من فعله.

فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ؟

فكانت الإجابة التي زلزلت الكافر.

قَالَ: هَذَا ابْنُ أَخِيك المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ..!

قَالَ: أَيْ غُدَرُ! وَهَلْ غَسَلْت سَوْءَتَك إلّا بِالأَمْسِ؟![117]

فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقـد رأى ما يصنع به أصحابه..

بعد كل ما قاله.. العوذ المطافيل.. وجلد النمور وكـل العبارات الخائبة..

- أبو بكر يقول كلمته..
- والمغيرة يضربه..
- والرسول يبتسم..

ثم.. قَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّـهِ صـلى الله عليه وسـلم وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ:

لَا يَتَوَضّأُ إلّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ..

وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا إلّا ابْتَدَرُوهُ..

---

117 (?) قَالَ ابْنُ هِشَام: أَرَادَ عُـرْوَةُ بِقَوْلِـهِ هَـذَا أَنّ المُغِـيرَةَ بْنَ شُـعْبَةَ قَبْـلَ إسْلَامِهِ قَتَلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَالِكٍ مِنْ ثَقِيفٍ، فَتَهَايَجَ الحَيّانِ مِنْ ثَقِيفٍ: بَنُو مَالِكٍ رَهْطُ المَقْتُولِينَ، والأَحْلَافُ رَهْطُ المُغِيرَةِ، فَوَدَى عُـرْوَةُ المَقْتُولِينَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ دِيَةً وَأَصْـلَحَ ذَلِـكَ الأَمْـرَ، فهـو يعـايره بفعلـه من أجله.

وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إلّا أَخَذُوهُ..!

فرجع إلى قريش فقـال: يَـا مَعْشَـرَ قُـرَيْشٍ! إنّي قَـدْ جِئْت كِسْـرَى فِي مُلْكِـهِ، وَقَيْصَـرَ فِي مُلْكِـهِ، وَالنّجَاشِـيّ فِي مُلْكِهِ..

فنكتشف من قوله سر اختيـار قـريش لهـذا الرجـل.. إنه جليس الملـوك، خبـير المعاهـدات.. أقصـى إمكانيـة سياسية لدى قريش في هذا الموقف العصيب.

وها هو يتكلم ويقول رأيه النهائي:

وَإِنّي وَاَللّهِ مَا رَأَيْت مَلِكًـا فِي قَـوْمٍ قَـطّ مِثْـلَ مُحَمّـدٍ فِي أَصْحَابِه، وَلَقَدْ رَأَيْت قَوْمًـا لَا يُسْـلِمُونَهُ لِشَـيْءٍ أَبَـدًا، فَرَوا رَأْيَكُمْ!

فتلــك هي العناصــر القاتلــة للجاهليــة.. المســلمون مقـاتلون في كـل لحظـة، ولا ينتظـرون فقـط إلا الإذن بالقتال، وهذا تفسير التسوية بين من قضـى نحبـه ومن ينتظر.. بين من قاتل ومن ينتظر القتال، فلكليهما نفس الأثـر في قلـوب الأعـداء.. وبـذلك يكـون للسياسـة أثـر الدماء في تحقيق الهدف.

حماية الدعوة من الاصطباغ بالصبغة العسكرية البحتة:

ولا نعني بذلك نفي هذه الصبغة، ولكن نعـني طغيـان هذه الصبغة على الدعوة كحركة هداية ورحمة..

وبذلك يعني مفهوم **سياسة القوة**:

الحفاظ على الهـدف النهـائي للـدعوة من خلال خـط الممارسة العسـكرية، بحيث لا تنفصـل هـذه الممارسـة عن هذا الهدف النهائي.. وذلك باعتبار أن السياســة هي التي تتبنى تحقيق هذا الهدف من خلال أساليب الحركـة المتعددة.

إن تقرير مبدأ القوة في التصور السياسي لا يعني أن توقفها تخلٍّ عن مبدأ من مبادئ الدعوة؛ لأن الممارسة والتوقف مرتبط بالهدف والواقع.. والتصور السياسي هو الحكم المنهجي لتلك الممارسة.

إن تحقيق التعاطف بتحقيق المنفعة والإقناع العقلي والقدوة الصالحة والصبر على الأذى والبذل والتضحية.. هو الأساس في إقامة سلطان الحق على النفوس.

وكلها عوامل محققة لغاية الهداية، والقوة واحدة من هذه العوامل.

وبذلك يكون تحقيق هذه العوامل مع مجمل العناصر المذكورة الناشئة عن تحليل القوة العسكرية تنفيذًا أو تأثيرًا هي إطار التصور السياسي للقوة.

ولما كانت الهداية هي الهدف النهائي للدعوة.. كانت كذلك هي القيمة العليا للممارسة السياسية، وكانت **سياسة القوة** هي تحقيق الهداية بالقتال.

ومقتضى ذلك يمثل أهم عناصر سياسة القوة:

- التبليغ قبل القتال.

- دعوة الأسرى.

- قبول استجارة المشرك.

- الجنوح للسلم إذا جنحوا له.

- قبول توبة من لم تصله يد القدرة **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ}** [المائدة: 34].

وفي إطـار حمايـة الـدعوة من الاصـطباغ بالصـبغة العسكرية البحتة.. تتحـدد العلاقـة بين أسـاليب الحركـة المتعـددة والهادفـة إلى تحقيـق الغايـة النهائيـة للـدعوة بأساس نفسي ثابت.

وفي هذا الإطار تتحـدد العلاقـة بين أسـاليب الحركـة المتعددة، والهادفة إلى تحقيق الغاية النهائيـة للـدعوة.. ومنها القوة.

فتحقيق التعـاطف بتحقيـق المنفعـة والإقنـاع العقلي والقدوة الصالحة والصبر على الأذى والبذل والتضـحية.. هو الأساس في إقامة سلطان الحق على النفوس.

وكلها عوامل محققة لغاية الهداية، والقوة واحدة من هذه العوامل.

وبذلك يكون تحقيق هذه العوامل مع مجمل العناصـر المذكورة الناشئة عن تحليل القوة العسـكرية تنفيـذًا أو تأثيرًا هي إطار التصور السياسي للقوة.

ومن هنا يتحقق التوازن بين تلـك العوامـل في واقـع الممارسة بأساس نفسي ثابت.

ووصـايا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم **هي الدليل على هذه الحقيقة:**

- فقد مـر حـديث جريـر بن عبـد اللـه الـذي دعـا لـه رسول الله صـلى الله عليه وسـلم بالثبـات على الخيـل في القتال، مع الدعاء له بأن يكون هاديا مهديا[118].

- وفي فتح مكـــة حين قـــال ســـعد بن عبـــادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، وعلم رسول الله صلى الله

---

118 (?) انظر: بداية الفصل الرابع عند الحديث عن الهداية.

عليه وسلم بكلمة سعد فقال: «**اليوم يوم المرحمة**».

- وحين أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب لقتال خيبر، وقال علي: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال رسول الله: «**على رسلك! حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**».

- وبلغ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية قومه مبلغًا عظيمًا، فكان يحزن حزنًا شديدًا، على عدم إيمانهم، حرصًا منه على الخير، ونصحا لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: **{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ}** [الشعراء: 3] أي: مهلكها وشاق عليها، **{أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}** أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية، حتى ننزلها، ليؤمنوا بها، فإنه كافٍ شافٍ، لمن يريد الهداية[119].

- وفي قوله تعالى: **{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ}** دعوة واضحة للتجرد من الشعور الشخصي بين المسلمين وأعدائهم وأن يكون إحساسهم بأعدائهم مرهون بالمنهج ومقتضياته.

يقول سيد قطب في ظلاله تعليقًا على هذه الآية:

«هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد، والشر بالشر، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره، وقتما يريد..

---

[119] (?) انظر: تفسير السعدي للآية.

وهكـذا.. يوقـظ السـياق القـرآني وعي الجماعـة المسـلمة ويركـزه على مصـدر الخطـر، ومكمن الدسيسة؛ ويعبئ مشاعر المسلمين تجاه النوايا السـيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم..

ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشـحونة كلهـا إلى جناب الله؛ ينتظرون أمره، ويعلقون تصرفهم بإذنه..

وإلى أن يحين هـذا الأمـر يـدعوهم إلى العفـو والسـماحة، لينقـذ قلـوبهم من نتن الحقـد والضـغينة، ويـدعها طيبـة في انتظـار الأمـر من صـاحب الأمـر والمشيئة»[120].

فتقرير مبـدأ القـوة في التصـور السياسـي.. مرتبـط بالهـدف والواقـع.. والتصـور السياسـي هـو الحكم المنهجي لتلك الممارسة.

وبذلك يعني مفهوم **سياسـة القـوة**: الحفـاظ على الهـدف النهـائي للـدعوة من خلال خـط الممارسـة العسـكرية، بحيث لا تنفصـل هـذه الممارسـة عن هـذا الهـدف النهـائي.. وذلـك باعتبـار أن السياسـة هي الـتي تتبـنى تحقيـق هـذا الهـدف من خلال أسـاليب الحركـة المتعددة.

إن الظهور العسـكري البحت أو الغـالب للـدعوة هـو الـذي سـيحرمها من التعـاطف الـذي يمثـل الجـذور الحقيقية لحجم كيانها في الواقع.

إن المعيار النهائي لبعد القوة هـو حمايـة الـدعوة من محاولة الجاهلية الهادفـة إلى اقتلاع الـدعوة من الواقـع أو الاستهانة بها في التعامل.

---

[120] (?) في ظلال القرآن لسيد قطب.

أما وصول الـدعوة إلى تعامـل الجاهليـة كطـرف لـه اعتباره القوي فإن هذا يقتضي فكرًا سياسيًّا تحافـظ بـه الدعوة على هذه المرحلة.

البعد الاجتماعي:

اتفقنـا في النظريـة السياسـية على أن التوافـق بين الواقع الحـركي والاجتمـاعي يعتـبر شـرطًا أساسـيًّا في صحتها، وهذا التوافق هو الذي تحـاول الجاهليـة القضـاء عليـه، من خلال إنشـاء التنـاقض بين الجـانب الحـركي والجانب الاجتماعي للدعوة.

والتناقض الذي تحاول الجاهلية إنشاءه يتمثل بصـورة أساسية في الإسقاط الاجتماعي للدعوة، هذا الإسـقاط الذي يُظهِر الدعوة بصورة مترديـة ومنحطـة، لا تتوافـق مع مستوى قضية الدعوة وواقعها الحركي.

ومحاولـة الإسـقاط الاجتمـاعي للـدعوة أسـهل من مواجهتها فكريًّا؛ ذلك لأن هذه المحاولة سيكون التعامـل فيها مع الإنسان بضعفه ونقائصه، الأمر الذي يختلف عن المواجهـة الفكريـة الـتي سـيكون التعامـل فيهـا مـع النصوص الشرعية الثابتة.

وكمـا أنهـا أسـهل فهي أخطـر.. ذلـك لأن النـاس في البدايـة لا يتعـاملون مـع الـدعوة كقضـية فكريـة قبـل رؤيتهم لصـورة الـدعوة الاجتماعيـة.. وعلى هـذا فـإن الإسقاط الاجتماعي يعني قطـع الصـلة وبصـورة نهائيـة بين الناس والدعوة.

ومحاولة الإسقاط الاجتماعي للدعوة بدأت من الأيام الأولى..

وكانت هذه البداية هي وضع واقع الدعوة في مـيزان

التصور الاجتماعي الجاهلي.

فـاعتبرت الجاهليـة أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أبتر؛ لأنه لا ولد له.

كما اعتبرت النـبي صـلى الله عليه وسـلم لا يسـتحق النبوة؛ لأنه ليس رجلًا من القريتين عظيم.

واعتـبرت أن الـدعوة ليسـت صـحيحة؛ لأن أتباعهـا فقراء.

ولكن هــذه البدايــة لم تنجح؛ لأن الــدعوة فرضــت تصــورها الاجتمــاعي، وأســقطت التصــور الاجتمــاعي الجاهلي ذاته.

ولعـل أبـرز مواقـف المحاولـة الجاهليـة كـان عنـد المؤاخـاة بين المهـاجرين والأنصـار؛ ذلـك لأن المؤاخـاة كانت علاقة اجتماعية كاملة تحققت كمقتضـى للتوافـق بين الجــانب الحــركي والاجتمــاعي للــدعوة، فبلغت الجاهلية أقصى مـا عنـدها في مواجهـة هـذه المؤاخـاة؛ سـواء من جـانب المشـركين أو المنـافقين أو اليهـود، ولكن المحــاولات فشــلت حــتى تحقــق الهــدف من المؤاخــاة ثم تقــرر العــودة بالعلاقــة الاجتماعيــة إلى أساسها الطبيعي، وهو صلة الدم والقـربى بعـد أن كـان الأســاس الحــركي هــو أســاس العلاقــة في موقــف المؤاخاة[121].

{النَّبِيُّ أَوْلَى بِــــالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِـــــهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَـامِ بَعْضُـهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُـوا إِلَى أَوْلِيَـائِكُمْ مَعْرُوفًـا كَـانَ ذَلِـكَ

121 (?) وهو معنى قول الله عز وجل: **{وَأُولُـو الأَرْحَـامِ بَعْضُـهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ}**.

فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب: 6].

{وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: 75]

وإذا التقطنا هذا الخيط فإننا ندرك أن واقع الدعوة - منذ البداية حتى الواقع القائم الآن- كان محاولة لتحقيق التوافق بين الجانب الحركي والاجتماعي بإنشاء الواقع الاجتماعي المتناسب مع القضية الإسلامية فكريًّا وحركيًّا.

وكان من ناحية الجاهلية هو إحداث التناقض بين هذين الجانبين بإسقاط الدعوة اجتماعيًّا، وبهذا الإدراك يمكننا تحليل الواقع القائم الآن للدعوة بقدر من التفصيل.

- فمن ناحية الدعوة تَمثَّل الخلل الاجتماعي –أول ما تمثل– في مجرد إعلان الولاء للتجمع واتجاهه من جانب الأفراد المنتمين إلى الدعوة لتحقيق الارتباط العضوي بالتجمع دون النظر إلى الجانب التربوي والأخلاقي لهؤلاء الأفراد.

وكانت هذه مرحلة وسط بين الوضع المثالي ووضع الانحطاط الكامل المتمثل في المرحلة الثالثة.. وهي مرحلة الانتساب إلى الاتجاه الإسلامي بمجرد الهَدْيِ الظاهر: «الجلباب - اللحية - الحجاب»..

وكان مدخل هؤلاء المنتسبين هو مجرد هذا الالتزام الشكلي.. دون أن يكون هناك الكيان المستقطب القائم على مهمة التربية والتأصيل الأخلاقي.

- يضاف إلى هذا الخطر خطر آخر يساويه، وهو

الشعور غير الشرعي بالذات، الناشئ عن الاعتزاز بالانتساب للدعوة صاحبة الأحداث المؤثرة في الواقع.

هذا الاعتزاز الذي نشأ من غير مشاركة فعلية في الأحداث وتحمل مسئوليتها.. والذي سبب ضررًا نفسيًّا بالغًا؛ لأنه اعتزاز بالانتساب الذي يفتقد المسئولية والتضحية والبذل.

هذا الشعور الذي أضاع الفضل الحقيقي لأصحابه في واقع الدعوة مما أحدث اضطرابًا في العلاقات الاجتماعية، وأحدث هذا الاضطراب بدوره ظاهرة الفوضى الاجتماعية التي تعاني منها الدعوة معاناة شديدة.

فأصبح الجميع دعاة وذوي تاريخ..!!

الأمر الذي يتنافى مع قاعدة ارتباط الفضل الاجتماعي في واقع الدعوة بالسبق والتضحية والعمل في سبيل الله..

ثم يضاف إلى شكلية الالتزام، وضياع حق أصحاب الفضل في واقع الدعوة:

خط التشتت الاجتماعي المترتب على معاناة الاعتقالات والسجون، والاحتياج المادي الذي يسبب الإرهاق النفسي الشديد.

ثم كان الخطر الأكبر من خلال إنشاء العلاقات الزوجية تحت مظلة هذه الأخطار المتعددة..

في واقع انحطاط الأخلاق وضياع الأمانة.

وفي واقع الانتساب الشكلي بالهدي الظاهر فقط.

وفي واقع الشعور بالغرور والشعور غير الشرعي بالذات وضياع حق أصحاب الفضل.

وفي واقع الاحتياج المادي والإرهاق النفسي الناشئ عن السجن والاعتقال.

واقع هذا الزواج.. أوجد أسرة أصبحت هي بذاتها مشكلة، وأصبحت محاولة علاجها الشغل الأساسي لأصحاب الدعوة، كما أصبحت معالجة آثار إخفاقها بعد الإخفاق في معالجتها.. عبئًا لا يطاق.

ثم يأتي بعد ذلك الدور الجاهلي القائم على استغلال هذه الأوضاع بأبشع صور ممكنة..

أما من ناحية الجاهلية فقد جاء منها أخطر الأساليب في محاولة الإسقاط الاجتماعي للدعوة، وهي تحريض العناصر الفاسدة على التشبه بالمظهر الإسلامي مع تحريفه، بحيث تسقط مهابة هذا المظهر من نفوس الناس، ويضيع تقديرهم لسماتهم وشكلهم.

وسواء كان انتشار هذه العناصر أمرًا مقصودًا أو حدث بصورة تلقائية فإن النتيجة واحدة.

فكيف تحمي الدعوة نفسها من هذه النتيجة؟

لقد كان الإسلام قادرًا على حماية نفسه من هذه النتيجة يوم كان حكمه غالبًا وأحكامه سائدة، وكان أهم هذه الأحكام هو منع غير المسلمين من التشبه بالمسلمين.

وكان من أخطر هذه الأساليب الجاهلية كذلك هي إيقاع الضرر على العامة وتفسير هذا الضرر على أنه نتيجة حتمية للدعوة؛ ليحدث الانفصال بين العامة

والدعوة..

مثل المقاطعة الاجتماعية التي فرضتها قريش على بني عبد المطلب؛ حتى يمارسوا ضغطًا على أصحاب الدعوة.

ولعل حادثة مقاطعة بني عبد المطلب -المذكورة آنفًا- بإيقاع أضرار عليهم بصفة عامة بسبب أصحاب الدعوة لإيجاد الكُرْه، وإنشاء الحاجز.. مثال تاريخي على هذا الأسلوب.

مفهوم الدفاع الاجتماعي:

والآن لا بد من الدفاع الاجتماعي عن الدعوة.

وهذا المفهوم له عناصر يمكن تحديدها من خلال المحاولة التي تمارسها الجاهلية لإسقاط الدعوة اجتماعيًّا.

- وقد اتفقنا أن أول تلك العناصر هو افتقاد الكيان الواحد المسيطر على الامتداد الاجتماعي، ولما كان وجود الكيان الواحد مرتبطًا بمشكلة الفكر والمنهج.. فإن المعالجة الاجتماعية يجب أن تنفصل عن هذه المشكلة.. بمعنى ضرورة إنشاء سلطة اجتماعية تتولى مواجهة المشكلات الاجتماعية في إطار بعيد عن مشكلة الاختلاف الفكري.

وهذا ما فسره الإمام الجويني حيث قال في كتاب «غياث الأمم في التياث الظلم»: أن يتولى كل عالم في ناحية من النواحي، أو حي من الأحياء، السلطة المفقودة للأمراء في هذا الحي.

- ثم تأتي مواجهة ضياع حق أصحاب الفضل

بترسيخ قواعد التعامل الاجتماعي المحددة لهذا الحق:

- حق العلماء الذي يوجب تقديمهم وتوقيرهم وإيثارهم على أنفسنا.

- حق أصحاب السبق الزمني، وهو المقرر في قول الله سبحانه وتعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ}** [التوبة: 100].

- ومفهوم الدفاع الاجتماعي يوجب تحديد أساس التعامل الاجتماعي بين أصحاب الدعوة والواقع القائم.

ويجب أن يتقرر ابتداءً أن الناس ينظرون إلى أصحاب الدعوة من خلال مفهوم المثالية؛ لأنهم يمثلون في نظرهم واقع التطبيق الصحيح للدين.

وظهور أي نقيصة أو خطأ سلوكي لن ينظر له على أنه أمر طبيعي محتمل، ولكن سينظر إلى صاحبه على أنه إنسان سيئ يحاول الوصول إلى مكانة لا يستحقها لينال تقديرًا بغير حق.

كما أن الناس ينظرون إلى أصحاب الدعوة على أنهم الفئة التي من الممكن أن تحكمهم في يوم ما، فيرغبون بصورة قوية في الاطمئنان على أمانتهم وسماحتهم وحسن خلقهم؛ لأن أي خطأ يراه الناس يرتبط في أذهانهم بهذا الاحتمال.

فيقول كل من يرى الخطأ في نفسه: هكذا يفعل أصحاب الدعوة الآن وهم لم يزالوا بعد مستضعفين، فماذا سيفعلون لو كان الأمر بيدهم؟!

وعند حدوث أيـة مشـكلة اجتماعيـة بين النـاس وبين أحد أفراد الدعوة يجب أن لا تأخذ هذه المشكلة صـورة العداء بين الجاهلية والإسلام.

لأن احتمال خطأ هذا الفـرد المنتسـب للـدعوة قـائم أمام الآخرين، وهذا هو مضمون الموقف الذي نزل فيـه قول الله عز وجل: **{ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ ٻ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ}** [النساء: 105- 107].

حيث جاء في التفسير:

أن نفرًا من الأنصار غزوا مـع رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم فَسُرِق درع لأحـد الأنصـار، فحـامت الشـبهة حـول رجـل من الأنصـار من أهـل بيت يقـال لهم بنـو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم فقـال: إن طعمـة بن أبـيرق سـرق درعي. فلمـا رأى ذلك السارق عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجـل يهودي اسمه زيد بن السمين، وقال لنفـر من عشـيرته: إني غيبت الـدرع وألقيتهـا في بيت فلان، فـانطلقوا إلى رسول اللـه صـلى الله عليه وسـلم وقولـوا: إن صـاحبنا بريء وإن الـذي سـرق الـدرع فلان، وقـد أحطنـا بـذلك علمًا؛ فاعذر صاحبنا على رؤوس النـاس.. فـنزلت الآيـة تبرئ اليهودي.

وفي مثـل هـذه الحالـة يتمثـل واجب نصـرة الأخ في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**انصـر أخـاك ظالما أو مظلومًا**».. في رد الأخ عن ظلمه[122] «**فإن ذلك نصره**».

---

[122] (?) أخرجه البخاري في المظالم، بـاب أعن أخـاك ظالمـا أو مظلومـا (5/117/ ح 2443 – فتح) عن أنس مرفوعًـا، وعنـد مسـلم عن جـابر وفيه: «**لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما..**» الحديث.

إن معالجة أي مشكلة عارضة بتلك القاعدة يكون بذاته أفضل أسلوب للدعوة، أما إعطاء المشكلة الاجتماعية العارضة أبعاد العداء بين الجاهلية والإسلام فذلك تصرف باطل.

لأن صورة العداء بأبعاده الكاملة لا تتفق مع المشكلات الشخصية العارضة، مثلما حدث مع موسى والذي استغاثه.. لقد كانت مشكلة عارضة حدثت بين رجل من بني إسرائيل ورجل من الأقباط، وتصرف فيها موسى عليه السلام بصفة شخصية لا تتعلق بمنهج الدعوة ومرحلتيها فقتل القبطي، واعترف بأن هذا العمل من الشيطان:

{وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ} [القصص: 15]

ولكن موسي الذي أقر بأن قتل القبطي كان من عمل الشيطان.. كان سببًا في غرق فرعون وجنوده بصفة منهجية ترتبط بمنهج الدعوة ومرحلتيها، وكان هذا عملًا طيبًا مقبولًا، ولم يكن من عمل الشيطان.

حقيقة الاستضعاف:

- ومما يجب الحذر منه.. أن تؤثر الضخامة العددية لأصحاب الدعوة على الإحساس بالاستضعاف؛ لأن الضخامة العددية تسبب اعتزازًا وثقة تؤثر في أسلوب معالجة المشكلات العارضة بين أفراد الدعوة والجاهلية.

فالاستضعاف هو مرحلة ما قبل الوصول للسلطة، حتى لو كان هناك قوة شخصية أو كثرة عددية.

ومعالجة المشكلة العارضة يجب أن ترتبط بمرحلة الاستضعاف للدعوة ولا يجوز تجاوزها.

وقد يكون للقوة الشخصية نفس أثر الضخامة العددية في إضعاف الشعور بالاستضعاف.

وهذا عمر بن الخطاب لم يكن يدانيه أحد في قوته الشخصية، حتى إنه هدد من يحاول تتبعه في الهجرة فقال: «**من أراد أن تثكله أمه، ويؤتم ولده، وترمل زوجته.. فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد**»[123].

ومع ذلك كان مستضعفًا؛ لأنه كان مرتبطًا بالجماعة المستضعفة التي لم يُمَكن لها بعد.

الدفاع الاجتماعي يبدأ من بيت الدعوة:

ومن أهم الحقائق المفترضة في صراعنا مع الجاهلية أنه صراع اجتماعي، قائم بين واقع إسلامي وواقع جاهلي.

وافتراض هذه الحقيقة يحتم أن يدخل المسلمون بتلك الصفة الاجتماعية في كل مراحل الصراع.. من لحظة الاستضعاف إلى فرصة التمكين ووقت الامتداد.

والدخول بالأسرة المسلمة في مجال الصراع باعتبارها الواقع الاجتماعي للفرد الداعية.. هو الوسيلة الأساسية لتحقيق الصفة الاجتماعية لواقع الدعوة في هذا الصراع.

---

[123] (?) أورده صاحب كنز العمال وعزاه لابن عساكر (هامش أحمد: 4/287).

فتدخل الأسرة في مجال الصراع، ويأخذ البيت وضعه في اتجاه الحركـة، وتـدخل معهـا المشـاعر والغرائـز في طاقة التحـرك، وتنضـم فيهـا الزوجـة إلى دوافـع العمـل، وتتحول بهـا الذريـة إلى إمكانيـة امتـداد بشـرى للـدعوة؛ فيتحقق التجرد والتحرر والانطلاق الحركي.. مع الارتبـاط الأُسَري والالتزام الاجتماعي والاحتياج المعيشي.

كمـا تنشـأ الحـدود الفاصـلة بين الصـواب والخطـأ بمقياس الدعوة في حيـاة الـدعاة، مثـل الحـد بين زينـة الله التي أخرج لعباده والترف المحظـور، وبين السـكن إلى الزوجــة والركــون إليهــا، وبين السـعي المشــروع للــرزق والانشــغال المنهي عنــه بالمــال، وبين الحب الفطري للذرية والافتتان بها.

كما يتحدد الحد بين ممارسة الدعوة كهواية لا تتعدى حدود الميول الشخصـية وبين أن تكـون الـدعوة رسـالة لها حياة الدعاة واستشهادهم[124].

والواقع أن هناك حديثًا قدسيًّا يعالج قضية المحافظـة على البناء الاجتماعي بعد فترة الاستضعاف.

وإليك نصه أولًا:

عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ مُطَرّفِ بْنِ عَبْدِ اللّـهِ بْنِ الشّـخّيرِ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَـارٍ المُجَاشِـعِيّ أَنّ رَسُـولَ اللّـهِ صـلى الله عليه وسـلمقَالَ، ذَاتَ يَـوْمٍ فِي خُطْبَتِـهِ: **«أَلاَ إِنّ رَبّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمّا عَلّمَنِي، يَوْمِي هَـذَا: كُـلّ مَـالٍ نَحَلْتُـهُ عَبْـدًا حَلاَلٌ، وَإِنّي خَلَقْتُ عِبَــادِي حُنَفَـاءَ كُلّهُمْ، وَإِنّهُمْ أَتَتْهُمُ الشّــيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْـرِكُوا بِي مَـا لَمْ أُنْـزِلْ بِـهِ**

---

[124] (?) انظر: «بيت الدعوة» للكاتب.

سُــلْطَانًا، وَإِنّ اللّــهَ نَظَــرَ إِلَىَ أَهْــلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَـرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاّ بَقَايَـا مِنْ أَهْـلِ الكِتَابِ. وَقَـالَ: إِنّمَـا بَعَثْتُـكَ لأَبْتَلِيَـكَ وَأَبْتَلِيَ بِـكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُـهُ المَـاءُ، تَقْـرَأُهُ نَائِمًـا وَيَقْظَـانَ. وَإِنّ اللّـهَ أَمَـرَنِي: أَنْ أُحَـرّقَ قُرَيْشًـا، فَقُلْتُ: رَبّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَـا اسْـتَخْرَجُوكَ، وَاغْـزُهُمْ نُغْـزِكَ، وَأَنْفِـقْ فَسَــنُنْفِقَ عَلَيْــكَ، وَابْعَثْ جَيْشًــا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَـهُ، وَقَاتِـلْ بِمَنْ أَطَاعَـكَ مَنْ عَصَـاكَ. قَـالَ: وَأَهْـلُ الجَنّـةِ ثَلاَثَـةٌ: ذُو سُـلْطَانٍ مُقْسِـطٌ مُتَصَدّقٌ مُوَفّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيـقُ القَلْبِ لِكُـلّ ذِي قُرْبَىَ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيـفٌ مُتَعَفّـفٌ ذُو عِيَـالٍ. قَالَ: وَأَهْلُ النّارِ خَمْسَةٌ: الضّعِيفُ الّـذِي لاَ زَبْـرَ لَهُ، الّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً، والخَـائِنُ الّـذِي لاَ يَخْفَىَ لَـهُ طَمَـعٌ، وَإِنْ دَقّ إِلاّ خَانَــهُ، وَرَجُــلٌ لاَ يُصْــبِحُ وَلاَ يُمْسِــي إِلاّ وَهُــوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ. وَذَكَرَ البُخْلَ والكَـذِبَ وَالشّـنْظِيرُ الفَحّـاشُ، وَإِنّ اللـهَ أَوْحَىَ إلي: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتّىَ لاَ يَفْخَرَ أَحَـدٌ علىَ أَحَـدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىَ أَحَدٍ»[125].

والملاحظة العامة في هذا الحديث هو معالجته لعــدة مراحل مرتبطة ببعضها:

1- نظرة شاملة لمرحلة ما قبل البعثة، وبدايـة الأمـر فيها، وإثبات الأصل الـذي كـان عليـه الوجـود البشـري: **«كُـلّ مَـالٍ نَحَلْتُـهُ عَبْـدًا، حَلاَلٌ»**.. **«وَإِنّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلّهُمْ»**.

[125] (?) رواه مسلم في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الـدنيا أهـل الجنة وأهل النـار (6/17/197 – نـووي)، وأحمـد في المسـند (4/266) عن عياض بن حمار المجاشعي. انظر: فتح ذي الجلال لتخـريج أحـاديث الظلال برقم (406) ستجد مصادر أكثر.

«إِنّ رَبّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ».

هـذه مقدمـة ضـرورية للحـديث.. لأن الحـديث يثبت أهميـة النـبي صـلى الله عليه وسـلم بصـورة خطـيرة.. صورة افتقار البشر جميعًا إلى الرسالة..

مما يقتضي إثبات افتقاره هو في رسالته إلى ربه.

والرسالة من الله أمر وعلم..

والأمر من الله: «**إِنّ رَبّي أَمَرَنِي**»..

والعلم من الله: «**أَنْ أُعَلّمَكُمْ مَـا جَهِلْتُمْ**»، والعلم يوم بيوم: «**مِمّا عَلّمَنِي، يَوْمِي هَذَا**».

ليس لي علم إلا مـــا علمنيـــه ربي، وليس لي علم مسبق، إنما أتعلم يومًا بيوم.

وهــذه هي المقدمة.. «**كُــلّ مَــالٍ نَحَلْتُــهُ عَبْــدًا حَلاَلٌ**».. والمـال رمـز لكـل شـيء آتـاه اللـه إنسـانًا، فالأصل في عطاء الله الحِلّ.

«**وَإِنّي خَلَقْتُ عِبَــادِي حُنَفَــاءَ كُلّهُمْ**».. فكــل مولـود يولـد على الفطـرة، والأشـياء على حلهـا مـا لم تحرَّم.

ثم جاءت الشياطين «**فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»..

ونشأ الحرام «**وَحَرّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لهُمْ**».

اجتـالت الشـياطين الـدين.. وملأت الأرض بـالحرام.. «**وَأَمَــرَتْهُمْ أَنْ يُشْــرِكُوا بِي مَــا لَمْ أُنْــزِلْ بِــهِ سُــلْطَانًا**».. «**وَإِنّ اللّــهَ نَظَــرَ إِلَىَ أَهْــلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَـــــرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ**».. والمقت أشـــــد

الغضب.

«**إلاّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**» المتمسكون بدينهم الحق من غير تبديل.

والنبي والبشر أمام مسئولية الرسالة سواء: «**إِنّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبتَلِيَ بِكَ..**».

وحتى لا يكون التبديل واجتيال الدين: «**أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ المَاءُ**».

باقيًا لا تجري عليه سنن الفناء.

وأسبابه ثابتًة: «**تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**».. وهذه هي البعثة.

ويُقِرُّ النبيُّ بضعفه وافتقاره إلى ربه.. «**رَبّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً**».

لقد كانت شكوى من يريد طاعة الأمر وتنفيذه، ولم تكن شكوى التردد أو التراجع.

فلما علم الله منه ذلك أعطاه ما يقوى به على أعدائه الذين يريدون ثلغ رأسه.

هذا هو الاستضعاف.

فيقول القوي الغني: «**اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ**».

«**وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ**».. وافتح عليهم بلادهم.. نفتح عليك مددنا.

فالله قادر عليهم، ولكن لابد أن تكون البداية من الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال الله: **{ادْخُلُوا**

عَلَيْهِمُ البَـابَ فَـإِذَا دَخَلْتُمُـوهُ فَـإِنَّكُمْ غَـالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[المائدة: 23].

«**وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ**».

واطمأن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم إلى وعـد الله، فكـان يقـول لبلال: «**أَنْفِـقْ يَـا بِلاَلُ، وَلاَ تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلاَلًا**». وكان يقـول صـلى الله عليه وسلم: «**لو أن لي مثل جبـل أحـد ذهبًـا لأنفقتـه هكذا وهكذا وهكذا**».. في كل اتجاهات الخير.. وكـل مجالات الدعوة.

«**وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ**».

وهـو المسـتوى الثـابت للتأييـد الـدائم للمؤمـنين في القتال، وقد يفوق التأييد هذا المستوى مثل غـزوة بـدر، حيث كانت الملائكة بنسبة الأضعاف الخمسة بكثير.

«**وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**».

الطـائعون يقـاتلون العاصـين، فالقضـية هي الـدين، والقتال حتى يكون الدين لله، وبذلك يكـون النصـر كمـا جـاء في خـواتيم سـورة البقـرة **{وَقَـالُوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ}** [البقرة: 285].

وبذلك يكون التمكين.

وبعد المقدمـة.. والبدايـة.. والبعثـة.. والاستضـعاف.. والتمكين..

قام المجتمع المسلم.

(2) فكيف يكون حفظه بعد قيامه؟..

هذا بصفات أهل الجنة الثلاث:

«ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ»
السلطة العادلة غير الظالمة..
السلطة الباذلة كل جهدها ومالها..

هـذه السـلطة هي الموفقـة الملهمـة الصـائبة دائمًـا، لأنها قامت بالحق والعـدل والتجـرد، فبقي الحـق معهـا، أما الرعية فيمثلها رجلان:

- «**رَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُـلِّ ذِي قُـرْبَى، وَمُسْلِمٍ**».

- «**وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»، فرغم أن فوقــه ذو سلطان مقسط متصدق، وبجانبـه رجـل رحيم رقيـق القلب لمن هو مثله، حتى أصبح محاطًا بالعدل والرحمة والصدقة والرقـة؛ ومـع ذلـك فالرجـل عفيـف متعفـف.. رغم أنه ذو عيال!

وهذه الصفات هي عناصـر البنـاء الاجتمـاعي للدولـة المسلمة.

وبهذه الصفات يكون المجتمع المسـلم وتكـون الأمـة وتكون الجنة.

وكما ارتبط المجتمع المسلم بالجنة، ارتبـط المجتمـع الكافر بالنار، فجاء بعدها صفات أهل النار الخمسة.

- «**الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ، الَّـذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا، لاَ يَتْبَعُـونَ أَهْلًا وَلاَ مَـالًا**» الحثالـة الفـارغين.. كمالة العدد.

- «**وَالْخَـائِنُ الَّـذِي لاَ يَخْفَى لَـهُ طَمَـعٌ** - أي لا يظهر-، **وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ**»، والخونة بطبعهم وتكـوينهم وتصرفهم التلقائي.

- «**وَرَجُــلٌ لاَ يُصْــبِحُ وَلاَ يُمْسِــي إِلاّ وَهُــوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ**».

المخادعون: عن العرض والمال..

وأهـل البخـل والكـذب، والشـنظير - سَـيِّئ الخلـق- الفاحش.

«**وَإِنّ اللــهَ أَوْحَىَ إلي: أَنْ تَوَاضَــعُوا حَتّىَ لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ علىَ أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىَ أَحَدٍ**».

فالتواضـع يمنـع الفخـر الـذي إذا امتنـع.. امتنـع معـه البغي.

وبصفات أهل النار تكون نهاية المجتمع، ونهاية الأمة، وتكون النار!

البعد الاقتصادي:

والبعد الاقتصادي للنظرية السياسية بُعدٌ منطقي؛ لأن المال له قوة نفسية واجتماعية بلغت حد الأثر في العقيدة والإيمان الذي أنشأ الخوف الشديد على أصحاب الدعوة من فتنة المال، كما قال تعالى: **{وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآَخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}** [الزُّخرُف:33-35].

ومن أجل هذا التأثير نستطيع أن نقول: إن أخطر أحداث الدعوة كان إنفاق عثمان بن عفان قافلته على المسلمين، وإن أخطر أحداثها من الجانب الآخر كان قرار مقاطعة قريش لبني عبد مناف الاقتصادية.

وليس أدل على أثر الاقتصاد السياسي من دعاء موسى بحسم الصراع بينه وبين فرعون في قوله سبحانه: **{رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ}** [يونس: 88].

وكذلك دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بحسم الصراع مع قريش بقوله: «**اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف**»[126]، وفي رواية: «**بسبع كسبع يوسف**».

---

[126] (?) أخرجه البخاري (8/436/ ح 4823 – فتح)، والترمذي (5/389/ ح 3254).

ولأجل هذا الأثر الاقتصادي على الدعوة كانت العلاقة بين الممارسة الاقتصادية والسياسية تلقائية في فهم الصحابة.

وهذا ثمامة يرجع إلى قومه مسلمًا يعلن لهم إسلامه ويعلن لقريش مع إسلامه: لقد أسلمت، ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم[127].

وبهذا الفهم التلقائي أدركت إحدى النساء مغزى تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أعطى قبيلتها مالًا وزادًا، ثم أخذ يحارب القبائل الأخرى فقالت: والله ما أرى أن محمدًا قد ترككم بعد أن أعطاكم هذا المال والزاد ثم ذهب ليقاتل القبائل غيركم إلا لأجل شيء يريده منكم، وأرى أنه الإسلام.. فأسلمت وأسلمت معها القبيلة[128].

كما يتساوى البذل بالنفس والبذل بالمال في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من جهز غازيًا فقد غزا، ومن خلفه في أهله فقد غزا**»[129]، فتساوى التجهيز بالمال للغزو والخلف في الأهل بعد الغزو.. مع الغزو نفسه عند الله سبحانه وتعالى.

والحقيقة أن العلاقة بين الاقتصاد والسياسة هي نفسها العلاقة بين العمل العسكري والسياسة، وذلك في مضمون فرض الإرادة.

---

127 (?) رواه البخاري ومسلم.

128 (?) أخرج القصة البخاري في التيمم، باب: الصعيد الطيب وضوء المسلم (1/531/ ح 344).

129 (?) رواه البخاري في الجهاد، باب: فضل من جهز غازيًا (6/59/ ح 2843 – فتح)، ومسلم في الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله تعالى بمركوب وغيره: (5/13/40 – نووي).

فكما أن التصور العسكري يفرض إرادة المنتصر، فإن الجزية هي التي تبقي على فرض تلك الإرادة.

من أجل ذلك كان اعتبار عنصر المال من أخطر عناصر الدعوة المحققة لأهدافها، ولكن هذا العنصر المهم في ذاته تعتبر نتيجته خطيرة في ذاتها؛ لأن المال هو فتنة هذه الأمة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»[130].

ولعل قصة ثعلبة[131] الذي نزل فيه قول الله عز وجل: **{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}** [التوبة: 76].. دليل على شدة خطر المال على النفس، وحتى لا نظن أنها حالة فردية.. كانت هذه المواجهة القرآنية الحاسمة للمؤمنين في غزوة أحد: **{مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ}** [آل عمران: 152].

وعند تعميق الإحساس بخطر المال في واقع الدعوة لن تجد أشد من هذا الموقف الذي نرى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الناقتين اللتين أعدهما أبو بكر للهجرة وهو يقول له: «**بالثمن يا أبا بكر**».

إن الظروف أكبر وأقوى من أن يذكر فيه المال..

لأنهما اثنان مطلوب موتهما يُعدان أسباب نجاتهما..

ولكنها النبوة التي تضع الأسس وترسي القواعد:

---

130 (?) أخرجه الترمذي (26/2336) وصححه الألباني.

131 (?) ورد تضعيف هذه القصة من حيث نسبتها إلى ثعلبة البدري، ولكن ثعلبة المذكور غيره.

«**بالثمن يا أبا بكر**».

كما لن نجد حقيقة تدل على خطـر المـال أقـوى من قــول رســول اللـــه صــلى الله عليه وســلم: «**يغفــر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين**»[132].

الشهيد..! الشهيد..! نعم.. إلا الدَّين.

فإذا كان هذا مـع الشـهيد، فليس لأحـد من المسـلمين خروج عن حساب المال.

ولذلك كان رسول اللـه صـلى الله عليه وسـلم يسـأل قبل أن يصــلي على الجنــازة: «**هل عليــه من دَين؟**» فإن قــالوا: نعم، قــال: «**صلوا على صــاحبكم**» إلا أن يقول رجل: دَينه علي[133].

ذلك لأن الزهد القلبي هو الــذي يحقــق المعادلــة بين ضرورة المال للدعوة وخطورة المال على الــدعاة، لأن الزهد ليس معنـاه ألا أملـك.. ولكن معنـاه القـدرة على إنفاق ما أملك.

ومن هنـا أصـبح النجـاح في تحقيـق أسـاس اقتصـادي للـدعوة هـو دليـلٌ أصـليٌّ وجـوهريٌّ على صـحة الإيمـان، ولعـل الـدليل على ذلـك المثـل الـذي ضـربه القـرآن في قولـه عـز وجـل: {**لَا يَسْـتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَـقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللـهُ الْحُسْـنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**} [الحديد: 10].

وكما تدل النفقة قبـل الفتح على قـوة الإيمـان فإنهـا تــدل كــذلك على دقــة أثــر المــال في الــدعوة، وذلــك

---

[132] (?) أخرجه أحمد (2/220، 7051)، ومسلم (3/1502، 1886).
[133] (?) أخرجه البخاري (3/124).

لاختلاف أثر النفقة قبل الفتح وبعده، حيث كـان للنفقـة قبـل الفتح أثـر أكـبر.. من أجـل ذلـك فـإن السياسـة الاقتصادية للحركـة الإسـلامية تقـوم ابتـداء من مفهـوم الزهد الحقيقي في الدنيا.

ومن هنا يأتي دور مجموع نصوص الرقـائق المحققـة لهـذا الزهـد لا على أنهـا نصـوص تُحفـظ باللسـان، بـل لتكون واقعًا حيًّا وحياة واقعة لأصحاب الدعوة.

البعد القدري:

ومناقشة البعد القدري للنظرية السياسـية يعتـبر من أهم المناقشـات؛ لأن الفكـر السياسـي يتمـيز بـبروز الإعمال العقلي والارتبـاط بـالواقع، والبعـد القـدري هـو البعد المقابل لهاتين الميزتين في الفكر السياسي.

ذلك لأن ربانية الدعوة الإسلامية وارتباطها بقدر اللــه وسـننه الثابتـة جعـل هـذا الارتبـاط في أصـل النظريـة السياسية.

الفكر والقدر:

وبعد أن اتفقنا على ضرورة الإحكام الفكري بتحديد العلاقة بين الحقائق، نريد أن نتفق على تحديد العلاقة بين الفكر ذاته بعد إحكامه وبين القدر الإلهي، باعتبار أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله ولا يرجع إلى التفكير البشري المحدد لقيام هذا الواقع.

ولذلك يقول ابن القيم في تعريف الحكمة: «الحكمـة حكمتان، عملية وعلمية، فالعلميـة الاطلاع على بـواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًـا وأمـرًا،

قدرًا أو شرعًا»[134].

وحقيقة أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله، بديهية يدركها كل داعية، ولكن هذا الإدراك غالبًا ما يكون مجرد مبدأ نظريًا لا يؤثر في واقع الحركة من حيث تحديد المنهج أو أسلوب العمل.

العلاقة الواقعية بين القدر الإلهي.. والفكر البشري:

والعلاقة بين الفكر والقدر تحددها -من حيث الواقع- عدة حقائق:

- أن التفكير البشري مجرد سبب قد يحدث القدر بدونه، وقد يحدث بما يخالفه. وهذا لوط عليه السلام يبحث بتفكيره عن ركن شديد فيقول:

{لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: 80]، بينما كان الله يأويه بقدره، وهو ركنه الشديد، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**»[135].

وهذا معناه أن قدر إيواء الله له تحقق فيه دون تفكير مباشر منه.

وقد يحدث بما يخالف هذا التفكير، بدليل قدر حدوث غزوة بدر بما يخالف التفكير في الاستيلاء على القافلة: **{وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}** [الأنفال: 7] بل قد يحدث القدر بما يضاد التفكير مباشرة.

---

[134] (?) مدارج السالكين ج 2 ص 498.

[135] (?) البخاري في (الأنبياء) (411/6)، ومسلم رقم (151) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا يونس عليه السلام يفكر في الخلاص من القـوم بالسفينة، فتكون هذه السفينة بقدر الله سـبب هلاك، إذ يلقي منها في البحر فيلتقمه الحوت، وهو بتفكـير البشـر هلاك، ليكون بقدر الله سبب نجاة..

من أجل ذلك فإن القرآن يعلمنا الإيمان بإطلاق القدر الإلهي ومحدوديـة التفكـير البشـري فيقـول عـز وجـل: **{فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ}** [المائـدة: 52] ردًّا على المنـافقين الـذين لا يؤمنـون بقـدرة اللـه على تخليص المؤمـنين من الاستضـعاف أصـلًا، وتوجيهًـا للمؤمنين الذين يؤمنون بقدرة الله على ذلك.

ولكنهم قد يحددون هذه القـدرة بصـورة واحـدة وهي الفتح فيقـول اللـه سـبحانه: **{أَوْ أَمْـرٍ مِنْ عِنْـدِهِ}**، **{وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}** [الحج: 41]

وقيام الواقع الإسلامي بصورته المادية هو في النهاية أمر غيـبي لا يمكن للـذهن البشـري أن يحتويـه **{وَللـهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [هود: 123، سورة النحـل: 77] وقـد يفتن الفكـر البشـري بارتكـازه على الأسـس الشرعية أو النواميس الكونية فيجـزم بضـرورة تحقيـق النتيجة المحـددة بهـذه الأسـس وتلـك النـواميس ولكن القدر فوق الشرع وفوق الناموس.

وحتى حقيقـة الحقـائق، وقمـة اليقين الـتي تملأ قلب كل مسلم؛ حقيقة أن رسول اللـه سـيدخل الجنـة، يَـرُدُّ رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم حـدوثها إلى اللـه فيقـول - كمـا في الصـحيح -: «**واللـه إني لرسـول اللـه؛ لا أدري مـا يفعـل بي ولا بكم**»[136] وأي

---

[136] (?) البخاري في (الجنائز) من حديث أم العلاء (114/3).

محاولـة احتـواء ذهـني لأمـر غيـبي هي تـألٍ على اللـه وتجاوز للحد البشري كما قدره الله.

العلاقة المنهجية بين القدر الإلهي.. والفكر البشري:

وأمَّا من حيث المنهج، فإن العلاقة **بين** القدر والفكر تتحدد من خلال عدة أمور:

الأول: أن التكـاليف الشـرعية هي الـتي تتضـمن الأسباب القدرية لتحقيق الواقع، فإن الخطأ الشرعي في مجال الدعوة يعني استحالة أو تأخير تحقيق هذا الواقع.

وليس لهذه القاعدة أي استثناء..

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسـأله اليهـود عن الروح فيقـول: **«سأخبركم غـدًا»**، ولا يقـول: إن شاء الله؛ فلا ينزل الوحي إلا بعـد فـترة الرسـول صـلى الله عليه وسلم يحـزن فيهـا حزنًـا شـديدًا، ويقـول فيهـا اليهود: ذهب عنه شيطانه.

ولما نزل الوحي بالإجابة.. نزل ومعه تصحيح وتحديـد السبب الذي من أجله تأخر النزول[137].

الثاني: تحديد السنن القدرية الثابتة وذلـك بنصـوص الكتاب والسنة لتحقيق التوافق معها في مجال الحركـة الإسـلامية، وقـد وضـح هـذا التوافـق وضـوحًا كـاملًا في التحرك الإسلامي الأول وبالتحديد في مجال القتال..

حيث كـان الأسـلوب القتـالي مرتبطًـا بسـنن إهلاك الكفار، لتحقيق المعنى القدري للقتال، وهـو أنـه عـذاب الله للكفار بأيدي المسلمين: **{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ**

---

137 (?) البخاري (8/401) ومسلم (2794).

بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [التوبة: 14]

وهذه مقارنة سريعة بين سنن الإهلاك.. وأساليب القتال:

- في فتح الطائف حاصرها رسول الله ثلاثة أيام ولم تفتح له فقال: «**سنرحل غدًا**» فأرادت الصحابة القتال فتركهم يقاتلون فجرحوا جراحات شديدة ولم تفتح لهم، فقال: «**سنرحل غدًا إن شاء الله**» وتم الرحيل ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عروة بن مسعود وهو مشرك من الطائف ودعاه إلى الإسلام فأسلم، فذهب إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقتلوه، فقال صلى الله عليه وسلم:

«مَثَلُ عروة بن مسعود في قومه كمثل صاحب سورة يس، وهو الذي قال الله فيه: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} [يس: 28، 29]..

وفتحت الطائف بعد قتل عروة بن مسعود[138].

- وفي فتح خيبر قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**» توافقًا مع قوله الله: **{أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}** [الصافات: 176، 177].

- وفي الطريق إلى مكة قبل صلح الحديبية، يطلب

---

138 (?) أخرجه أحمد في مسنده (323/4 انظر: أسد الغابة (33/4) والإصابة (476/2).

الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة أن يقولوا: «**قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه**»[139] كما أمر الله بني إسرائيل أن يقولوا **{حِطَّةٌ}** عند دخول الأرض المقدسة، كما جاء في قول الله: **{ وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}** [البقرة: 58]، ومعناها: حُطَّ عنا ذنوبنا.

ولهذا قال الرسول بعد أن قالها الصحابة: «**والله؛ إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل، فلم يقولوها**»..

- وفي غزوة الأحزاب علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله سينصره على المشركين واليهود لما تحزبوا ضده وقال: «**أبشروا معشر المسلمين**» لأنهم بهذا التحزب قد حققوا سنة إهلاكهم؛ لأنه من أفعال الله أن يهزم الأحزاب ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم**»[140] ولهذا أيضًا عبر القرآن عن الكافرين بعد إهلاكهم بقوله: **{أُولَئِكَ الأَحْزَابُ}** [ص: 13]..

- والإصباح سنة إهلاك بدليل قول الله في قوم لوط: **{إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}** [هود: 81]..

---

139 (?) قال في فتح ذي الجلال: رواه ابن إسحاق بإسناد منقطع، ومن طريقه الطبري، وبنحوه البزار في كشف الأستار، وابن مردويه، ويشهد له ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه، انظر: السيرة النبوية(2/429)، مرويات غزوة الحديبية (ص92-96)، «مختصر زوائد البزار» (1/38/رقم1385).

140 (?) البخاري (406/7)، ومسلم رقم (1742) عن عبد الله بن أبي أوفي.

وقوله: **{وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ}** [القمر: 38]..

وقوله: **{فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}** [الصافات: 177]..

فكان الغزو صباحًا من أهم الأساليب القتالية التي حققت التوافق بين القتال وسنن إهلاك الكافرين، حتى أصبحت الخيل هي المغيرات صبحا، كما جاء في قول الله تعالى: **{وَالعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالمُغِيرَاتِ صُبْحًا}** [العاديات: 1-3].

أما الأمر الثالث: فهو أن الاستدلال بالنصوص الإخبارية عما سيكون في آخر الزمان وأشراط الساعة لا يكون باعتبار أنها نصوص تكليفية، بل باعتبارها أقدارًا غيبية لا يلزمنا الاحتجاج بها..

أما النصوص التكليفية فهي مدار هذا التأصيل..

والأمر الرابع: هو رفض التفكير البشري البحت الذي لا يقوم على أصل شرعي أو سنة قدرية ثابتة، فهذا التفكير هو الذي سيتحول بالدعوة إلى حركة مادية، ويفقدها صفة الربانية.

ولهذا نجد في واقع الدعوة الصحيح المواقف التي تؤكد صفة الربانية بصورة واضحة.

فعند تحليل الأحداث من المنظور المادي البحت يظهر ارتباط الأحداث ببعضها كسبب ونتيجة، وفعل ورد فعل، ودوافع وأغراض، وعلاقة الحدث بأصحابه وظروفهم..

ولكن من المنظور القدري من حيث علاقة الأحداث

بالسنن الثابتة وأحاديث آخر الزمان، نجد تحليـل الواقـع الجاهلي العام على مستوى العالم لـه عناصـر أساسـية أهمها:

1- الهيمنة الصليبية المتمثلة في زعامة أمريكا وأوربا للعالم.
2- العلو اليهودي.
3- العمالـــة والكفـــر على مســـتوى الحكومـــات المسيطرة على مواقع الدعوة.
4- الفقـر والجهـل على مسـتوى الشـعوب المحيطـة بمواقع الدعوة.

فنجد أن عناصر هذا التحليل المادي للواقـع الجـاهلي تؤكد اجتماع الجاهلية وتحزبها بكـل مسـتوياتها العالميـة الحكوميـة والشـعبية ضـد الـدعوة؛ ممـا قـد يحـدث في نفوس الدعاة منتهى اليأس والإحباط.

فيأتي المنظور القدري فيحقق غاية الرجـاء من خلال إثبات سنة الله الثابتة بهزيمة الأحزاب، من هنا استبشر الرسـول صـلى الله عليه وسـلم لمـا اجتمعت الأحـزاب عليه؛ لأن تحزب الأحزاب معناه تحقيق فعل من أفعــال الله القدرية وهو هزيمة الأحزاب.

وبذلك يصبح التصور القـدري للأحـداث بعـدًا أساسـيًّا من أبعــاد النظريــة السياســية.. هــذا من حيث علاقــة التصور القدري بالتحليل السياسي.

والواقع: أن البعد القـدري للنظريـة السياسـية.. كـان أساسًا حتميًّا لتحليل مواقف متعددة في تـاريخ الـدعوة، ما كان لنا أن ندركها إلا من خلال هذا البعد.

ولعل أبرز هذه المواقف طلب يوسـف عليـه السـلام

الـوزارة في ظـل حكم غـير شـرعي.. ذلـك لأن قصـة يوسف عليه السلام بأكملها تحقيـق قـدري للرؤيـا الـتي رآهـا بـالتمكين لـه في الأرض. وفي إطـار هـذا التصـور كانت جميع أحـداث القصـة وأبرزهـا وضـع السـقاية في رحل أخيه؛ حيث عقبت الآيات على هذا التصرف بقولـه سبحانه: **{كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَـاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}** [يوسف:76].

وعلى هذا؛ فلا يحتج بهذا الموقـف سياسـيًّا، إذ يعتـبر من الناحية الفقهية أحوال أعيان لا يقاس عليها.

ومن أمثلة تلك المواقف في تـاريخ الـدعوة في عهـد الرسول صلى الله عليه وسلم: قطع أشـجار اليهـود في غزوة بني قريظة؛ حيث أنكر اليهود على الرسول صلى الله عليه وسلم قائلين له: أتنهانا عن الفساد وأنت تأمر بقطع الشجر؟! فأنزل الله عز وجل: **{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَـةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَـا قَائِمَـةً عَلَى أُصُـولِهَا فَبِـإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ}** [الحشر:5].

فهذا تصرف قدري بحت، فعله رسول الله بـإذن ربـه، والقدر فوق الشرع؛ ولكن هذا التصرف القـدري لا يـؤثر على القاعدة الثابتة في الحروب -ومنها النهي عن قطـع الأشـجار- إلا أن يكـون الأمـر لأسـباب عسـكرية بحتـة، فيجوز ذلـك اضـطرارًا، ولكن لا يحتج بفعـل رسـول اللـه في غـزوة بـني قريظـة على الجـواز المطلـق من حيث التحليل..

البعد القدري والرؤية المستقبلية

ومن أخطر قضايا البعد القدري للتصور السياسي تحديد الرؤية المستقبلية للدعوة.. باعتبار أنها قضية غيبية تنبني على واقع، ولا يجوز فيها الاكتفاء بدراسة

الواقع لاستنباط اتجاهات المستقبل من خلاله فقط، ولا مجرد الإحالة إلى النصوص الغيبية، وتعليق العمل المنهجي على تحقق النبوءات، ولكن يكون بالإحكام المنهجي بينهما.

وأبرز تطبيقات هذا الإحكام.. ربط منهج الدعوة بعلامات الساعة، وأساسها أحاديث الفتن والملاحم؛ ومنها الملحمة التي تكون بين المسلمين والصليبيين، حيث تجتمع كل عناصر الصـراع بين الحروب الصليبية من الناحية التاريخية والواقعية، والملحمة من الناحية المستقبلية.

حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن **الملحمة**:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنْ المَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتْ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ المُسْلِمُونَ: لَا وَاللهِ.. لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الغَنَائِمَ.. قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمْ الشَّيْطَانُ: إِنَّ المَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم **فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ**

لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ»[141].

من هذا الحديث نستطيع تحديد العناصر القدرية للصراع بما يلي:

الأول: دخول النصارى في الإسلام:

حيث إنَّ أول سبب ظاهر للصراع يـذكره الحـديث هـو طلب الـروم اسـتعادة من أسـلموا منهم، يقـول الإمـام النـووي: «رُوِيَ (سُـبُوا) عَلَى وَجْهَيْنِ: فَتْح السِّـين والبَـاء، وَضَـمّهمَا. قَـالَ القَاضِـي فِي المشَـارِق: الضَّـمّ رِوَايَـة الأَكْثَرِينَ. قَالَ: وَهُوَ الصَّوَاب.

قُلْت: كِلَاهُمَـا صَـوَاب، لِأَنَّهُمْ سُـبُوا أَوَّلًا، ثُمَّ سَـبَوْا الكُفَّار، وَهَـذَا مَوْجُـود فِي زَمَانِنَـا، بَـلْ مُعْظَم عَسَـاكِر الإِسْلَام فِي بِلَاد الشَّام وَمِصْر سُبُوا، ثُمَّ هُمْ اليَوْم بِحَمْـدِ اللَّه يَسْبُونَ الكُفَّار، وَقَدْ سَبَوْهُمْ فِي زَمَاننَا مِرَارًا كَثِيرَة، يَسْبُونَ فِي المَرَّة الوَاحِدَة مِنْ الكُفَّار أُلُوفًا، وَلِلَّهِ الحَمْـد عَلَى إِظْهَار الإِسْلَام وَإِعْزَازه»[142].

وقـد تقـرر من قبـل أن من عناصـر الصـراع الصـليبي ارتباطه بظاهرة دخول النصارى في الإسـلام، وهـو العنصـر الذي سيبقى حتى الملحمة مصداقًا لقولـه صـلى الله عليه وسلم، والسـياق التـاريخي الثـابت للحـروب الصـليبية يبـدأ بإقبال النصارى على الإسلام، وهو نفس السياق القائم الآن في الغرب، وخصوصا أن الانتماء للإسلام في الفترة الأخيرة انتماءٌ سلفيّ صحيح.

---

[141] (?) أخرجه مسلم (2897).

[142] (?) شرح النووي على صحيح مسلم.

الثاني: العِرْق:

حيث كـان الـروم -أو أوروبـا- هم العـرق المكـون «للنصارى» في الحروب الصليبية، ويمثلهم اليوم أوروبا وأمريكـا، ليبقى عـرق الـروم هـو العـرق الأساسـي للنصارى في الصراع حتى الملحمة.

الثالث: الكثرة:

حيث قـامت الحـروب الصـليبية على تجـييش «كـثرة عددية» ليس لها مثيل في التاريخ، لتبقى هذه الظـاهرة في فكرة التحالفـات الغربيـة ضـد الإسـلام.. حـتى زمن الملحمـة، ويخبرنـا نبينـا صـلى الله عليه وسـلم بهـذه الظـاهرة فيقـول: «**هُدْنَـةٌ تَكُـونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا**»[143]..

ولعلنا نلاحظ قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم: «**فَيَغْدِرُونَ**» لننتبه أن الغدر عنصـر أصـيل من عناصـر الحرب الصليبية، وكذلك نلاحظ قول رسول اللـه صـلى الله عليه وسـلم: «**فَيَسِـيرُونَ إِلَيْكُمْ**»[144]، وقولـه: «**فَيَأْتُونَكُمْ**» وقوله: «**وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَـةِ**» لننتبـه إلى عنصر الغزو والهجوم من جانبهم.

الرابع: الصليب:

وهو العنصر الواضح في الحروب الصـليبية التاريخيـة حتى بلـغ درجـة هيسـترية، فيُرسـم الصـليب على أعلام الـدول، ورايـات الحـرب وملابسـها، وعلى الـدروع

---

[143] (?) أخرجه البخاري (3005).

[144] (?) ورد هذا اللفـظ في روايـة ابن ماجـه (2/1341، 4042) وصـححها الألباني.

والأسلحة.. وكذلك ستكون في الملحمة:

«**فَيَرْفَـعُ رَجُـلٌ مِنْ أَهْـلِ النَّصْـرَانِيَّةِ الصَّـلِيبَ فَيَقُــولُ: غَلَبَ الصَّــلِيبُ، فَيَغْضَــبُ رَجُــلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيَدُقُّهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ**»[145].

ولعلنـا نلاحـظ عبـارة: «**غَلَبَ الصَّلِيبُ**» لننتبـه إلى مدى حمية النصارى للصـليب، وهـو الأمـر الواضـح جـدًّا في كل الحروب الصليبية القديمة والحديثة.

وكنتيجة للغدر فـإن كفـة النصـارى سـترجح في أول المعركــة، فيقــول الرســول صــلى الله عليه وســلم: «**وَيَثُورُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أَسْـلِحَتِهِمْ، فَيَقْتَتِلُـونَ، فَيُكْرِمُ اللهُ تِلْكَ الْعِصَابَةَ بِالشَّهَادَةِ**»[146].

ولكن النتيجة لم تؤثر في المسلمين، ولم يستسـلموا لها رغم أن الشهداء كانوا «ثلث الجيش»..

وكنتيجــة لاجتمــاع كــل الأعــداد والقــوى والإمكانيــات النصــرانية في حــرب الملحمــة كــان من الضــروري أن يــدخل المســلمون تلــك الحــرب بمنطــق الشــهادة: «**فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُـرْطَةً لِلْمَـوْتِ لَا تَرْجِـعُ إِلَّا غَالِبَـةً، فَيَقْتَتِلُـونَ حَتَّى يَحْجُـزَ بَيْنَهُمْ اللَّيْـلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.. كُـلٌّ غَيْـرُ غَـالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ..**

ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَـةً، فَيَقْتَتِلُـونَ حَتَّى يَحْجُـزَ بَيْنَهُمْ اللَّيْـلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.. كُـلٌّ غَيْـرُ غَـالِبٍ، وَتَفْنَى

---

145 (?) أخرجـه أبـو داود (4292) وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع (3162).

146 (?) وردت هذه الفقرة في رواية الحاكم (8298) وصححها الذهبي.

الشُّرْطَةُ..

ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.. كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ..

فَإِذَا كَانَ يَـوْمُ الرَّابِـعِ.. نَهَـدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْـلِ الإِسْلَامِ، فَيَجْعَلُ اللـهُ الـدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ، فَيَقْتُلُـونَ مَقْتَلَةً -إِمَّا قَالَ: لَا يُرَى مِثْلُهَا، وَإِمَّا قَالَ: لَمْ يُرَ مِثْلُهَــا- حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُــرُّ بِجَنَبَــاتِهِمْ فَمَــا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا»[147].

ومن المثال الخاص «الملحمة» إلى القواعد القدريـة العامة:

القواعد القدرية العامة للتحليل السياسي:

أولًا: الطاعة المطلقة لله المحققة لمهابة الأعداء لنا:

فالمواجهــة السياســية يجب أن تقــوم على الطاعــة المطلقة لله، لتحقيق المهابة لنا في قلوب أعــدائنا؛ لأن هذه المهابة هي حقيقتنا في قلـوب أعـدائنا، وقوتنـا في شـعورهم، وحجمنـا في تصـورهم، وتبعًـا لهـذه المهابـة تكون الممارسة السياسية في الواقع، واللــه قـادر على أن يجعل لنا في قلوب أعدائنا تلـك المهابـة، وهـو قـادر أيضًا على أن يجعلهم يروا ضخامة حجمنـا في تصـورهم بشكل مادي بحت.

---

147 (?) أخرجه أحمد (4 / 91، 5/ 371، 409)، وأبو داود (2 / 512)، وابن ماجه (2 / 1369).

غير أن للمهابة أسبابًا:

أهمها الوجـود الإسـلامي الصـحيح لأصـحاب الـدعوة، حيث يصـيروا بهـذا الوجـود كالقسـورة الـتي تفـر منهـا الحمر المستنفرة[148].

ومنها التمسك بالجهاد؛ حيث قال رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم «**مـا تـرك قـوم الجهـاد إلا ذلوا**»[149]، وقال في ترك الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر: «**ولينزعن اللـه المهابـة من قلـوب أعدائكم**»[150] إلى آخر الحديث.

وابتداء من نشأة الحركة حتى إقامة السلطة.. لا يغيب البعد القدري، لنرى أن أهم حقائق تلك السلطة -قرشـية الخليفة- مثالٌ هامٌّ للمقتضيات القدرية التي يجب الالتزام بها في التصور السياسي للدعوة، وذلك لقوله صـلى الله عليه وسلم: «**الخلافة في قريش**»[151].

فلا يسـمح التصـور السياسـي للـدعوة بالجـدل أو الإعمال العقلي البحث حول هذه الحقيقة؛ لأنهـا حقيقـة قدرية خالصة.

ثانيًا: التفويض والتوكل:

وأهم الحقائق القدرية في التصور السياسـي: الوفـاء بالعهود والمواثيق؛ ذلك لأن الله لا يحب الخائنين.. فـإذا بـدت مصـلحة لكنهـا لا تتحقـق إلا بنقض العهـد؛ فهـذه

---

[148] (?) كما في قوله تعالى عن الكافرين وموقفهم من الإسـلام: **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}**.

[149] (?) رواه الحاكم والبزار وابن ماجه.

[150] (?) رواه أبو داود في الملاحم (4/108/ ح 4297)، وأحمد (5/278).

[151] (?) أخرجه أحمد في المسند (4/185)، وصحححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (1851).

المصلحة باطلة سياسيًّا.

وفي المقابل فإن التصور السياسي يقيم العهود والمواثيق بقاعدة التوكل على الله بعد استفراغ الجهد في التفكير والتقييم والتحليل والتوقع.

ومن هنا قال سبحانه: **{وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}**، فنلاحظ أنَّ الله هو الذي أمكن منهم..

وهذه هي القاعدة القدرية العامة في العهود ونصها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مَا نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ قَطُّ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ»[152].

ثالثًا: مراعاة السنن الثابتة:

مثل التفسير القدري للاختلاف كصيغة من صيغ العذاب الواقع علينا، وتحقيق موجبات الرحمة التي يرفع بها هذا العذاب، واعتبار هذه الموجبات أسبابًا مباشرة في معالجة الاختلاف.

وكذلك معالجة الفتن القائمة بين المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتبار أن ترك هذا الأمر هو السبب في ضرب قلوبنا بقلوب بعض، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنكُمْ كَمَا**

---

[152] (?) رواه ابن ماجه في الفتن، باب: العقوبات (2/133/ ح 4019)، وذكره الحافظ في الفتح (10/203).

لَعَنَهُمْ»[153].

غير أن موضوعية البعد القدري للتصور السياسي تتمثل بصورة نهائية في الوصول بالدعوة من مرحلة الاستضعاف وخشية الاختطاف إلى مرحلة التمكين والعالمية، إذ إن تجاوز الدعوة لجميع مراحلها لا يمكن أن يتحقق إلا بصورة قدرية.

ولعل حادثة أصحاب الفيل التي حفظ الله بها البيت تهيئة لظروف الدعوة؛ ولعل الصراع بين الروم والفرس الذي أجهد الدولتين تحقيقًا لتلك التهيئة.. دليل على هذا البعد.

كما قال سبحانه: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** [الفتح: 29].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد، حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا، فيقوى حالا بعد حال، حتى يغلظ نباته وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان».

---

[153] (?) رواه أبو داود (4336)، وابن ماجه (4006)، والترمذي (3047).

فنلاحظ من كلام القرطبي توافق الدعوة مع سنن في الزرع، حيث تبدأ عملية الإنبات بفعل إلهي بحت لا دخل لبشر فيه: إرسال الرسول أو بعث المجددين[154].. كما قال سبحانه: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}** [الواقعة:63-64].

ثم يليه إخراج الشطء، ثم المؤازرة، فالاستغلاظ، فالاستواء..

يقول الزمخشري في الكشاف: «وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعليّ، وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده، ثم قوّاه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها، حتى يعجب الزرّاع».

رابعًا: غلبة القدر على تخطيط البشر:

وفي إطار تناول البعد القدري للتحليل السياسي ينبغي التركيز على حقيقة: إحاطة الله بواقع الصراع: **{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف:21].

فالصراع له عنصران: الجانب المسلم، والجانب الكافر..

وإحاطة الله تشمل الجانبين، وكل ما يتعلق بهما..

---

154 (?) روى الإمام أبو داود (4/109، 4291) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»، وصححه الألباني في الصحيحة (599).

ففي الجانب المسلم.. تأتي غزوة بدر كأبرز مثال على إحاطة ما يريده الله بما يريده البشر: **{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ}** [الأنفال:5-7].

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآية: «يتبين من هذا الاستعراض أنهم هم لم يكونوا فيها -أي غزوة بدر- إلا ستارا لقدر الله؛ وأن كل ما كان فيها من أحداث، وكل ما نشأ عنها من نتائج - بما فيها هذه الأنفال التي تنازعوا عليها - إنما كان بقدر الله وتوجيهه وتدبيره وعونه ومدده..

أما ما أرادوه هم لأنفسهم من الغزوة فقد كان شيئا صغيرا محدودا، لا يقاس إلى ما **أراده الله لهم، وبهم**، من هذا الفرقان العظيم في السماوات وفي الأرض.. ذلك الذي اشتغل به الملأ الأعلى، إلى جانب ما اشتغل به الناس في الأرض، وما اشتغل به التاريخ البشري على الإطلاق..

ويذكرهم أن فريقا منهم واجه المعركة كارها؛ كما أن فريقا منهم كره تقسيم الأنفال وتنازع فيها؛ ليروا أن ما يرونه هم، وما يكرهونه أو يحبونه، ليس بشيء إلى جانب ما يريده الله سبحانه ويقضي فيه بأمره، وهو يعلم عاقبة الأمور».

هذا بالنسبة لدور الجانب المسلم في الصراع..

أما الجانب الكافر.. فمهما كانت قوته، فهـو لا يخـرج عن قدرة الله وتقديره: **{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْـدَ اللـهِ مَكْـرُهُمْ وَإِنْ كَـانَ مَكْـرُهُمْ لِتَـزُولَ مِنْـهُ الجِبَالُ}** [إبراهيم: 46]..

وفي هذا الإطـار تظهـر مشـكلة يجب حسـمها، وهي مسألة العلو اليهودي الطـارئ، لأن هـذه المسـألة تـأتي خطورتها من الفهم الخاطئ للآيات الـواردة فيهـا؛ حيث يتحدد هذا الخطأ في الاعتقاد الجازم بحتمية أبدية للعلو اليهودي!

ويغـــذي هـــذا الفهم اليهـــود أنفســـهم من خلال كتابات[155] معينة يخـرج قارئهـا بتصـور يفسـد عقيدتـه، حيث يعتقد أن اليهود يفعلون مـا يريـدون، وأنـه مـا من حركة أو سكنة إلا وهي جزء من خطة يهودية شاملة.

هذا التصور شرك صريح.. فالله وحده هو الفعال لمـا يريد.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. وعقيدة التوحيد ترفض هذا الوهم، والواقع شاهد على ذلك.

وحادثة واحدة تكفي.. وهي نكسة 1967م الـتي كـان ظاهرها لصالح اليهود وكان باطنهـا الرحمـة؛ حيث كـانت نقطة التحول في تـاريخ الحركـة الإسـلامية؛ حيث بـدأت من مصـر بعـد أن قـويت الرغبـة في الرجـوع إلى اللـه، لتبدأ مع تلك الرغبة الدعوة الإسلامية بمستواها الفردي، فيبلـغ خطرهـا كـل أنحـاء العـالم، ويصـبح مواجهـة هـذا الخطر هو محور السياسة العالمية على مستوى الشرق والغرب.

ولكن معالجـة هـذه المشـكلة لا يعـني نفي التصـور المؤكد لوجود إدارة جاهلية واحدة للصراع مع الإسلام..

---

155 (?) مثل بروتوكولات حكماء صهيون.

وأن قــرارات هــذه الإدارة فــوق مســتوى ســلطة الحكومات الجاهلية..

وأن عناصر هذه الإدارة لا تخضع لأي ظـروف خارجـة عن نطاق الخطة الثابتة لمحاولـة القضـاء على الإسـلام أو تحجيمه.

والشـواهد السياسـية الدالـة على ذلـك كثـيرة، ولعـل أهمهـا المواجهـة الأمنيـة للـدعوة.. حيث يكـون التطـابق التام في أسـاليب المواجهـة -والـذي يـدل على صـدورها عن نظرية أمنيـة واحـدة- يتم تطبيقهـا من خلال التعـاون الأمني بين الأجهزة الأمنية على مستوى العـالم كلـه ضـد الإسلام، بأسلوب واحد، وعناصر ثابتة:

- المتابعــة - التخويــف - التضــييق - الاعتقــال - التعذيب – القتل..
- الضغط - الإغراء - التوريط – التجنيد..
- طمس الدين الصـحيح - تغيـير المنـاهج - فتـاوى العملاء..
- نشــر الفقــر والمــرض - نشــر التحلــل الخلقي والمخدرات..
- التضليل الإعلامي وتشويه سمعة الرموز..
- إدخـال أكـبر عـدد من النـاس في مجـال الـولاء السياسـي: القطـاع العـام (قـديما) - حـزب السـلطة - والمعارضة المصنوعة..
- توسيع مجال الـولاء الـوظيفي للسـلطة: جيش - شرطة - مخابرات - هيئات حكومية..

والبعـد القـدري يثبت أن نصـر اللـه للمؤمـنين يكـون بسبب الكافرين أنفسهم.. وواقـع الصـراع بين الجاهليـة والإسلام شاهد على ذلك.

وأبرز هذه الشواهد: غباء السياسة الأمريكية الذي يصب في مصلحة الدعوة، ومن أخطر الأمثلة الدالة على ذلك: **كان غزو أمريكا للعراق..**

لقد كان العراق في فترة صدام حسين من أسوأ مواقع الدعوة الإسلامية في العالم، فقد كان النظام يقتل الإخوة في الشوارع.

وليس أدل على حال الدعوة في فترة صدام من عدم وجود أي أثر لمجاهدين عراقيين في أي موقع من مواقع الجهاد الإسلامي في العالم.

فإذا تتبعت الشرائط والأفلام المصورة للمجاهدين وقصص شهدائهم بأسمائهم وجنسياتهم.. لا تجد من بينهم عراقيًّا واحدًا! مما يعني القضاء عليهم كلية..

وبمجرد أن يحدث الغزو، يتحول العراق إلى أقوى موقع جهادي في العالم وتحدث أروع البطولات الإسلامية القتالية.

التص

الباب الثالث

النظرية السياسية الجاهلية

التص

الفصل الأول

التفسير العام للنظرية

ومضمون النظرية السياسية الجاهلية هو:

- **الطاغوتية**، وهو المصطلح الذي يعني الشيطنة السياسية، وأساسيات هذا المصطلح: هي السلطة بعناصرها الأصلية..

والسلطة بكل مستوياتها تقوم على التفاضل بين الشياطين.. والتفاضل يكون بمقدار الفساد الذي يقوم به الشيطان.

فيثبت بذلك ارتباط نظام الشياطين.. بأهدافها، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشياطين بالنسبة لإبليس: «**وأعظمهم مكانة أعظمهم فتنة..**» وفي رواية أخرى: «**وأدناهم منزلة أعظمهم فتنة**»[156].

ومن أجل أن القرب من إبليس يكون بمقدار الفساد، فإننا نجده -لعنه الله- قد صنع لنفسه عرشًا، وجعل حول العرش حيات، بدليل حديث ابن صياد عندما سأله النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: «**ماذا ترى؟**» قال: أرى عرشا على الماء وحوله حيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هو عرش إبليس**»[157] وبالطبع فإن تقريب الحيات إليه إنما هو اعتراف منه بقيمة المهمة التي أدتها الحية في إدخاله الجنة للوسوسة إلى آدم[158].

---

156 (?) سبق تخريجه.

157 (?) مسلم رقم [2925] عن أبي سعيد وسبق تخريجه.

158 (?) وقد ورد هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنه، ولهذا جاء في

ورؤية ابن صـياد لعـرش إبليس -وهـو يـدعي النبـوة- دليـــل على ارتبـــاط الإفســـاد بعـــرش إبليس كأســـاس تنظيمي في واقع الشياطين.

وعناصر السلطة الأصلية هي:

- **القتال: {الَّذِينَ آَمَنُـوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللـــهِ وَالَّذِينَ كَفَـــرُوا يُقَـــاتِلُونَ فِي سَـــبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَـاتِلُوا أَوْلِيَــاءَ الشَّــيْطَانِ إِنَّ كَيْــدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}**.

- **الولاء: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَوْلِيَــاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُـونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَــاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**.

وتنطلـق من هـذه العناصـر أخطـر شـواهد الجاهليـة السياسـية، المحققـة للسـيطرة على الإنسـان وعقلـه، والمنشئة في قلب الإنسـان الجـاهلي دافـع القتـال في سبيل الطاغوت، والمحققة لولائه للجاهلية..

تفسير قوله الله عز وجل: **{وَقُلْنَا اهْبِطُـوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ}** [البقـرة: 36] قـول ابن عبـاس والسـدي: آدم وحـواء وإبليس والحيـة. وقال ابن جرير الطبري في تفسير الآية: وقـد رويت هـذه الأخبـار عمن رويناها عنه من الصحابة، والتابعين، وأولى ذلـك بـالحق عنـدنا مـا كـان لكتاب الله موافقا. ثم قال: ولكن ذلك كان – إن شاء الله على نحو مـا قال ابن عباس ومن قال بقوله. وقال في موضع آخـر: أمـا عـداوة آدم والحية فقد ذكرنـا مـا روى في ذلـك ابن عبـاس ووهب ابن منبـه.. هـذا وقـد قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم في الحيـات: **«مـا سالمناهن منـذ حاربنـاهن، فمن تـركهن خيفـة منهن فليس منا»** هو عند أبي داود (163/14) وأحمد (247/2) عن أبي هريرة.

شواهد الجاهلية السياسية:

1- الحساسية السياسية الجاهلية تجاه السلطة الشرعية الإسلامية:

ولأجل أن خطورة السلطة الإسلامية على الشــيطان قد بلغت أن تكـون حـرزًا للأمـة منـه.. فإننـا نجـد أنـه لا يطيق قيامها، ويعتـبر هـدف إسـقاطها إذا قـامت مهمـة أساسية عنـده، ودليـل ذلـك هـو موقـف الشـياطين من ملك سليمان؛ حيث جاء في تفسير قول اللــه: **{وَلَقَـدْ فَتَنَّا سُـلَيْمَانَ}** [ص: 34] قــول ابن عبــاس ومجاهــد وقتادة وسعيد بن جبير والحسن: جسد: يعني شـيطان.. مؤكدين القول بقصة مضمونها: أنه كانت هناك محاولــة انقلاب شيطانية ضد حكم سـليمان، فقـدر اللـه فشـلها ونجاته منها بعد بلائه بها.

ولعل هذه الحقيقة تكون تنبيهًـا للـذين يتلهفـون على قيام السلطة الإسلامية دون الاستعداد للمحافظة عليهـا بعــد قيامها؛ إذ إن العقبــات الضــخمة الــتي يصــنعها الشيطان في سـبيل قيـام هـذه السـلطة تكـون قليلـة، بجانب الأساليب والوسـائل الـتي سيمارسـها الشـيطان لمحاولة إسقاطها إذا قامت.

ولما فشـلت المحاولـة الشـيطانية ضـد سـليمان في حياتــه لم يتوقــف الأمــر عنــد هــذا الحــد، بــل قــدمت الشياطين تفسيرًا باطلًا لسلطة سليمان بعد موته.

مما يعني أن الشيطان لا يقاوم فقـط واقـع السـلطة الإسلامية إذا كانت قائمة، بل يقاوم مجرد أن تكون هذه السـلطة إذا غـابت عن الواقـع مجـرد تجربـة تاريخيـة ناجحة.

ففي تفسير ابن كثير لقوله الله: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [البقرة: 102] بعد أن أورد قول ابن عباس، والربيع بن أنس ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق وابن جرير وغيرهم والحاكم في المستدرك قال: فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفي ملخص السياق القصة، والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياق على اللبيب الفهم.

أما الملخص ففيه: أن السحر انتشر في عهد سليمان وكتبوا فيه كتبا، فجمعها سليمان حتى يمنعهم منها، ودفنها تحت كرسيه، وهو المكان الذي لا تستطيع الشياطين الاقتراب منه، فلما مات سليمان دلت الشياطين الناس على هذه الكتب، فاستخرجوها من تحت الكرسي، وأشاعوا أن سليمان كان يحكم الجن والإنس بها، واتهموا سليمان بالسحر.

فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم وذكر نبي الله سليمان قالت اليهود: إن سليمان كان ساحرا، فنزل قول الله ردا عليهم: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [159].

وفي ظرف عارض من ظروف الدعوة الإسلامية في مصر، اضطرت السلطة الجاهلية إلى إعلان أن هناك لجان قانونية مختصة لتطبيق الشريعة..

وبعد فترة زمنية طويلة، وفي إطار نفس الظروف العارضة اضطرت السلطة الجاهلية إلى إعلان إتمام تقنين بعض القوانين لتكون المفاجأة..

أن القانون الذي تم إنجازه هو «القانون البحري

---

[159] (?) تفسير ابن كثير (1/136).

التجاري».

فـرغم أن الحكومـة المصـرية كـانت تعـرف أنـه لن يكــون من ذلــك شــيء.. إلا أنهــا ابتعــدت عن الواقــع المباشر للناس، وآثرت أن تكـون المهزلـة فـوق سـطح الماء وفي أعالي البحار بعيدا عن حياة الناس!!

وفي ظرف آخر أعلنت السلطة الجاهلية في نيجيريـا عزمها على تطـبيق الشـريعة، فـإذا بـالرئيس الأمـريكي «كلينتون» يقوم بزيارة سريعة إلى البلاد ليثني أصـحاب القـرار عن قـرارهم، وتراجعـوا فـور الزيـارة الخاطفـة وأقيمت الاحتفالات للرئيس الأمـريكي، ورقص أصـحاب التطـبيق المزعـوم للشـريعة بـزيهم المشـهور، رقصـة آكلي لحوم البشر، وهم يجرون في حلقة أمام الرئيس، ليرى العالم طبيعة أصحاب الشريعة.

وفي السودان أعلن الرئيس جعفـر نمـيري لظـروف وملابسات سياسية خاصة تطبيق الشريعة الإسلامية:

- منهـا كسـب القـوة السياسـية المتناميـة في هـذا الوقت في مقابل القوة الصليبية المتمردة على الدولــة في الجنوب..

- ومنهــا: معالجــة الضــغط الواقــع على الشــعب السوداني النـاتج عن الـتردي الاقتصـادي الشـديد، على اعتبـار أن الشـعب السـوداني المحب للإسـلام سـيلتف حول قيادته السياسية أمام تمـرد النصـارى، وسـيتحمل المعاناة الناشئة عن الفقر.

ومـع ذلــك لم تنس أمريكــا لنمـيري هـذا التصـرف وعملت على إزاحته، رغم علمهـا بـأن هـذا الإعلان كـان مجرد مناورة سياسية عارضـة وليسـت موقفًـا سياسـيًّا

حقيقيًّا.. ورغم أن السياسية السـودانية وولاءهـا للغـرب لم تتغير.

فما بالنا لو كانت إقامة السلطة الشـرعية الإسـلامية حقيقية صادقة مثلما فعلت طالبان في أفغانستان!!

وحساسـية الجاهليـة من إقامـة السـلطة الإسـلامية تكون مع أبسط مستويات هذه السلطة ابتداءً من تدخل العلمـاء المسـلمين في معالجـة المشـاكل الاجتماعيـة للنـاس وفقـا للتصـور الإسـلامي في المعالجـة، فتمنـع الجاهلية هذا التدخل بكل وسيلة.

لقــد كــان إعلان الســلطة الشــرعية الإســلامية في أفغانستان هو البداية الفعلية للحرب الأمريكية والغربيـة عليها.

2- التخلي عن الأولياء:

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ وَقَـالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَـارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَـرَاءَتِ الْفِئَتَـانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْـهِ وَقَـالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّـهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [لأنفال: 48]

3- المتابعة:

ولقد بدأت المتابعة الجاهلية فعلًا منذ لحظة الرسـالة الأولى، حيث «أمر إبليس أتباعـه بالانتشـار في الأرض» عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

تلـك هي خصـائص الجاهليـة الـتي تسـيطر بهـا على الإنسان..

وهذه قريش تشترط على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد إليها كل من أسلم، حتى جاء أبو جندل مسلمًا فأعاده المسلمون التزاما بالمعاهدة، فيأخذه المشركون مقيدًا بالحديد.

وتبعث في أثر المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لتعيدهم إليها. ويقدمون الهدايا إلى قساوسة النجاشي ملك الحبشة من أجل إعادتهم.

وتزاحم قريش النبي صلى الله عليه وسلم في مواسم الحج لتقاوم دعوته بعد أن رأته يدعو الناس.

وهذا أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة يسبقان النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمه في لحظات موته، فيحاول النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطقه الشهادتين، فيشتد الصراع في لحظات الموت من أجل التأثير على أبي طالب، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**يا عم قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله**» فيقول أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب.. أترغب عن ملة عبد المطلب؟! قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب..

وهذا حاكم كافر يبعث رسالة إلى فرد مسلم قاطعته الجماعة لأجل خطأ وقع فيه، فيقول له فيها: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسِكَ[160].

سبحان الله!! حاكم دولة كافر، يطلب فردًا مسلمًا، في توقيت خطير، ليؤثر عليه ويفتنه.

---

[160] (?) تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ...}** الآية. والرسالة كانت من ملك غسان لكعب بن مالك رضي الله عنه.

صراع على الإنسان.. مزاحمة في المكان.. وملاحقـة في الطــرق.. مطــاردة في الأرض.. تــربص وترصــد.. مراقبة وتتبع.

هذه بعض ملامح الصراع والـتي لا تـزال قائمـة.. بـل تزداد.

ولعـل هـذه الملامح تكـون واضـحة لأصـحاب فكـرة التربيـة النظريـة الهادئـة، هـؤلاء الـذين يتخيلـون توقـف الحركـة الجاهليـة.. ويطفئـون في إحساسـهم اشـتعال الصراع ويفترضـون أن الجاهليـة سـتتركهم يربـون جيلًا إسلاميًّا، وتمنحهم فرصة تكوين كيان إسلامي قوي على أرضهم وتحت سلطانهم!!

4- الإشاعة:

ففي غزوة أحد، صرخ الشيطان -لعنه الله- بأعلى صوته: إن محمدًا قد قُتل، ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وتولى أكثرهم، وكان أمر الله[161].

فطارت بقية صواب المسلمين، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكينًا، وفكر آخرون في الاتصال بعبد الله بن أبي -رأس المنافقين- ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان. ومر بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟! فقالوا: قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين،

---

161 (?) انظر: فصول من السيرة لابن كثير.

ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل[162].

والإشاعة عنصر أساسي تعالج بـه الجاهليـة مواقفهـا السياسـية؛ ففي حكم عبـد الناصـر بعـد ضـربه للإخـوان المسـلمين خـرجت همسات بين الناس تقول: ما له يقتل المسلمين ويترك النصـارى؟! وكـان عبـد الناصـر لا يسـتطيع أن يمس نصـرانيًّا، بـل كـان مسـاندًا لهم، حيث بُنِيَت في زمنـه كاتدرائية العباسية، وتبرع لها من أمـوال الدولـة بالمـال الكثير، وكانت لـه مواقـف تحـيز فيهـا للنصـارى في بلاد كثيرة وليس في مصر فقط، فتحيز للأسقف مكـاريوس ضد تركيا في نـزاع جزيـرة قـبرص، وتحـيز للإمـبراطور هيلاسلاسي في الحبشة ضد مسلمي الحبشة.

ولما كان عاجزًا عن ضـرب النصـارى في مصـر كمـا ضــرب المســلمين.. أشــاع خــبرا كاذبًــا مفــاده: (أن القساوسة اجتمعوا ليطالبوا عبد الناصر ببعض مطالبهم فأظهر الموافقة على مقابلتهم، فركبـوا جميعًـا القطـار ليسافروا إليـه ويقـابلوه، ففجّـر بهم القطـار).. فهـدأت خواطر الناس بالخداع والكذب.

ويماثل نشر الإشاعات في معالجة المواقـف السياسية الجاهلية.. نشر المفـاهيم الخاطئة.. ومثال ذلك:

- إشـــاعة أن الســـادات هـــو الـــذي أعطى الفرصة للحركة الإسلامية..

وهـــذا أمـــر غـــير صـــحيح، لأن الحركـــة الإســـلامية

162 (?) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري.

«المرحلة الثانية» بدأت في عهد عبد الناصر وظلت في سرية، ولم يكتشفها أحد حتى حادثة الفنية العسكرية عام 1974.

وحتى حادثة الفنية ذاتها.. لم تكشف غير بعض جوانب الواقع السري للحركة..

ولكن الذي حدث.. أن السادات أراد ضرب الشيوعيين في الجامعات، فأتاح الفرصة للنشاط الذي كان قائمًا وموجودًا بالفعل، وكان نشاطا علنيًّا مختلفًا عن النشاط السري للحركة التي يزعمون أن السادات هو الذي أوجدها..

- إشاعة أن أمريكا هي التي ساعدت المجاهدين في أفغانستان في حربها ضد الروس..

والصواب: أن الجهاد ضد الروس وعملائهم الشيوعيين كان موجودًا قبل الاحتلال، وبمجرد دخول القوات السوفييتية لدعم الحكومة الشيوعية العميلة المنهارة.. اشتعلت الأرض تحت أقدامهم، ودخل المجاهدون من باكستان على الخط، ولم يكن هناك أي دور لأمريكا أو غيرها، لكن أمريكا أرادت التغلغل في الجهاد الأفغاني للسيطرة عليه والتحكم فيه، فأوعزت لمخابرات الأنظمة العميلة لها بالسماح لجمع التبرعات وإرسال المجاهدين العرب إلى أفغانستان مع مراقبة الأحداث، واستطاعت أمريكا زرع العديد من عملائها، الذين تمكنت من خلالهم فيما بعد من شق صفوف المجاهدين بعد اندحار السوفييت، ووصل الأمر إلى تدمير مخازن سلاح المجاهدين الذي تم شراؤه بأموال المسلمين، ثم اغتيال الشهيد -بإذن الله- عبد الله عزام، والرئيس الباكستاني ضياء الحق..

- إشاعة أن أمريكا هي التي قتلت السادات..

والصواب: أن السادات هو الذي قتل نفسه بتطاوله على الشريعة والرموز الإسلامية علانية وبوقاحة غير معهودة، فاجأت حتى المقربين منه، مما استفز الشعور العام، وكان اعتقال محمد الإسلامبولي شقيق خالد الضابط بالقوات المشتركة في العرض هو السبب الرئيسي للتفكير في اغتياله، ونجاح هذه العملية.. وأما ادعاء أنه تم التغاضي عن مرور منفذي العملية بأسلحتهم، فهذا كذب صريح، ولكن الواقع أن الضابط المسئول عن طابور العرض كان قد مرض مرضًا مفاجئًا، فتم تعيين بديل له، لم يتمكن من تفتيش العربات واحدة واحدة.. واضطر لتفتيش واحدة وترك الأخرى عشوائيًا، وقدر الله أن تكون عربة منفذي الاغتيال ضمن العربات التي لم تفتش «عشوائيًا».

- إشاعة أن أمريكا هي التي صنعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر..

وقد أثبتت الوثائق التي أفرجت عنها القاعدة أن الأحداث من تخطيطها وتنفيذها، وضحوا بأهم اثنين من عناصرهم لتأكيد تلك المعلومات..

- إشاعة أن العداء الأمريكي والغربي للإسلام بدأ بعد أحداث سبتمبر..

والصواب: أن العداء الأمريكي للإسلام بدأ منذ نشأة أمريكا كدولة، حيث حمله إليها قادة الهجرة الأنجلوساكسون، وليس أدل على ذلك من جلب المسلمين من غرب أفريقيا واستعبادهم، وبدخول أمريكا في المعترك السياسي العالمي في الحرب العالمية الثانية، جاء دورها لاستلام تركة أوربا المنهارة

المتمثلة في أقطار العالم الإسلامي بكل ما تحتويه من ثروات طبيعية وخصائص استراتيجية!

ولكن التساؤل الذي يفرض نفسه: ما الهدف من وراء تلك الإشاعات؟!

هناك علة واحدة لكل هذه الإشاعات: هو نزع الثقة من الإنسان المسلم في أن يكون قادرًا على صنع شيء!

والمنهزمون أمام الجاهلية، وفاقدو الثقة في أنفسهم ودينهم، هم الذين يتجاوبون مع هذه الإشاعات، ويصدقونها.

والواقع أن للجاهلية نظريات ومذاهب واتجاهات ومدارس ونظمًا سياسية مختلفة[163]، لكن ما نعنيه بالعنوان هو النظرية السياسية الجاهلية في عدائها مع الإسلام؛ لأن هذا العداء هو جوهر السياسة الجاهلية. وبهذا الاعتبار فإن هذا الاختلاف في هذه النظريات والمذاهب والاتجاهات والمدارس والنظم السياسية المختلفة يصبح أمرًا شكليًّا بالنسبة لهذا الجوهر وتعددًا سطحيًّا بالنسبة لاتجاه الهدف الأساسي والنهائي للجاهلية، وهو القضاء على الإسلام.

وللدلالة على هذه الحقيقة نَذكُر مثالًا بأقصى تناقض شكلي في إطار النظريات السياسية الجاهلية يحقق أكبر توحد في حرب الإسلام، وهذا المثال هو الديمقراطية والديكتاتورية؛ حيث يمثل أكبر تقابل في إطار النظريات الجاهلية أكبر توحد في إطار النظرية

---

163 (?) سواء فكرًا قوميًّا، أو وطنيًّا، أو كان مذهبًا سياسيًّا، أو ديمقراطيًّا، أو ديكتاتوريًّا، أو كان نظامًا سياسيًّا جمهوريًا، أو ملكيًا، أو رئاسيًا، أو كانت مدارس سياسية شرقية، أو غربية.

الجاهلية الواحدة.

فكلا النظريتين يمنع وجود واقع صحيح للدعوة.

فالديمقراطية.. هي أن يتكلم الجميع!

والديكتاتورية.. هي أن لا يتكلم أحد!

وهاتان النتيجتان المتقابلتـان بالنسـبة للـدعوة يحققـان نتيجة واحدة، وهي أنه لن يسمع أحـدٌ لأحـد، حيث لا تقـوم الدعوة إلا في واقع يجد فيه من يتكلم.. أحدًا يسمعه.

وفي الديمقراطيــة يتبــدد الفكــر الصــحيح في واقــع الإســفاف والــثرثرة، وفي الديكتاتوريــة يتــوارى الفكــر الصحيح في واقع القهر والكبت.

وفي الديمقراطية يضيع الإنسان المفكـر في ظـواهر الفوضى الفكريـة والإعلاميـة، وفي الديكتاتوريـة يختفي الإنســـان المفكـــر في غيـــاهب الســـجون، وفي كلا النظريتين.. يغيب الإنسان المفكر، والفكر الصحيح.

وأقرب تشبيه للفرق بين الديمقراطيـة والديكتاتوريـة هو فرق اللون بين الضباب والظلام؛ حيث يكون التقابل التـام في اللـون الأبيض والأسـود بنتيجـة واحـدة: وهي انعدام الرؤية.

وجوهريـة النظريـة السياسـية الجاهليـة في مواجهـة الإسلام لها غاية ثابتة وهي الصد عن سبيل الله.

والصد عن سبيل الله كغاية سياسية جاهلية له خطوط محددة:

- **منع ظهور الدين**: «قتل الأنبياء والذين يـأمرون بالقسط من الناس».

- **منع حدوث الامتداد إذا فـرض الظهـور**، من خلال التركـيز على الزعامـة -كمحاولـة منـع الرسـول الخروج من مكة- كما قـال سـبحانه: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِـكَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِيُثْبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُـوكَ أَوْ يُخْرِجُـوكَ وَيَمْكُـرُونَ وَيَمْكُـرُ اللـهُ وَاللـهُ خَيْـرُ المَـاكِرِينَ}** [الأنفال: 30]**.**

- **التفسير غير الحقيقي للامتداد** إذا فرض هذا الامتداد، كما فسر رستم قائد الفرس خروج المسـلمين للقتال بقوله: «ما أخرجكم إلا الجوع».

فإذا ظهر الدين وفرض وجوده وتحقق امتداده.. نشأت خطوط أخرى:

- **منع الدين السياسي**: العلمانية.

وفي منع الدين السياسي عشنا فترة تمتـد على الأقـل منذ حركات الإحياء القـومي في أعقـاب الحـرب العالميـة الأولى وحتى هذه اللحظة؛ حيث يدور التصور حول حقيقة واحـدة، تـدور وتنبـع من مبـدأ تقييـد الدلالـة السياسـية للإسلام، وإبعاده بصورة أو بـأخرى من الحركـة السياسـية ومن واقــع الصــراع السياســي.. قبــل الحــرب العالميــة بدعوى العلمانية، وبعد الحرب بدعوى الاشتراكية وتقييدها للتقاليد الإسلامية[164].

- **مقاومة السلفية ونشر البدع**، للتحول بالناس إلى مرحلة «الانتساب العاطفي» الخاطئ: التصوف..

- ثم مرحلــة «الاقتلاع العــاطفي»: الانحلال والإدمان..

---

[164] (?) سلوك الممالك في تدبير الممالك. كتاب الشعب.

- ثم اقتلاع الجذور التاريخية..

ومثال هذه المحاولة ما يتم في بلاد العالم المنتسبة إلى الإسلام مثلا؛ حيث يتم هدم فكرة الخلافة تاريخيًّا من خلال الفكر العلماني، وتأكيد الانتساب لمرحلة ما قبل الانتساب -مثل الفرعونية في مصر- لإضعاف الانتساب الإسلامي التاريخي، وتغيير الآثار والمعالم الدالة على الانتساب الإسلامي التاريخي لهذه البلاد[165].

- الفصل بين الدعوة والناس بتشويه الصورة الاجتماعية للدعوة[166].

وإيقاع الضرر بالعامة بسبب أصحاب الدعوة مثل مقاطعة قريش لبني عبد مناف حتى يكره الناس هذه الدعوة.

وفي ثنايا خطوط الصد عن سبيل الله تبرز عدة قواعد للسياسة الجاهلية.

قواعد السياسة الجاهلية في الصد عن سبيل الله:

قاعدة الهدف الناقص:

وتفسير هذه القاعدة يرجع في حقيقته إلى أسلوب شيطاني في منع اجتماع العوامل التي يتحقق بها هدف واحد، مثل هدف الأمة الواحدة التي تعبد رب العالمين،

---

165 (?) مثل تغيير اسم شارع عمرو بن العاص إلى شارع كورنيش النيل، فترى اللافتة وقد كتب عليها شارع كورنيش النيل، وتحت ذلك وبخط صغير: عمرو بن العاص سابقًا.
ومثل تغيير علم محافظة القاهرة الذي تمثله المئذنتان اللتان عند باب زويلة وتحويله إلى شمس فوق عبارة: محافظة القاهرة.. وبذلك عاد آمون رع وذهبت المئذنتان.

166 (?) سبق شرح ذلك في باب البعد الاجتماعي للتصور السياسي.

كما في قول الله: **{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء: 92] فيمنع الشيطان تحقيق هذا الهدف بالتعامل مع أحد العوامل بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم**»[167].

وفي الأساس فإن الشيطان يحاول القضاء على هذه العوامل كلها ولكنه عندما ييأس من هذا الهدف فإنه يمنع هذه الثانية، بمعنى أن الجاهلية قد تسلم بمرحلة لا تمثل هدفًا كاملًا.

ففي مقاومة الجاهلية للدعوة سياسيًّا فإنها تنطلق من قاعدتها الأساسية وهي منع الدعوة من الوصول إلى هدفها الكامل.

وبهذه القاعدة ننتقل إلى واقع الصراع السياسي بين الجاهلية والإسلام.

فالهدف الإسلامي الذي تسعى الحركة الإسلامية إليه هو: إقامة الجماعة المسلمة القائمة على التوحيد، والجهاد لإقامة الدولة التي تقوم بها الخلافة الإسلامية.

والعوامل التي يتحقق بها هذا الهدف لها صفة ثنائية، مثل:

العلم والعمل:

وتبعا لقاعدة الهدف الناقص فإنه من الممكن أن تسمح الجاهلية بظاهرة علمية ينقصها العمل بمقتضى هذا العلم، ولا تتعامل مع الواقع، لتحويل الدين إلى

---

[167] (?) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (6/17/156 – نووي).

ظاهرة ثقافية، وعندئذ لن يكون هنـاك أي خطـر من هذا العلم على الجاهلية.

وكذلك فإنـه من الممكن أن تسـمح الجاهليـة بطـرح نظـري لقضـايا التوحيـد.. دون أن يكـون لأصـحاب هـذا الطرح النظري أي قوة تلازم هـذا الطـرح للـدفاع عنـه، ولا تبلـغ حـد المواجهـة إذا كـان هنـاك محاولـة للقضـاء عليهم إذا أرادت ذلك.

الزعامة والأتباع:

وتبعا لقاعدة الهدف الناقص فإنه من الممكن أن تسمح الجاهلية بظاهرة جماهيرية، ويسمح بأتباع لا تجمعهم زعامة توجهها وتحقق بها أهداف الدعوة، كما يمكن أن تسمح ببروز زعامات مقطوعة الصلة بالناس.

القوة والسياسة:

وتبعا لقاعدة الهدف الناقص فإنه من الممكن أن تسمح الجاهلية بممارسة سياسية لا تقوم على القوة -الحركات الإصلاحية- ليسهل إيقافها في أي وقت، أو توجيهها لصالح السلطة الجاهلية.

مثال: أن تسلم الجاهلية بوجود كثرة مسلمة في واقعها إذا فرضت هذه الكثرة وجودها؛ ولكنها -أي الجاهلية- تركز في مقاومة الدعوة إذا وصلت إلى هذه المرحلة على الزعامة، فتفرض أو تسمح بنوع من الزعامة يحدث في هذه الكثرة تأثيرًا يذهب أثرها..

لأن الزعامة الصحيحة والكثرة المسلمة.. هدف كامل.

أو تركز على التفريق، لأن الوحدة والكثرة هدف كامل.

وعندما تحاول الجاهلية مهمة التفريق فإنها لا تستغل فقط اختلافات منهجية بين هذه الكثرة، ولكنها تسعى إلى إنشاء التناقض الذي تضمن به عدم إمكانية تجاوز المحاولة الجاهلية في التفريق.

وفي هذا الإطار يمكن نقل قضايا خلافية تاريخية مثل إتاحة مساحة كبيرة لفكر إرجائي أو خارجي بين واقع

أهل السنة.

وعندما تعلم الجاهلية أن الصـراع بين الاتجاهـات أو حتى محاولة تجمعهم سيستهلك طاقة أصحاب الـدعوة؛ فإنها ستسمح بذلك إذا كان تقديرها أن محاولـة التجمـع هذه ستبوء حتمًا بالإخفاق.

وعناصــر الهــدف الكامــل هي الامتــداد الإســلامي الصحيح الوحيد القـوي، وتحقيـق النقص يمكن أن يـأتي بفقد أي عنصر من هذه العناصر.

قاعدة الخطر الأول:

وفي مقاومــة الجاهليــة للــدعوة في حــال الامتــداد الواسع.. فإن أعـداء الـدعوة يصـنّفون أصـحابها تصـنيفا فكريًّا وأمنيًّا، ويقومون بترسيخ الاختلافات المنهجية بين اتجاهات الدعوة، ووضع العنـاوين والتسـميات للكيانـات المختلفـة بمضـمونها ومصـطلحاتها المنهجيـة؛ ليسـهل التعامـل مـع كـلٍّ منهـا على حـدة، والانفـراد بأخطرهـا عليهم، ثم تتعامل مع الآخـرين بأسـلوب مختلـف يحقـق نوعًــا من الأمــان والانفصــال عن الخــط الــذي ســيتم التركيز عليه من جانب الجاهلية.

والقاعدة التي تواجه بها الدعوة هـذا الأسـلوب.. هي اليقين بأن الجاهليـة تـرفض الإسـلام كليـة، بـل لا تقبـل مجرد كلمة «الإسلام».

قاعدة الاتجاهات الوهمية للصراع:

فعنـــدما تسعى الجاهلية إلى تحويـــل الـــدعوة عن الاتجاه الصحيح للمواجهة.. فإنها تطرح اتجاهات وهميــة للصــراع، تُقنــع الــذين يفكــرون في مصــلحة الــدعوة بــالتحرك في هــذه الاتجاهــات من خلال مواقــف غــير

حقيقيـة لإثبـات فاعليـة هـذه الاتجاهـات، مثـل السـماح ببعض النتائج السياسـية المـأخوذة من الممارسـة الـتي تحــولت إلى هــذا الاتجــاه[168]، ومثــل حادثــة إســقاط الــرئيس الأمــريكي نيكســون من خلال عمــل صــحفي قامت به الصحف الأمريكية والتي عرفت باسم فضـيحة «ووتر جيت».. لتصبح تلك الحادثـة نموذجًـا يحتـذى بـه، ولكي يقولوا بعد ذلك:

- أن النظـــام الـــديمقراطي اســـتطاع بالوســـائل الدســـتورية (!) تخطي الســـلطة الرئاســـية، وكشـــف المـؤامرة المـدبرة، وملاحقـة الـرئيس قضـائيًّا، ومن ثم الإطاحة به!

- أن العمـل الإعلامي والصـحفي لديـه القـدرة على تغيير الواقع السياسي متى امتلك المعلومة.

بينمـا هي منـاورة سياسـية للتغطيـة على صـراعات مراكـز القـوى الـتي تـدير الصـراع من وراء الكـواليس، وتقوم بعمل إخراج «سينمائي» لنتيجة الصراع.

قاعدة سرقة الكفاح:

والواقــع أن تَـدَخُّل الجاهليـة بعـد أن تقطـع الـدعوة شوطًا هائلًا من طريقها وتقترب من تحقيق هدفها.. لــه أمثلة تاريخية محددة، نضرب لهـا مثلًا قـديمًا من دعـوة موسى.. وهو موقـف السـامري والعجـل بعـد أن مـرت أشـد مراحـل الـدعوة قسـوة وشـدة وهي فـترة تعبيـد فرعــون لبــني إســرائيل، حيث تم الخــروج من مصــر؛ ليكون وقوف موسى ببني إسـرائيل بين يـدي اللـه عنـد جبل الطور لأخذ التوراة وإقامة دولة الحــق المنشــودة،

---

[168] (?) أبرز مثال على ذلك: تاريخيًا: التجربـة النيابيـة الأردنيـة الـتي انتهت إلى لا شيء، وحاليًا: التجربة التركية.

وإذا بموسى يتعجل اللقاء فيسبق بـني إسـرائيل وتغيب القيـادة ليظهـر السـامري متبنيًـا الهـدف الـذي حـدده موسى من قبل وهو لقاء الله عز وجل لتلقي الشريعة.

فيـأمر السـامري بـني إسـرائيل بجمـع الحلي، وهـو التصـرف الـذي جعـل من كـل بـني إسـرائيل صـناعًا مشاركين في خطيئة العجل.

وعندئـذ انفصـلت جمـاهير بـني إسـرائيل عن دعـوة موسى، فلم يسمعوا لأخيه هارون وتوجهوا نحو العجـل، واحتل السامري موقع الزعامة، وكـان مضـمون تجربـة السامري هو أن اقتراب الـدعوة من تحقيـق أهـدافها لا يجعل الجاهلية تسلم بـالأمر الواقـع، بـل تحـاول احتـواء هذه النتيجة، وإعادتها إلى فترة الضعف الأول..

ومن المثــل القــديم.. إلى الواقــع الحــديث.. بنفس المضمون.

مواقف تاريخية خطيرة جدًّا بلغت خطورتها أن كـانت تمثــل أخطــر المواقــف الفارقــة في تــاريخ الحركــة الإسـلامية.. وبمضـمون واحـد لم يتمكن فيـه أصـحاب الحركة الإسلامية من منع هذا التكرار على مر الزمــان، مع تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوقــوع في نفس الخطأ مرتين بقوله: «**لاَ يُلْدَغُ الْمُـؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[169].

فمنــذ ســقطت الخلافــة قــامت حركــات الإحيــاء الإســلامي بالــدعوة إلى الجهــاد ومقاومــة الجيــوش الصــليبية -الإنجليزيــة والفرنســية- في كــل الأقــاليم الإسلامية..

---

[169] (?) صحيح البخارى (20/ 302).

في مصـر بزعامـة مصـطفى كامـل، ورشـيد رضـا، ومحب الدين الخطيب، ومصـطفى الـرافعي، ثم بقيـادة حسن البنا والإخوان المسلمون، ومعه صالح حرب الذي أسس الشبان المسلمين.

وفي الجزائـر قـامت حركـة جمعيـة العلمـاء بقيـادة العلامة عبد الحميد بن باديس..

وكذلك في ليبيا قامت دعـوة الجهـاد ضـد الإيطـاليين إسلامية خالصة بزعامة عمر المختار.. حتى تحوَّلت بعـد وقت طويل من الجهاد عن عقيدة أهل السنة والجماعة بواسـطة إدريس السنوسـي الـذي جـاءت بعـده الثـورة الليبية.

وفي كل هذه التجـارب كـانت النتيجـة واحـدة: نجـاح السامري في اختراق الحركة، وسرقة الكفاح!

غير أن أخصب هذه التجـارب وأحقهـا بالدراسـة، كـانت تجربة الإخوان المسلمون:

الإخوان المسلمون وثورة يوليو:

وكان أشد هذه المواقف موقف عبد الناصـر والثـورة من دعـوة الإخـوان؛ حيث بلغت دعـوة الإخـوان مرحلـة كانت فيها من السلطة قاب قوسين.

لقد كان الإخوان المسلمون أقوى كيان سياسي:

- قضية ومشروع حضاري.

- زعامة تاريخية.

- عناصر قيادية ذات كفاءة عالية.

- قدرة تنظيمية حركية هائلة.

- قيـادات عسـكرية داخـل الجيش والشـرطة، ابتـداءً من عزيز المصري الذي كانت علاقته بحسن البنا وثيقـة جدا.

- مقاتلون حققوا بطـولات ضـد اليهـود في فلسـطين والإنجلـيز في القنـاة صـنعت موقفًـا تاريخيًّا حقـق أكـبر رصيد من التقدير والإكبار في نفوس الناس.

- قاعدة جماهيرية ضخمة منتمية ومؤيـدة ومتعاطفـة تكاد تستوعب الشعب المصري كله.

كيف استطاع أعداء الإسلام القضاء على هذا كله؟!

وإذا التجربة تبدأ بحلقتها الأولى: تغييب القيـادة بقتـل الإمام حسن البنا.

ثم الحلقــة الثانيــة: وهي تبــني نفس الأهــداف الــتي طرحتها دعـوة الإخـوان في خطتهـا الإصـلاحية، فكـانت أهداف الثورة هي مضمون رسالة الإخــوان المسـلمين، فتحولت الجماهير -في أغرب صورة- عن دعوة الإخوان وتوجهت نحو الثورة[170].

[170] (?) أكد الأستاذ محمد قطب هذه الحقيقـة في كلمـة مسـجلة لـه، قـال فيها: «اتصل محمد نجيب تليفونيًا بالمنزل وطلب الكلام مع سيد وقـال لـه: نحن تلاميـذك تتلمـذنا على مقالاتـك في مجلـة الاشـتراكية وعلى كتابك: العدالة الاجتماعية، ونريـد أن تكـون أنت مستشـارنا في الأمـور الداخلية فـذهب إليهم واحتفـوا بـه احتفـاءً شـديدًا في مبـدأ الأمـر على أساس أنه أستاذهم الذي وجههم، وما كـان يعـرفهم ولا كـان التقى بهم أبدًا قبل ذلك،» كمـا أكـد أن الأسـتاذ سـيد قطب عمـل طـوال الأشـهر الستة الأولى من عمر الثـورة في توجيـه رجالهـا في الأمـور الداخليـة، حتى تبين له النفوذ الأمريكي على رجالها، فامتنع عن التعاون معهم.
وقد اتهمت قيادات الإخوان صراحة جمال عبد الناصر بأنه اختطف مخطط ثورة يوليو- التي أطاحت بأسرة محمد علي من الحكم في عام 1952- من جماعة «الإخوان المسلمين» الـتي قـال إنهـا كـانت صـاحبة فكـرة

وبمقارنة سريعة بين المثلين: تجربة السامري وعبد الناصر.. يتضح أن أخطر عناصر التوافق هو التدخل في مرحلة ما قبل تحقيق الهدف[171].

ولعل مضمون هذين المثلين التاريخيين يحقق الإدراك التام لحجم الضرر المترتب على غياب القيادة في واقع الدعوة.

أما الحد النهائي لهذا الخطر فهو أن تغيب القيادة برغبتها وإرادتها؛ والعلة الثابتة دائمًا في هذه الغيبة هو الزهد في السلطة الذي يفهم على أنه إخلاص وتجرد.

وهذا الفهم قد يكون صحيحًا إذا كان هذا الزهد لا يخرج بالسلطة عن إطار الدعوة وأصحابها الحقيقيين، أما أن يزهد أصحاب الدعوة في السلطة لتكون في أيدي أعدائها فتلك هي الجريمة الكبرى.

الثورة والمخطط الأول لها، وإنه كان على اطلاع بالمخطط بحكم انتمائه إليها آنذاك، لكنه بادر بتنفيذه من خلال تنظيم «الضباط الأحرار»، بتعليمات من جهاز المخابرات الأمريكية (CIA) خوفا من قيام الجماعة بالثورة والسيطرة على الحكم في مصر.

[171] (?) أكد مدير محطة المخابرات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط -إبان ثورة يوليو- هذه المعلومات في مذكراته التي نشرها عام 1970 وأكد فيها أن الـ CIA هي التي دبرت وخططت ونفذت الثورة من خلال مجموعة من العملاء، وعرض الكثير من الأدلة التي تبرهن على صدق ادعاءاته، وقد عرضت هذه الادعاءات على كثير من رموز المرحلة الناصرية، وأهمهم هيكل، فلم يستطيعوا تكذيبها، أو إثبات زيفها، بل إن خالد محيي الدين أحد أعضاء مجلس الثورة اعترف أن عبد الناصر كان على علاقة بالمخابرات الأمريكية عن طريق «كيرميت روزفلت» المهندس الأمريكي لثورات المنطقة..

وكذلك صرح اللواء معروف الحضري أحد قادة الجيش المصري في حرب عام 1948 أن عبد الناصر كان له اتصالات مع اليهود أثناء حصار الفالوجة، وطلب عبد الناصر منه شخصيًّا التعاون مع ضابط المخابرات الإسرائيلية «كوهين».. وقبل الثورة صرح بن جوريون في الكنيست الإسرائيلي بأن انقلابًا عسكريًّا سيقع في مصر سيكونون أشد فرحًا به من المصريين أنفسهم..

وهذا عمر مكرم أكبر الشيوخ في مصر التي كانت في مرحلة الانقياد التام لزعامة العلماء يسلم قيادة البلاد لمحمد علي في أغرب تصرف تاريخي بدأت به أكبر مرحلة تواجد علماني في مصر.

وغاية السياسة الجاهلية الثابتة هي: الصد عن سبيل الله، حيث تحاول تحقيقها بمضمون ثابت، هو البحث دائمًا عن أشد فترات الضعف التاريخي للدعوة الإسلامية.. ثم تحليلها ومحاولة إعادتها بكل عناصرها إلى الواقع، لتعيد الضعف المرتبط بتلك العناصر..

والآن تحاول الجاهلية إعادة بعث هذه المراحل بكل عناصرها:

- إحياء الصراع الديني من خلال إعادة الحروب الصليبية.

- إحياء الصراع الطائفي، عن طريق تأجيج الصراع السني الشيعي.

- إحياء الصراع المذهبي من خلال نفخ الروح في الصوفية بفسادها الاعتقادي وجهلها وسلبيتها وعدائها لأهل السنة، وإعادة إحياء المذاهب الميتة كالمذهب الظاهري، والأشعري وغيرهما.

وبعد قواعد السياسة الجاهلية الأصلية نمتد إلى أخطر عناصرها (عناصر الممارسة السياسية الجاهلية): المكر السيئ.

المكر السيِّئ:

والمكر هو التدبير الخفي، وقد وصفه الله بالسوء؛ لغلبة الصفة عليه، ولأن مجرد التدبير الخفي قد يكون

للخير.

وخطر المكر السيئ يرجع إلى عدة حقائق:

- أننا على وجه الحقيقة لا نتحمل هذا المكر؛ لأن الله وحده هو القادر عليه، وهو سبحانه الذي يصده عنا، وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: **{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ}** [إبراهيم: 46].

- وأننا لا نستطيع صدّ هذا المكر؛ لأن الفاعلية الخبيثة للمكر الجاهلي كادت أن تزيل الجبال، وهو المأخوذ من قوله تعالى: **{وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ}** [إبراهيم: 46].

والموقف الصحيح في مواجهة المكر الجاهلي هو الصبر على هذا المكر عندما يكون له أثر في الواقع، وإمهال الكافرين رويدًا حتى ترى الفعل الإلهي ردًّا على هذا المكر؛ لأننا كطرف من الدعوة خارجين فعلًا من دائرة المكر بين الله وأعدائه، وهو المأخوذ من قوله سبحانه: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}** [الطارق: 15- 17].

ولذلك تكون أول صيغ الفعل الإلهي في رد المكر الجاهلي هو ارتداد أثره على مدبريه، وهو المأخوذ من قول الله: **{وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}** [فاطر: 43].

ذلك أننا غير قادرين على وجه الحقيقة على صد المكر الجاهلي؛ لأنه مكر دائم لا يتوقف لحظة، وهو المأخوذ من قوله سبحانه: **{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** [سبأ: 33].. ولا يكون زمن إلا ليل أو نهار.

- والموقف الصحيح في مواجهة المكر الجاهلي أيضًا

هو أن نقف بالدعوة الموقف الصحيح ونعطيها وجودها الشرعي الذي تستحق به الدفاع الرباني عنها وعن أصحابها.

ومما يجعلنا نؤكد على الالتزام الشرعي المطلق في مواجهة الجاهلية هو استحقاق الدفاع الإلهي عن الدعوة، حتى لو خالف ذلك مقتضى التفكير العقلي أو العملي، وهذه هي طبيعة التصور السياسي للحركة الإسلامية.

فلا غدر ولا خيانة؛ لأن الله لا يحب الخائنين..

ولا ظلم؛ لأن الله لا يحب الظالمين..

غير أن لمكر الجاهلية خطوطًا ثابتة في كل تجاربها مع الإسلام:

مرحلة **التعذيب والقتل** الهادفة إلى القضاء على أصحاب هذه الدعوة، وهي المرحلة التي تظن كل الجاهليات أنها المرحلة الحاسمة والنهائية.

ولكن المفاجأة تكون عندما تتجاوز الدعوة هذه المرحلة، فيتجه التفكير الجاهلي إلى مرحلة تقليدية أخرى وهي:

الاستنفار العام، ومعناه: حشد كل القوى الجاهلية وكل أساليبها في مواجهة شاملة مع الدعوة، وهي المرحلة التي يرتفع فيها العداء للدعوة إلى المستوى القومي، وتتحرك فيها الجاهلية في كل الاتجاهات الأمنية والسياسية والإعلامية والاجتماعية، وتكون صيغة الاستنفار العام: **{أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}** [ص: 6].

{امْشُوا}: تحركوا في كل الاتجاهات، **{وَاصْبِرُوا}**: اثبتوا على آلهتكم التي كادت الدعوة تنسفها نسفًا، **{إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}**: إنها خطة محكمة متفق عليها بين الجميع، ولكلٍّ دوره فيها.

ويثبت أصحاب الدعوة ثباتًا يستحقون به التأييد من الله.

الفصل الثاني

محاور النظرية السياسية الجاهلية

1- المحور الإعلامي:

ولكن الجاهلية تقـاوم، وسـيكون أخطـر عناصـر هـذه المقاومـــة: المواجهـــة الإعلاميـــة الجاهليـــة للـــدعوة الإسلامية.. وسـيتركز المحـور الإعلامي هـو الآخـر على عدة ركائز:

- **المتابعة الدقيقة لأصحاب الدعوة** بحيث لا تدع الداعية لحظة واحدة يخلو فيها إلى الناس، وهذا أبو لهب يحقق أعلى مستويات المتابعة، حيث يسير وراء الرسول وهو يدعو إلى دين الله ليقول للناس في آخر كلامه: هـذا ابن أخي.. لا تصدقوه.

ومنــذ أن انتشــرت الشــياطين في جميــع الأرض لم تقف المتابعة عند حد إقليمي أو مستوى دولي، وقد مـر في الكتاب أنه كمـا كـانت المتابعـة في مكـة كـانت في المدينة، وقد مر كيف أرسلت قـريش إلى عبـد اللـه بن أُبيٍّ تعتب عليــه وجــود الرســول في المدينــة وتهــدد بالتدخل العسكري لإنهاء هذا الوجود.

وليس هنـاك من دليـل على دقـة المتابعـة العالميـة للحركة الإسلامية من حادثة كعب ابن مالك[172].

- **التأكيـــد على إصـــابة أصـــحاب الحـــدث الإسلامي بأمراض وعقد نفسية**.. مثلما قال قــوم

---

[172] (?) جاء في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك –وكعب بن مالـك أحدهم- أن ملك غسان لما علم بأمر رسول اللـه للمسـلمين بمقاطعـة الثلاثة، أرسل رسالةً إلى كعب مع رجل نبطي جاء فيها: «أَمَّا بَعْـدُ: فَإِنَّهُ قَدْ بلغني أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَـوَانٍ وَلاَ مَضْـيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِك»..

شـعيب لنـبيهم بعـد إعلان دعوتـه: **{إِنْ نَقُـولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ}** [هود: 54].. ومثلما قـالوا لرسول اللـه بعـد إعلان النبـوة: إن كـان أصـابك شـيء طلبنا لك الأطباء[173].

- **التنفير الدائم للناس من أصـحاب الـدعوة**، وذلك من خلال تصويرهم في أذهـان النـاس في صـورة سيئة، وهذه هي الفكرة القديمة الـتي مارسـها فرعـون عندما قال عن موسى: **{أَمْ أَنَا خَيْـرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}** [الزُّخرُف: 52]؛ وذلك بسـبب العقدة التي كانت في لسان موسى، وكذلك اتهـام بـني إسرائيل لموسى بأنه آدر لمـا وجـدوه لا يسـتحم معهم، وجاء ذلـك في قـول اللـه: **{يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا}** [الأحزاب: 69].

هذه الفكرة القديمة التي تُمَارَسُ بالأساليب الحديثـة والخـبرات الفنيـة، ونظـرة واحـدة إلى صـور المقبـوض عليهم في قضايا إسلامية تؤكد لك هذه الحقيقة.

تصنع الصور بالأساليب الحديثـة، بحيث تظهـر: الزيـغ في النظـرات، والبلاهـة في الوجـوه؛ لإثبـات الانحـراف والتيه، والشـعاثة في الشـعر، والشراسـة في الملامح.. وخلفيـات مظلمـة سـوداء.. وصـفحات الجرائـد هي المستند والدليل..

كل هـذا ضـروري في مهمـة الإعلام الجـاهلي، وكلـه نـابع من النظريـة الأساسـية للإعلام الجـاهلي بصـورة محددة!

والحقيقة: أن النظرية الإعلامية بصورة محـددة.. هي

---

[173] (?) انظر ابن هشام (1 /314، 315).

السحر والكهانة.

وهذا هو إعلام الجن والشياطين ببعثة النبي.. يقول فيه أحد الشياطين: «أَلَمْ تَرَ الجِنَّ وَإِبْلاسَهَا، وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالقِلاصِ وَأَحْلاَسِهَا»..

ويقول شيطان آخر وذلك بعد أن صرخ صرخة لم أسمع[174] صارخًا قط أشد صوتًا منه: «يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله».. وهكذا يكون الأسلوب مؤثرًا.

أسلوب الجن والسحرة..

الصرخة المؤثرة والأخذ بالقلوب.

الصيغة الاستفزازية للعقل.. ماذا تعني الصرخة؟!

صورة امرأة سوداء مثيرة لشعرها[175]..

صوت.. صورة.. عبارة.. أسلوب.. عناصر إعلامية بحتة.

والتكرار أخطر عناصر الإعلام.

الخبر الصادق بجانب مائة كذبة.. نظرية الجن في تحقيق التصديق هي نفس نظرية الأنباء.. فيكذب الكاهن مائة كذبة[176].

وهذه هي عناصر الإعلام الشيطاني.

---

174 (?) القائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. رواه البخاري في المناقب، باب إسلام عمر (3866).

175 (?) صورة الجنية التي كانت مرتبطة بالصنم الذي سمع الصوت عنده.

176 (?) كما قال النبي تصعد الشياطين تسترق السمع فلتسمع الخبر فتلقيه إلى الكاهن فيكذب مائة عليه كذبة.

ولما كان الأمر متعلقًا بالتفاعل العقلي والنفسـي فلا بد أن يكون الإعلام: **{زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [الأنعام: 112].. عناصر إعلامية جاهلية بحتة.

زخرف القول: للإقناع بما لا حقيقـة لـه أو مضـمون.. إقناع بالظاهر والشكل والأسلوب، وهذا هـو الزخـرف.. أما غرورًا: فهو التغرير.

ولأن الإعلام الجـــاهلي أداة للتعامـــل مـــع الإنسان، فقد تطلب ذلك عدة خصائص:

- الشكل المنطقي.

- والصفة المبدئية، كما حاول أن يبـدو بهـا أبـو جهـل عندما قال في غزوة بدر: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يُعرَف فأحنه الغداة. فكان المستفتح[177].

- السمة الإنسانية، كما قال عقبـة بن أبي معيـط في الإسلام: «فَرَّقَ الناس، وخَرَّبَ الديار، وجعل الولد يقتـل والده»[178]..

وكما تحاول الجاهلية اليوم تجاوز حقيقة الدين بـزعم المفاهيم الإنسانية: الحرية، الإخاء، المساواة.

والإعلام الجـاهلي هـو وسـيلة الجاهليـة العقليـة والنفسية في الإنشاء والإبقاء على الكفر والفساد، وهـو سـاحر الحكم الجـاهلي.. المحقـق لمهمـة الرضـى والمتابعة بالكفر، وهو المقاوم للكراهيـة العارضـة لهـذا الكفر.

- ومن أجل ذلك لا بد من الاسـتيعاب الكامـل لـوقت

177 (?) أخرجه أحمد في مسنده (5/431).

178 (?) هي مجموعة آثار ومنها هذا الأثر ذكره ابن هشام في السيرة (1 / 314- 317).

الإنسان وعمـره، بحيث لا تفـوت لحظـة دون أن تكـون فتنة، كما قال سـبحانه: **{بَلْ مَكْـرُ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ}** [سبأ:33]**.**

- ولا بـد من التناسـب الـدقيق مـع العقليـة البشـرية كهدف للإعلام، ولعل مؤتمر الندوة الذي حـاول الاتفـاق على وضع وصف للقرآن دليل على هذا التناسب[179].

- ولا بـد من الأسـلوب المـؤثر السـهل العبـارة الـتي تخرج من هذا الفم ليتلقفهـا الجميـع فتصـبح على جميـع الألسنة.. والحقيقة أن عبد الله ابن سلول هو أستاذ هـذا التعبـير الإعلامي الجـاهلي.. فهـذه عبـارة من عباراتـه: «سمِّن كلبك يأكلك».

ولكن كل عناصر الإعلام الجاهلي لا تـرى مجتمعـة إلا في مواجهة أي حدث إسـلامي؛ عندئـذ تكـون **العناصر المباشرة المواجهة للحدث**:

- التهوين من شأن الحدث: مثلما قـال أبـو لهب تعقيبًـا على إعلان الرسـالة من النـبي صـلى الله عليه وسلم من فوق جبل مكـة: «تبًّا لـك طـول يومـك ألهـذا جمعتنا»[180]، وكأن حدث الرسالة لن يبقَ إلا يوم إعلانه «طـول يومـك»، الأمـر الـذي لا يسـتحق الجمـع «ألهـذا جمعتنا؟!».

- قطـع الصـلة بين أفـراد الحـدث والواقـع الاجتمـاعي الـذي تم فيـه الحـدث، حـتى لا يكـون لهـؤلاء الأفـراد امتـداد اجتمـاعي.. مثلمـا قـال عـروة بن

---

179 (?) نقول: كاهن.. ليس بزمزمـة الكهـان، نقـول: مجنـون.. ليس بخنـق الجنـون، نقـول: شـاعر.. ليس بالشـعر ولا سـجعه، ثم اتفقـوا على أن يقولوا: سحر، قائلين: إنه يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجته.. (يراجع البخاري ومسلم).

180 (?) وعزاه السيوطي في الدر (6 / 701) إلى البخاري ومسلم.

مسـعود لرسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم: جئت بأوشاب الناس لتفض بيضتك. حتى أفهمه ابن أخيه أنهم ليسوا أوشابًا وكان يلبس المغفر على وجهه فضـرب يـد عمه، وقال له: اخفض يدك عن لحية رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم فقال عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك[181].

- **إعلان أنهم ليسوا على شيء..** مثلما استشار المشركون اليهود في أمر الدعوة، فـأخبرهم اليهـود أن المشـركين أفضـل من المسـلمين، وكمـا قـال القـرآن على لسان اليهود في المشركين: **{هَؤُلَاءِ أَهْـدَى مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا سَبِيلًا}** [النساء: 51].

- **المزايدة على أصـحاب الـدعوة..** مثلمـا زايـد المشــركون على المسـلمين بسـقاية الـبيت وعمـارة المســجد الحــرام، فـأنزل اللــه عــز وجـل: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِـرِ}** [التوبـة: 19].. والصـورة الحديثـة للمزايدة على أصـحاب أي حـدث إسـلامي تافهـة نفس التفاهة القديمة.

فعندما حدثت محاولة الفنية العسـكرية، تم تخصـيص أماكن خاصة للسيدات في المواصلات، وزيـادة الـبرامج الدينيـة في وسـائل الإعلام، والاهتمـام بـأقرب مناسـبة دينية والمبالغة في الاحتفال بها.

ولكي تمنع الجاهلية أثر أي حدث إسـلامي فإنهـا بعـد أن تمارس رد الفعل الإعلامي المذكور سابقًا بعناصره.. فإنها تبحث عن أخطاء يغلب الظن فيها أنها لا تنال تأييد الناس..

---

181 (?) سبق تخريجه.

مثل قول اليهود للرسول: ما بالـك تنهى عن الفسـاد في الأرض وتقطـع الشـجر؟! فـرد القـرآن عليهم مبينًـا تفسير الموقف[182].

ومثلما أخطـأ بعض من أرسـلهم الرسـول صـلى الله عليه وسـلم في سـرية فقتلـوا بعض المشـركين في الشهر الحرام، فأرسلوا إلى رسول الله وقالوا: ما بالك تقتل في الشهر الحرام؟![183].

فـرد عليهم مقـررًا في البدايـة خطـأ هـذا الفعـل: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّـهْرِ الحَـرَامِ قِتَـالٍ فِيـهِ قُـلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ}** [البقرة: 217].

هـذا أسـاس الحكم.. لكن الـذين قَتلـوا لم يكونـوا يعلمون أنهم دخلوا في الأشهر الحرم، فهذا اعتـذار عن الفعل.

وإذا لم يكن هـذا السـؤال مجـرد تشـنيع بالمسـلمين وكان حرصًا على حرمات الله.. فهناك حرمة أكبر وقعوا هم فيها وهم يعلمونها: **{وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْـدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ}** [البقرة:217].

ولا زالت الجاهلية تتابع الحركة الإسـلامية وتبحث عن خطأ لها!

الإعلام الجـاهلي ليس إعلام خـبري أو تـأثير نظـري.. ولكنه مصدر توجيه أمني لكـل العملاء بكـل مسـتوياتهم السياسية لاتخاذ قرارات ضد الدعوة..

---

182 (?) يراجع البعد القدري للنظرية السياسية.

183 (?) عزاهـا السـيوطي في الـدر (1/448) إلى ابن جريـر وابن المنـذر، وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في السنن عن جندب بن عبد الله.

ومن الأمثلـــة الدالـــة علي ذلـــك قـــرار القبض علي الأســـتاذ محمـــد قطب عـــام 1965 الـــذي جـــاء بعـــد أن نشرت مجلة أمريكية مقالا عنه.

ويعلـــق محمـــد قطب على تلـــك الأحـــداث بقولـــه: إن محنـــة الإخـــوان عـــام 1965م لم تكن من صـــنع محلي مصـــري، فـــأول إشـــارة لبدايـــة هـــذه المحنـــة، كـــانت مـــا نشـــرته إحـــدى المجلات الأمريكيـــة عن كتـــاب «جاهليـــة القـــرن العشـــرين» لمحمـــد قطب، وكتـــاب «معـــالم في الطريـــق» لسـيد قطب، وقـــد كتبت المجلـــة الأمريكيـــة تحـــــذر من الكتـــــابين، ومن الكـــــاتبين ووصـــــفتهما بالتعصب[184].

ومن أمثلة ذلك أيضًـا حملـة الاعتقـالات الـتي حـدثت في عين شـــمس وإمبابة بعـــد أن كتبت إحـــدى المجلات الأجنبية عن الشباب المسلم في هذه المناطق[185].

ومن أمثلـــة ذلـــك كـــذلك، مـــا جـــاء في مقدمـــة كتـــاب موسى صبري: السادات بين الأسطورة والحقيقة، حيث قـــال في المقدمـــة: انتبهـــوا فلان وفلان -يقصـــد بعض عناصر الدعوة- خارج السجون.

السيطرة النفسية:

وهي أهم أهداف الإعلام الجاهلي، وأقوى دلائلها:

---

184 (?) جـابر رزق، مـذابح الإخـوان في سـجون ناصـر، ط2، القـاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ص26.

185 (?) في أواخر عام 1992 قامت مراسلة لوكالة الأنبـاء العالميـة رويـتر بجولـة في حي إمبابـة، مرتديـة زيًّا فاضـحًا مسـتفزًّا، وقـامت بمحـاورة بعض أئمة المساجد، وتم نشر التحقيق الملفق بعنوان مثـير: جمهوريـة إمبابة المتطرفـة، وعلى إثـر نشـر هـذا التحقيـق قـامت جحافـل الأمن المركـزي والقـوات الخاصـة بمداهمـة الحي، واحتلال أسـطح المنـازل، وفرض حظر التجول لفترة أسبوع كامل، تم فيه اعتقال عـدة آلاف من الشباب المسلم.

- فـرض هيمنـة المصـطلحات الغربيـة في مجال الممارسة السياسية..

ومن أبرز هذه المصطلحات: فـرض مصـطلح العـالم العـربي بـديلا عن الأمـة الإسـلامية، ثم فـرض مصـطلح الشرق الأوسط بديلا عن العالم العربي.

وأخطـر مـا في هـذه المصـطلحات سـرعة انتشـارها بمجـرد صـدورها عن الغـرب، وتحولهـا إلى لغـة دارجـة على الألسنة.

- **منهج صياغة النشرات الإخبارية**، والـتي تعـد أخطر وسـيلة للسـيطرة النفسـية على العقـل المسـلم المتابع للأحداث عبر العـالم، وتزييـف الحقـائق والنتـائج بصورة مضطردة، لفرض حالة الإحبـاط، وقتـل أي أمـل في إحراز أي نجاح لأي طرف مسلم.

إن هدف الوسائل الإعلامية الجاهلية هو صنع الصورة المناسبة للأهداف الجاهلية في الواقع..

والتـأثير في العقـل البشـري بصـورة سـلبية على الـدعوة.. في الـوقت الـذي لا تملـك فيـه الـدعوة أي وسائل إعلامية لمواجهة هذا الخطر.

ولكن الـدعوة تملـك -بـإذن اللـه- سـبق الإعلام إلى الواقع والعقل البشري..

ليشـاهد النـاس الإنسـان المسـلم صـاحب الخلـق والمروءة، ويتعامل الناس مع الداعية الصادق الأمين..

فيحبط هذا السلوك كل محاولات التشويه.

هم يملكـون الوسـائل الـتي يحـاولون بهـا التـأثير في

الواقـع، ولكننـا نملـك واقـع النـاس أنفسـهم بالعلاقـات والمعايشة المنضبطة بالأحكام الشرعية.

- **صنع قيمة سياسية للإعلام الجاهلي** لتكـون مصدرا للفاعليـة الإعلاميـة في الواقـع، ومثـال ذلـك مـا عرف باسم فضيحة (ووتر جيت).

2- المحور الاقتصادي:

إن الجاهلية تنشـئ بسياسـتها وضـعًا اقتصـاديًّا عالميًّا ينقسم الناس فيه إلى قسمين: الفقر المنسي، والغـنى المطغي.

وهمـا الحالتـان اللتـان تبتعـدان بالإنسـان عن إدراك الحق، فالذي ينسى نفسه فقـيرًا يصـعب عليـه التفكـير الصحيح في الواقع، والذي لا يرى نفسه إلا غنيًّا وطاغيًـا يصعب عليه إدراك الواقع؛ ولذلك حذر رسـول اللـه من هاتين الحالتين في إطار التحذير من الأسباب التي تبتعد بالإنســان عن الحــق والصــواب، فيقــول: «**بــادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظـرون إلا فقـرا منسيًا، أو غــنى مطغيًــا، أو مرضًــا مفسدًا، أو هرمًــا مفندًا، أو موتًـا مجهزًا، أو الـدجال فشرٌّ غـائب ينتظر، أو السـاعة فالسـاعة أدهى وأمـر**»[186]؛ من أجـل ذلـك أنشـأت الجاهليـة المصـطلحات المشـار إليها: مصطلح الدول النامية، ومصطلح الدول الصـناعية الكـبرى؛ حيث يعيش الفقـر المنسـي والغـنى المطغي تحت هذين المصطلحين.

إن خطة الإفقار الجاهليـة للعامـة تهـدف إلى إحـداث معانـاة معيشـية شـديدة تسـتهلك كـل الطاقـة الذهنيـة

---

[186] (?) أورده السيوطي في الدر (6 /ـ 184) وعـزاه إلى ابن المبـارك في الزهد والحاكم وابن مردويه عن أبي هريرة.

والنفسية للإنسان، وكذلك تهـدف إلى تفـتيت العلاقـات الاجتماعية كنتيجة للحرص والأنانية، ومحاولة كل إنسان تحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح الشخصية.

وحـتى لا يصـل الفقـراء إلى نقطـة الانفجـار والثـورة فإن السينما والتلفزيون يبتعدان به عن هذه النقطة من خلال موضـوعات الأفلام والمسلسـلات اليوميـة الـتي تضـرب على الجـرح والـوتر الحسـاس فتثـير الشـجون تارة، وتارة أخرى تعالج الموضوعات التي تعـرض حيـاة الترف والأرسـتقراطية الـتي تحـدث نوعًـا من السـعادة وتعويض الحرمان..

وتـارة ثالثـة تعـرض الموضـوعات الـتي ينتصـر فيهـا الفقـير على الغـني من خلال قصـص الحب.. والمبـادئ والأخلاق والشهامة.

المهم أن يبقى الفقر بلا ثورة..

أما خطة الغـنى المطغي: فمنهـا خطـة الـترف الـذي يفقـد أصـحابه الإحسـاس الحقيقي بغـيرهم من البشـر، وعندئذ لن تكـون دعـوة؛ لأن الـدعوة إحسـاس بـالغير.. وكذلك ستجعلهم يفتقدون حاسة البحث عن الحـق؛ لأن الـترف أنشـأ عنـدهم معيـارًا للحـق وهـو المـال فقـط، وعندئـذ لن تكـون دعـوة؛ لأن الـدعوة بحث عن الحـق، وتجعلهم يفتقدون إدراك الواقع وعندئذ لن تكون دعـوة؛ لأن الدعوة هي ثمة الإدراك الصحيح للواقع.

إن المترفين هم أصـحاب المـال عنـدهم تفسـير كـل شيء، وعلة كل تصرف، وحكمة كل حدث، وأساس كل واقع ومنتهى كل غاية وقيمة كل إنسان.. إن الترف هــو عدو الدعوة الأول.

ومن هنا فإن أهم مقتضيات الصراع بين الجاهلية والإسلام هو تخليص الإنسان من حالة الفقر المنسي، وواقع الغيبوبة النفسية والذهنية التي يعيشها البشر، كما يوجب على الدعاة أن يعملوا بكل أساليبهم على إعادة العقل البشري من غيبوبة الفقر المنسي وإفاقته بكل المؤثرات النفسية والعصبية، وبكل الأساليب الكلامية والعملية، كما يجب أن يقف الدعاة أمام الترف الجاهلي وعناصر الثراء للاستعلاء بالإيمان وتجرده وكرامة الزهد وكرامة الزاهدين ومكانة العلماء؛ ليفيق المترفون عندما يشعرون أن هناك قيمة أعلى من المال وحقيقة أكبر منه هي قيمة الإيمان والإسلام.

سياسة المواجهة للنتيجتين:

إن التصور السياسي الصحيح يفرض على الدعاة في مواجهة الفقر المنسي والغنى المطغي أن نتعامل مع الإنسان بأقصى إمكانيات التأثير:

الإثارة الفكرية والعاطفية.. بأعمق أبعادها.

المواقف التي تبكيه.. الخواطر التي تخيفه.. العبارات التي تطمْئِنه.

يجب أن يهتز الإنسان أمام الدعاة هزًّا عنيفًا.. ويسكن سكونًا تامًّا، يجب أن يستحوذ الدعاة على كيان الإنسان كله، يجب أن يقف الإنسان أمام الدعاة كأن على رأسه الطير..

لا حراك.. سوى حركة النَّفَس ونبض العروق..

يجب أن يتكلم الدعاة بكل الألسنة وبكل الأساليب؛ لينسى الإنسان أمام الدعاة حياته الدنيا، سواءً كان فقيرًا أو غنيًّا..

ليبحثوا عن كل القصص الصحيحة.. كل الطرائف.. كل المواقف.. السيرة.. حياة الصحابة.. الرقـائق.. الكرامـات والمعجـزات.. الجن والملائكـة.. القـبر وعذابـه.. الجنـة والنار.. كـل الإسـلام.. كـل حقـائق الإسـلام.. كـل قضـايا الإسلام.

لإنقاذ الفقراء الناسين والأغنياء الطاغين.

وفي النهايـة.. يجب أن يـترفع الـدعاة عن مصـالح الدنيا؛ حتى لا يتهمهم الفقراء ولا يستهين بهم الأغنياء.

عندئـذ يمكن الإطاحـة بالاتجـاه الاقتصـادي المنشـئ لمصطلحات: العالم الثالث.. الدول الصـناعية الكـبرى.. الدول النامية.. المعونة الاقتصادية...

هذا المصطلح الذي يعـني أن كيانـات الـدول الناميـة عالـة على الأرض، لا تتجـاوز أهـدافها وآمالهـا هـدف العيش وأمـل الاسـتقرار بالحصـول على هـذه المعونـة، فتفرض الدول العظمى إرادتها على الدول الأخرى.

إن حالـة الغـنى المطغي خطـر شـديد على الـدعوة، وفي مواجهة هذا الخطـر يكـون اسـتعلاء الإيمـان: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا يُنْفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ لِيَصُـدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَـرُونَ}** [الأنفال: 36]، وهذه الآية تعالج أثر الغني الجاهلي من عدة نواحٍ:

أن هـذه الأمـوال سـتكون حسـرة ولن تنصـرهم في الدنيا، بل سيغلبون وفي الآخرة سيدخلون بها جهنم.

فلا تغرنـا هـذه الأمـوال: **{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**

وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 197] **{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}** [غافر: 4] **{وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}** [الزخرف: 35]

المال والسلطة:

وتصور العلاقة بين المال والسلطة له عدة أبعاد تثبتها نصوص شرعية قاطعة، منها قول الله سبحانه وتعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ}** [غافر: 23، 24]. حيث جمع الله سبحانه وتعالى في الآية بين فرعون وهامان ومعهما قارون، علمًا بأنَّ قارون كان من قوم موسى، كما قال سبحانه: **{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}** [القصص: 76].

ولكن باعتبار أنَّ رسالة موسى كانت إلى السلطة القائمة المتسلطة على بني إسرائيل.. دخل قارون -رغم أنه من بني إسرائيل- كعنصر أساسي من عناصر هذه السلطة، ولعلّ هذا المعنى هو الذي يتضمنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ذكر الصلاة يومًا فقال:

«مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلاَ بُرْهَان، وَلاَ نَجَاة وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَونَ، وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»[187].

---

[187] (?) رواه أحمد (2/169، 6576)، قال الهيثمي (1/292) رجاله ثقات،

يقـول الإمـام ابن القيم: «وإنمـا خص هـؤلاء الأربعة بالذكر لأنهم من رؤوس الكفرة، وفيه نكتة بديعـة، وهـو أن تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف».

كما أن ذكر هـؤلاء الرؤوس في سياق الانشغال عن الصلاة يدل على أنَّ السلطة والحكم هما مضمون النص، باعتبار أن إقامة الصلاة في التصور الإسلامي هي غاية التمكين، وإقامة السلطة: **{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}** [الحج:41].

ولعلنا نلاحظ تقديم قارون على فرعون في ترتيب رؤوس الكفر! وهذا الترتيب يرجع إلى غلبة أثر المال على الحكم، باعتبار أن المال أساس السلطة، وبه يمكن شراء السلطة، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: **«بَادِرُوا بِالمَوْتِ سِتًّا: إِمْرَةَ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةَ الشُّرَطِ، وَبَيْعَ الحكْمِ، وَاسْتِخْفَافًا بِالدَّمِ، وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ، وَنَشْوًا يَتَّخِذُونَ القُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَهُ يُغَنِّيهِمْ، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُمْ فِقْهًا»**[188].

وحتى في فتنة الدجال التي تمثل الصيغة النهائية للسلطة الجاهلية، نجد أن المال من أخطر عناصرها، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «**يَأْتِي عَلَى القَوْمِ**

وصححه الألباني في مشكاة المصابيح.

188 (?) أورده الهيثمي (مجمع الزوائد 5/245) وصحح الألباني نحوه في الصحيحة (979).

فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ»[189].

ومن هنا كان المترفون هم أعداء كل الرسل: **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ}** [سبأ: 34-37].

ومن هذا السياق القرآني يتبين لنا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ»[190].**

قال: «**المال.. نِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ**»؛ ولم يقل: «نعم المسلم صاحب المال» حتى لا تكون دعوة إلى الغنى.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نِعْمَ الْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**» يوافق قوله سبحانه

---

[189] (?) أخرجه مسلم (4/2250، 2937).
[190] (?) أخرجه البخارى (2/532، 1396)، ومسلم (2/728، 1052).

وتعالى: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}** [سبأ: 37].

3- المحور القانوني:

ورغم أن الجاهلية فوضى وخروج عن الأصول، إلا أن الشيطان يـرغب في امتصـاص الطبيعـة البشـرية الـتي ارتكزت فيها بصورة دفينـة الرغبـة في النظـام والحيـاة في ظله..

ولعل المثال التاريخي لهذا الوضـع هـو اعـتراض قـوم شـعيب على الرسـالة باعتبارهـا نظـام يحـرمهم من التصرف في أموالهم وفق أهوائهم: **{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ}** [هود: 87].

وبالرغم من هذه الفوضى فـإن الجاهليـة تختلـق لهـا نظامًـا، لفـرض الشـيطنة، والتحايـل على الفطـرة الإنسـانية في حب الخضـوع للنظـام، مثلمـا اختلقت الجاهلية نظامًا دقيقًا للتصرف في كل شئون الحياة:

في الزمن: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ}** [التوبة:36].

وعندما فُتِحت مكة قال رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو**

القَعْـدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، والمُحَـرَّمُ، وَرَجَبُ شَـهْرُ مُضَـرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَـادَى وَشَـعْبَانَ، وَقَـالَ: أَيُّ شَـهْرٍ هَـذَا؟ قُلْنَـا: اللـهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ قَـالَ: فَسَـكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَـمِّيهِ بِغَيْـرِ اسْـمِهِ قَالَ: أَلَيْسَ الشَّهْرَ الحَرَامَ؟ قُلْنَا: بَلَى..».

أي أن الزمان اسـتعاد انضـباطه بعـودة الحج في ذي الحجة إلى يـوم القيامـة، إبطـالا لمـا كـانت العـرب في جاهليتهـا عليـه من تـأخير الحج المنسـي الـذي كـانوا ينسـئونه عامـا بعـد عـام، فـأنزل اللـه تعـالى: **{إِنَّمَـا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَـرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا}** [التوبة:37].

في الأنعام: **{مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَـرُونَ عَلَى اللـهِ الكَـذِبَ وَأَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْقِلُـونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْـبُنَا مَـا وَجَـدْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}** [المائـدة:103-104].

وفي ظل هذا «النظام» المختلق تفعـل الجاهليـة مـا تريد..

ولكن العلة في انتشار النظام الجـاهلي لا تقـف عنـد حد امتصـاص الإحسـاس الطـبيعي المركـوز في النفس البشـرية بالرغبـة في النظـام؛ ولكنهـا في الأسـاس.. أسلوب يضمن به الطاغوت أن تكـون لـه قيـادة العـالم وزعامته، ليسيطر من خلال هذه القيادة وتلـك الزعامـة على جميع الناس.

لذلك انطلقت الجاهلية في المرحلة القائمة لمقاومة

الدعوة في اتجاهات متعـددة، وكـانت الحـرب العالميـة هي رصيد السياسة الجاهلية عالميًّا..

ففي الحرب العالمية كانت خسائر وهزائم ومكاسـب وانتصارات امتد أثرها في كل أنحـاء العـالم، وكـان لابـد أن يكون لذلك نتائج ومعطيـات في الواقـع، وتحت زعم تجنب هذه الويلات نشأت الأمم المتحدة، ولكن السـبب الحقيقي هــو فــرض ســيطرة الــدول المنتصــرة على العالم.

ولكي يبقى لهذه الهيئة فاعليتها..

يجب أن تبقى آثار الحرب الثانيـة الـتي تمثـل رصـيدًا لقانون النظام العالمي، ولا بـد أن تبقى الحـرب نفسـها في إحســاس العــالم باعتبارهــا المصــدر الفعلي لقــوة القانون، وأول عناصر هذا الاتجاه هو إحيـاء الحـرب في عقل العالم وضميره من خلال الأفلام والقصص.

ولعل أبرز الأمثلـة على ذلـك، إبقـاؤهم على مسـاعد هتلــر ســجينًا في ســجن تشــرف عليــه دول الحــرب المنتصرة، وتتناوب حراسته دولة كل ثلاثة أشهر باعتبـار هـذا السـجين أطـول أثـر واقعي للحـرب، حـتى عـرف باسم «أغلى سجين في العالم».

وكنتيجــة طبيعيــة مرتبطــة بنتــائج الحــرب أنشــأت الجاهليـة هيئـة قانونيـة تحقـق نظامًـا يخضـع لـه جميـع النـاس.. وهي مجلس الأمن (الهيئـة الجاهليـة القانونيـة العالمية).

وفي إطـار دسـتور الأمم المتحـدة الـذي أعطى حـق العضوية الدائمة في مجلس أمنها لدول محدودة، وحــق الفيتو مع حق العضوية الدائم.

من خلال هـذا الوضـع تمت الاتفاقيـات والمعاهـدات، وكان أخطرها التي تم الاتفاق فيها على وضع العالم تحت وصاية ومسئولية الدول الكافرة المسماة بالعظمى.

إن نظام الأمم المتحدة يضمن خضوع العـالم لنظـام جاهلي تتضاءل بجانبه أي محاولة لتحكيم شرع اللـه في حياة الناس.

وتضـع صـاحب أي محاولـة للخـروج عن هـذا النظـام فجأة في موقف عدائي أمام كل العالم، وبـذلك تجسـد الأمم المتحـدة -بصـورة قانونيـة- حقيقـة يـؤمن بهـا المسـلمون، وهي أن الـدعوة إلى دين اللـه هي لحظـة العداء الكامل مع كل العالم.

من هنا لا بد أن نعلم أن الأمم المتحدة هيئة قائمة على العداء للإسـلام، والـدليل على ذلـك هـو تاريخهـا كلـه منـذ نشـأتها، وسـيطرة أمريكـا -المعاديـة للإسـلام- على هـذه الهيئة.

كما يجب أن نعلم أنه تحت مظلـة هـذه الهيئـة يمكن فعل أي شيء..

ففي ظــل الاســتكبار العــالمي الكــافر، وفي ظــل التفسـير والتـبرير القـانوني للاسـتكبار العـالمي الكـافر «الأمم المتحدة»..

أدوات الإقنـــاع والتـــبرير ثابتـــة بكـــل مصـــطلحاتها السياسية:

الاعتــداء.. ســيكون ضــربة اســتباقية واحتياطًا أمنيًّا وقوميًّا.

والعقوبات.. ستكون إجماعًا وقرارات دولية.

والاحتلال.. سيكون قوات أممية تستمد سلطتها من الهيئة الدولية، «وليس استعمار دولة لدولة».

ويكفي لشن حرب على أي هدف أن يكون «خطرًا على الاستقرار العالمي» و«خارجًا على الإجماع الدولي».

أما الأعضاء والتصويت.. فيكون بغالبية الدول العميلة المضمونة.

هذا على المستوى الدولي، أما علي المستوى الإقليمي.. فكل حاكم عميل له مهمة أساسية واحدة: «ضرب الإسلام»..

أما الاقتصاد والمشروعات القومية فلا تخرج عن مجال المعونات والعمولات، وطبقة رجال الأعمال العملاء، ومنع وصول المال إلى أي يد إسلامية.

وأما السياسة فهي تنفيذ التعليمات في كل المواقف والمشكلات والمنظمات والمؤتمرات.

والمسار السياسي هو نفس المسار الصليبي الأمريكي..

مرورا بالمنظمات والهيئات التابعة..

وانتهاء بالقوات الدولية، التي تقتل ليتوزع دم القتيل على دول العالم!

وأغلب المشكلات التي طرحت في الأمم المتحدة لها علاقة مباشرة بالإسلام والدول الإسلامية، والمثال التاريخي على ذلك: فلسطين - البوسنة والهرسك.

ومع ذلك تجد من يقارن بين الأمم المتحدة وحلف

الفضـول الـذي قـال فيـه رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم: «**لقد حضـرت في دار ابن جـدعان حلفًـا لــو دعيت إليــه الآن لأجبت»**[191]، وخطـــأ هـــذه المقارنـــة جـــاء من عـــدم إدراك الفـــرق الأخلاقي بين «كفار» حلف الفضول «وكفار» الأمم المتحدة.

---

191 (?) أخبار مكة للأزرقي (3/261).

4 – المحور النفسي:

ومن أخطر المحاور النفسية للسياسة الجاهلية: هو امتصاص رد الفعل الإسلامي إذا فعلت الجاهلية ما يقتضي هذا الرد بحيث يتبدد رد الفعل الإسلامي بصورة نفسية شعورية غير عملية أو خطيرة ولعل أخطر الأمثلة على ذلك:

حادث سقوط الخلافة الإسلامية: ذلك الحدث الذي كان قتلًا لكل مسلمي العالم فكانت قصائد شوقي التي نعى فيها سقوط الخلافة بمثابة المستأجرة في المأتم التي تسعد أهل الميت فيخفف هذا من وطأة الفجيعة.

وكان منصب «الخلافة» الصوفية الذي تهتم به الدولة وتعطيه الصفة الرسمية حيث يخرج «الخليفة» في المولد النبوي الشريف يركب «الفرس» وحوله «السيوف الخشب» و«الرايات» فيخرج الخليفة على جموع الشعب «المتصوفة» وهم يشعرون أن هذا «الخليفة» خير من ملء الأرض من «الخليفة» الذي ذهب..

ولكن هذه الخدعة الكبرى لا تستسيغها العقول الواعية فليكن لهؤلاء ما يخمد مشاعرهم ويهدئ من روعهم.. فكان السماح بالجمعيات الدينية التي وضعت على رأس برنامجها «إعادة الخلافة» والتي أشعرت أصحاب هذه العقول الواعية أن الخلافة ستعود ولكنها مسألة وقت.

ولكي ندرك خطورة المحور النفسي للسياسة الجاهلية نضرب له أمثلة من المواقف السياسية، منها:

- زيارة السادات للقدس صباح العيد: توقع صاحب

القرار السياسي أن يكون لخبر الزيارة رد فعـل شـعبي غاضـــب، فتم الإعلان عن الزيـــارة في الجرائـــد الـــتي وزعت صباح يوم العيد، حيث كان الناس في حالة فــرح واسترخاء، لتحجيم رد الفعل إلى أدنى مستوياته.

- وهنـاك قاعـدة نفسـية سياسـية عامـة، وهي إخضـاع الشـعوب للقـوى المتسـلطة من خلال التقاليـد الرمزيـة والواقعية، فعنـدما خضـعت مصـر للقـوى الشـرقية، كـان اللونان الأحمر والأصفر -وهما مكونا العلم السوفيتي- هما اللونان الشائعان المنتشران في أرجاء مصر، ولما انتقلت الهيمنة إلى الجانب الغربي -أمريكا وحلفائها- كان اللونـان الشـائعان في مصـر همـا اللـون الأحمـر والأزرق.. وهمـا مكونا العلم الأمريكي.

كما انتشر العلم الأمريكي بكـل أحجامـه ومعـه رمـز المعونة الأمريكية لتحقيق الربط بين الخضوع السياسي والذل الاقتصادي.

وهنـاك خطـة شـاملة للتطـبيع النفسـي مـع العـدو الأمريكي، على كل المستويات العمْرية، تشمل التقاليد والثقافــة والموضــات والهوايــات الشــبابية، وطريقــة التفكــير.. من خلال الأفلام، والمسلســلات، والــبرامج، والمهرجانات.. وحتى لعب الأطفال وأفلام الكارتون!

والمحـور النفسـي يتـداخل مـع كـل محـاور النظريـة السياسية السابق ذكرها.

5 – المحور العسكري:

ويتمثــل في التطــور التكنولــوجي في التســليح، إلى الحد المحقق ليأس جميع البشــر في مواكبتــه، ليســتمر التطور حتى يصـل إلى مـا يطلـق عليـه حـرب الفضـاء،

لتصبح الأرض موقعًا تم الانتهاء منه! ثم حرب الكــواكب التي لا تمثل فيهـا الأرض إلا كوكبًـا صـغيرًا!! فتتضـاعف مشاعر السيطرة من جانب الـدول العظمى.. ومشـاعر اليأس من الجانب الآخر.

تمامًـا مثلمـا سيشـعر يـأجوج ومـأجوج بغلبهم لأهـل الأرض فقـالوا: الآن نحـارب أهـل السـماء؛ فوجهـوا لهـا حرابهم فنزلت مخضبة بالدماء فتنةً لهم![192]

ولكن..

رغم كـل هـذه المحـاور، وتحت كـل هـذه التراكمـات الصـخرية والطبقـات الجاهليـة، يكـون غليـان الإيمـان، ويفتح الفهم الإسلامي الصحيح فوهة البركان..

مهما كان الوضع.. ومهما كانت المؤامرة..

ســيفتت البركـــان الإســـلامي تراكمـــات السياســـة الجاهلية العالمية.

الله أكبر..

قالهـا رسـول اللــه صـلى الله عليه وسـلم في أشـد لحظات المشقة..

في الخندق.. عندما اجتمعت الأحزاب فكان المســلم لا يـأمن أن يخـرج ليقضـي حاجتـه.. ووقـف حجـر أمـام الصحابة وعجزوا عن تحطيمه، ولكن رسول اللـه صـلى الله عليه وسلم يأخذ معولًا ويضرب الحجر ضربة؛ ويرى في غبار حجر الخندق ثلاث صور:

الصورة الأولى: مدائن الفرس.

---

[192] (?) روى ابن ماجه هذا الحديث في الفتن، بـاب: فتنـة الـدجال وخـروج عيسى (2 / 364 / ح 4080).

الصورة الثانية: قصور الروم.

الصورة الثالثة: اليمن[193].

اختلطت الدول العظمى بغبار حجر الخندق..!

وتبدد الوهم -وهم الدول العظمى- التي تحولت إلى مجرد صور من الغبار..!

وفتحت الفرس، وفتحت الروم، وفتحت اليمن.

إن عالمية الدعوة عقيدة رسخها رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثلما صنع نوح سفينة فوق الرمال، وسخر القوم من رسول الله كما سخروا من نوح، وقالوا: لا يأمن أحدنا أن يقضي حاجته ويعدنا بقصور الروم ومدائن كسرى![194]

ولم يدر الساخرون أن الطوفان آت ليعم الأرض.. عقيدة سهلة نرى الأرض فيها تنزوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيرى فتوحاته المقدرة له من عند الله.. قدر سهل: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [يس:82-83].

---

[193] (?) رواه البيهقي في الدلائل (3 /ـ 421) عن البراء بن عازب، والنسائي في الكبرى.

[194] (?) انظر ما سبق.

الباب الرابع

الموقف السياسي العام
للصراع بين الجاهلية والإسلام

التص

الفصل الأول

عناصر تقييم الموقف العام

أولا: من الجانب الجاهلي:

1- طبيعة السياسة الجاهلية (الاستراتيجية - العمق - الشمول):

لا يمكن الوصول إلى الموقف السياسي العام بين الجاهلية والإسلام إلا من خلال إدراك طبيعة السياسة الجاهلية وإمكانياتها ومستوى تخطيطها.

والسياسة الجاهلية تقوم على البحوث العميقة التفصيلية المتكاملة، وتدرس الإنسان حتى الأعماق، والمجتمعات حتى القاع، وتاريخ الشعوب وطبائعها وتقاليدها.

كما أنها تتابع الواقع.. وتتصل بكل ما يمت إلى الدراسة بصلة، من خلال أجهزة مخابرات وسفارات وعملاء.

وعندما تتناول موضوعًا فإنها تتناوله بصورة شاملة..

فإذا كان الإنسان هو الموضوع السياسي فإنها تتابعه منذ ولادته حتى موته سلوكا وعقلا وعاطفة!

وإذا كان الموضوع هو الدين فإنها تتابعه من أصوله حتى فروعه: عقيدة وشريعة وفكرًا ومنهجًا، وذلك كله من خلال كل المؤسسات والهيئات العلمية، ومراكز البحوث المنتشرة في كل أنحاء العالم.

حتى يمكن القول بأن الدعوة الإسلامية أمام العداء السياسي العالمي بكل إمكانياته وطاقاته وخبراته..

2- الوحدة السياسية العالمية الجاهلية (العداء السياسي للإسلام):

لعل ظاهرة الوحدة الجاهلية على المستوى العـالمي هي الظـاهرة الـتي اسـتحوذت على الشـعور الإسـلامي المتجـه دائمًـا نحـو بـاطن الجاهليـة لكشـف أسـرارها المجهولـة، ومعرفـة عللهـا الخفيـة، كمحاولـة لتفسـير ظواهرها، ولذلك تعاملت الجاهلية مع الشعور الإسلامي تعاملًا خطيرًا، فقدَّمت بنفسها تفسـيرًا لهـذه الظـاهرة، وجوابًـا لهـذه التسـاؤلات.. من الـذي يحكم العـالم.. وكيف؟

ومكمن الخُبث في هذه التفسيرات[195] أنهـا وضـعت أمـام الشـعور الإسـلامي أهـدافًا وهميـة، وغرسـت الإحساس بالسـيطرة الجاهليـة على العـالم، وذلـك في غيبة الإحساس بإحاطة اللـه لجميـع خلقـه, فـانطبع في الأذهـان أنـه ليس هنـاك شـيء في حياتنـا إلا وقـد أخـذ موضـعه ضـمن المخطـط المرسـوم للعـالم، ونشـأ إحسـاس بالتضـاؤل أمـام الجاهليـة.. كمخطـط لا يمكن مواجهته بل ولا معرفة غموضه.

وفي إطـار هـذه الوحـدة تكـون ممارسـة التعـاون الدولي ضد الدعوة بدون حساسية التدخل في الشـئون الداخليـة للـدول، لأن هـذه الوحـدة حقيقـة سياسـية أساسية يخضع لها كل من يدور في فلكهـا، حيث يكـون للعملاء السريين الدور الأساسي في تحقيـق مقتضـيات هذه الوحدة في تلك الممارسة.

ويأتي النموذج المصري كمثال تاريخي لهـذه

---

195 (?) وأشهر هذه التفسيرات هي فكرة الحكومة العالميـة السـرية الـتي يحكم بها اليهود العالم عن طريق المجامع الماسونية المنتشرة في كل أنحائه.

الوحدة:

فرغم أن التناقض بين الملكية وثورة يوليو كان مثـالًا لأقصى درجات تناقض النظم السياسية، إلا أن خطة القضاء على الإسلام تبقى ثابتة بكل مراحلها، لتبقى الحرب على الإسلام هي الخط الثابت الوحيد لكل المراحل السياسية بكل تناقضاتها..

فاروق -الملكي- يقتل حسن البنا ويسجن الإخوان..

ويتمم عبد الناصر –الجمهوري- الخطة، ويسجن ويقتل من بقي من الإخوان..

ولا يعني القول باجتماع العالم الجاهلي على الإسلام ألا يكون هناك صراع بين أطراف هذا العالم المعادي، وإلغاء تقسيمه إلى شرق وغرب، أو شيوعي ورأسمالي..

ولكن يعني أن يكون للعداء مع الإسلام الاعتبار الأساسي في أي صراع، وعندئذ يكون الصراع بين الأطراف الجاهلية المعادية للإسلام هو صراعًا بين من اجتمع على القصعة لينال منها أكثر من غيره.

والوحدة المصدرية لإدارة الصراع الجاهلي مع الإسلام ليست مجرد ظاهرة إدارية فقط، ولكنها ظاهرة تجتمع فيها التقاليد الجاهلية كطبيعة سلوكية في أي موقف عدائي للإسلام، بدافع من الحمية الجاهلية التي تجرف أصحابها في تيارات هذا العداء.

3- الأساس الديني للصراع (المحورية الصليبية الأمريكية الغربية):

لعل حقيقة الأساس الديني للصراع هي أهم حقائق

السياسة الجاهلية، حيث كـان الـذين لا يفهمـون طبيعـة الصراع ينكرونه دائما، حتى ظلت أجيال متواليـة تفسـر الصراع بغير هذه الحقيقة، وظلوا يفسرون الحرب على الإسلام بتفسيرات ومصطلحات كاذبة: مناطق النفـوذ.. السيطرة على منابع النفط والمـواد الخـام.. الإجـراءات الوقائية.. الأحزمة الأمنية.. إلى آخره.

وجاءت الحملة الصليبية القائمة لتكشف هـذا الكـذب المستمر، وأن الإسلام في حسـابات هـذا الصـراع كـان دائما هو المحور.. والقضية.. والهدف..

وإعلان الحـــرب العالميـــة على الإســـلام في هـــذا التـوقيت -بالمضـمون الـديني- لـه معـنى مهم، وهـو أن هـذه الحـرب سـتكون بدايـة الظـواهر المرتبطـة بـآخر الزمـــان حـــتى حـــدوث الملحمـــة الـــتي ســـتكون بين المسلمين والصليبيين كما أخبر رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم، لتكـون هـذه الظـواهر أبعـادًا نهائيـة لهـذه الحرب التي ستُقَسِّم العالم على المدى الزمـني البعيـد إلى فسطاطين: فسطاط كفر لا إيمان فيـه، وفسـطاط إيمان لا كفر فيه، وهي من أهم علامات الساعة.

ومن هنـا كـانت الحـرب على الثـوابت في العقيـدة، والمقدسات في الدين..

وهـذا الفهم هـو الـذي يقينـا شـرَّ الغفلـة عن الخطـة الحقيقية لأعدائنا، حيث يمارسون معنا محـاولات رهيبـة لتوزيع مناطق الصراع، وتمييع قضـايا الصـراع، وتـرتيب الأدوار..

فالحرب الآن موزعة على كل أنحاء العالم الإسلامي؛ ليتـوزع الإحسـاس بالـدم المسـلم على كـل المواقـع، فيغيب الشعور بالمذبحة العالمية..!

والحـرب الآن.. ليسـت تحت أسـوار القـدس ولكنهـا ذهبت إلى كل موقع من مواقع العـالم الإسـلامي يمكن أن يأتي منه من يريد الوقوف تحت أسوار القدس.

والحرب الآن لا تقتـصر على الجانب الفكري أو السياسي أو العسكري، بل تتعداها إلى كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ليعيش المسلمون معاناة البحث عن لقمة العيش.. تحت خط الفقر المنسي، ومعاناة الضياع الاجتماعي.. الذي يؤدي إلى الانحطاط والدعارة والمخدرات، ومعاناة الأمراض والأوبئة.. التي تقتل الأمل في حياة طبيعية..

إن فرض الفقر على العالم المنتسـب للإسـلام يـأتي بهدف المساومة تحت خـط الفقـر الشـديد على الـدين والعقيـدة، ليكـون هـذا الفقـر مقدمـةً اجتماعيـةً على المدى الزمني البعيد لظهور الدجال، الذي سيأتي ومعـه جبال الخبز لمن يؤمن به، حتى أصبح الرافض لبيع دينـه بعرضٍ من الدنيا علامةً من علامات الاسـتفهام، وأصـبح هـذا الـرفض عنـد باعـة الـدين والقيم موقفًـا لا تفسـير له..!

نقول ذلك ليفهم الناس أن هذه الحرب ليسـت حـدثًا عارضًا؛ بل هي خطة قديمة موضوعة بإحكام، وضع فيها الشيطان كل إمكاناته وسلطاته ليقطع الوجود التاريخي للأمة المسلمة.

الحـرب الآن.. ليس فيهـا عملاء معـدودون، بـل هي حرب العملاء.. العملاء أغنياؤها وقادتها..

الحـرب الآن.. قتلاهـا كثـيرون ولكن ليس بالسـيف القـديم، بـل بـاليورانيوم المنضـب، وأغذيـة السـرطان والأوبئة، ونشر الفقر والمجون.

وقـد لا يتصـور البعض أن الحـرب الصـليبية العالميـة على الإسلام قائمةٌ فعلًا، بتأثير الصورة النمطية القديمة للحروب الصليبية الـتي تسـيطر على مخيلتهم، فمـا من سفنٍ رُسِمَ على أشرعتها الصـليب الضـخم ترسـو على الشواطئ الإسلامية، وليس هناك فرسان للمعبـد فـوق الخيول..

لأن الحــرب الآن يُــرَاعَى فيهــا البُعــدُ عن اســتفزاز الشـعور الإسـلامي قـدر المسـتطاع، لأنهم يعلمـون مـا تعنيه يقظة هذا الشعور..!

ومن أجـل ذلـك تتـوزع الأدوار.. ليحقـق دورٌ الهـدف، ويخفف آخرُ من أثره، ويشتِّتُ ثالثٌ مَنْ يستيقظ..!

على مسـتوى الدولـة الواحـدة الداخلـة في الحـرب: يكــون هنــاك الحــزب المحــارب، والحــزب المعــارض للحرب..

وعلى مستوى الأحلاف: تكون هناك الدولة المحاربة، والدولة المعارضة للحـرب.. ليصـبح الرجـاء في القتلـة، والأمل في الأعداء.

وإذا كانت الحـرب بهـذه القسـوة، وتلـك الشراسـة.. فإن المواجهة لابد أن تتناسب معها..

فإذا كان الإنسان هو موضوع هذا الصـراع.. فلابـد أن يكون هو محور المواجهة..

وإخـراج الإنسـان من نطاقهـا لا يعـني إلا التـأثير فيـه بصورة لا تقل عن قوة الغريزة الـتي تصـرخ في كيانـه، ليعيش قضيته أقـوى ممـا يعيش غريزتـه، وينتمي بقـوة إلى كيــان يحميــه، برغبــة لا تقــل عن رغبــة الاحتضــان الغريزية في الإنسان.

بحيث لا يبقى في هذا الكيان أي بقيـة لغـير القضـية، ويعيش حياة الزهد في الدنيا والشـهوات، بحيث لا تـؤثر فيه أي محاولة إغراء..

وهذا الحصار الذي تعيشه الدعوة من عصابة الـدجال يفرض على أصحابها أن يتعـاملوا مـع المرحلـة بمنطـق «الشهادة في سبيل الله»، فنحن الآن في زمن مواجهة الجاهلية بكل إمكانياتها..

1- الخطة الجاهلية الثابتة والواقع المتغير:

اتفقنا أن هناك خطـة جاهليـة للقضـاء على الإسـلام، وقد يكون العنوان المطروح لهذه الخطـة هـو «الحـرب الصليبية»..

لكن الجاهلية تضع لهذه الخطة عناوين أخرى لتضليل العقـــل المســـلم عن العنـــوان الصـــحيح المعـــبر عن مضمونها الحقيقي..

ولكل مرحلة من مراحل الخطة عنوانها الخاص بها..

ابتـداء من اعتبـار الخلافـة الإسـلامية خلافـة عرقيــة تركية تتطلب الــدعوة إلى القوميــة العربيــة كبـــديل لســـقوط المشـــروع الإســـلامي تحت عنـــوان المرحلة القومية..

وتم ذلـك من خلال إضـعاف الخلافـة قبـل إسـقاطها، وزرع الشقاق بين الأتراك والعرب!

ثم حركـــات التحـــرر الهادفة إلى التحـــول في السيطرة على العالم الإسلامي عن الأسلوب العسكري إلى الأســـلوب الاجتمـــاعي الهـــادف إلى القضـــاء على

التقاليـد الاجتماعيـة الإسـلامية تحت عنـوان التحـرر الوطني..

وتم ذلك من خلال إحياء الاتجاه الإقليمي الذي تمثـل في «معاهدة كامب ديفيد»!

ثم الانتقـال من القوميـة والوطنيـة إلى مرحلـة العولمة تحت عنـوان الإصـلاح السياسـي وحقـوق الإنسـان، ليتحـول العـالم العـربي إلى مجـرد خريطـة جغرافيـة ليس لهـا أي مضـمون اجتمـاعي أو حضاري أو سياسي..!

وتم ذلـك على **المسـتوى السياسي** من خلال مخطط التفتيت «العراق والسودان»..

وعلى **المسـتوى الاجتمـاعي** من خلال سياسـات الإفقار والقتل بالنفايات والسرطان..

وعلى **المسـتوى الأخلاقي** من خلال إشـاعة الفاحشة ونشر الدعارة والشذوذ والمخدرات..

وعلى **المسـتوى الفكـري** من خلال نشـر الإلحـاد والعلمانية وإحياء المذاهب والفرق البائدة..

وعلى **المستوى التعليمي** من خلال إفراغ التعليم من أي مضـمون ديـني إيجـابي، وتحويـل منـاهج التعليم إلى ألغـاز ومتاهـات لإشـغال الأسـر واسـتنزافها نفسـيا وماديًا ومعنويًا..

كانت هذه هي الخطة الموضوعة..

ولكن الأعـداء فوجئـوا بقـدر اللـه الغـالب على أمـره سـبحانه وتعـالى، بـالقوة الإسـلامية الناشـئة بقـدر اللـه

وحده.

استراتيجية التفتيت:

في مقابل وحدة الموقف الجاهلي، يأتي تعامل الجاهلية مع بقايا «العالم الإسلامي» باستراتيجية التفتيت.. من خلال خطة ثابتة العناصر..

- **تحديد موضوع الصراع:** ديني، مذهبي، عرقي، طبقي، سياسي..

- **صناعة رموز الصراع:** إبراز رموز مصطنعة، وإدخالها بؤرة الصراع لتمثل أطرافه، ليمكن من خلالهم التحكم فيه.. ولضمان الإبقاء على الصراع دون أن يتغلب طرف على طرف قبل القضاء علي قوة الطرفين معًا.. وحتى لا تنقلب مهمة تقوية أطراف الصراع على السلطة العميلة القائمة على تنفيذ خطة التفتيت..

- **إشعال الصراع:** الدخول في مرحلة الصراع الدموي بعد الاحتقان الناشئ عن الصراع التاريخي والفكري المتصاعد..

- **ديمومة الصراع:** وذلك بطريقة الفعل ورد الفعل، وتغذية أطراف الصراع بصورة تجعله مستمرا حتى تقضي أطراف الصراع على بعضها البعض.

- **إظهار الهدف النهائي للصراع:** وذلك بطرح فكرة التقسيم كبديل عن الصراع الدموي الذي ستكون له نتائجه المهولة بمصطلح سياسي مقبول «الفيدرالية»، وزعم أن مرحلة الفيدرالية ستبقي على الوطن الواحد من خلال سلطة حاكمة واحدة تخضع لها زعامات التقسيم، ثم تقوية هذه الزعامات أمام

السلطة الواحدة حتى تصبح كل زعامة سلطة حاكمة وتكتمل الخطة..

- وعند إنشاء دولة جديدة تكون أولى الخطوات هي محاولة الإثبات التاريخي لهذه الدولة.. ثم إثبات الظروف التاريخية التي قضي فيها على وجودها التاريخي، وغالبا ما تثير هذه الظروف تعاطف الرأي العام الدولي مع الدولة الناشئة!

والمثال التاريخي لذلك هو إنشاء دولة إسرائيل التي قامت في جو مشحون بالتعاطف معها، من خلال إثارة موضوع المحرقة، التي بلغت حد دفع تعويضات من ألمانيا لإسرائيل عنها، وما زالت تدفع حتى الآن..

وعلى التوازي كان الإعلام الناصري يشعل التعاطف العالمي مع إسرائيل ببيانات إلقائها في البحر، والتي كان عبد الناصر يُردِّدُها دائمًا..

- اختيار أنسب الكيانات في منطقة التفتيت للبدء في تنفيذ المخطط لضمان نجاحه، وللتأثير في الكيانات الأخرى، وتهيئتها لتنفيذ المخطط فيها، ومن هنا كان اختيار العراق في المنطقة العربية.

العراق نموذج للتفتيت:

واختيار العراق للبدء في تنفيذ المخطط له عدة أسباب:

- تعدد موضوعات التفتيت العرقية والمذهبية والسياسية، وكان أخطرها الموضوع المذهبي: «السني/الشيعي» والموضوع العرقي: «العربي/التركماني/ الكردي» والسياسي: «العراقي/الإيراني».

- أن موضوعات الصراع في العراق لها أبعاد تاريخيـة وعالمية توفر أسبابًا كافية لتصـعيد الصـراع وبقائـه دون أي إمكانية لإيقافه.

ودائمًا تكون الأسباب التي يطرحهـا أصـحاب الخطـة كاذبة..

فليس صـحيحًا أن طمـع أمريكـا والغـرب في بـترول العراق هو الـدافع لاحتلالـه وتفتيتـه.. وليس صـحيحا أن صدام كان يمثل خطرًا على إسرائيل..

والمكر هنا أن يطـرح أصـحاب الخطـة عـدة أسـباب، ليكـذبوا أحـدها بأنفسـهم بعـد ذلـك، لحسـاب الإقنـاع بالسبب الآخر.. الكاذب أيضًا!

فَطُرِحَ موضوع أسـلحة الـدمار الشـامل، ليتم تكذيبـه في صورة ديمقراطية مبهرة، وليقولوا أن التقارير الـتي تم تسـريبها تثبت أن هنـاك مصـالح شخصـية لعناصـر الإدارة الأمريكيـة الـتي أعلنت الحـرب، ليكتفي العقـل المسلم عند هذه الحقيقة التي سربتها التقارير، دون أن يصـل إلى الحقيقـة الـتي كـانت وراء الحـرب.. وهي مخطـط التفـتيت الهـادف إلى تـدمير الأمـة الإسـلامية، بإنشاء الصـراع السـني-الشـيعي الـذي بـدأ في العـراق ليمتد إلى كل أنحاء الأمة..

5- تفسير السعار الجاهلي على حرب الإسلام

في بدايـة الحـرب على الإسـلام كـانت الأهـداف الحقيقية للحرب غير معلنـة، حـتى لا يسـتيقظ الشـعور الإسلامي للـدفاع عن دينهم، حـتى اطمـأن الأعـداء إلى تمكنهم من الواقع، واسـتحالة يقظـة هـذا الشـعور -في

ظنهم-..

ولكن الجاهلية تضطر إلى إعلان هـدف الحـرب على الإسلام.. مما تسبب في يقظة الشعور الإسلامي..

وهذا هو الخطر الأكبر على الجاهلية، فكـان لابـد من محاربة هذا الشعور..

وكـان السـعار الـذي تحـاول بـه الجاهليـة محاصـرة الشعور الإسلامي قبل أن يمتد في واقع الأمة..

وكانت عناصر خطة قتـل الشـعور الإسـلامي هي:

- اقتلاع اليقين من قلب الأمة بالحق الذي هي عليه..

فكريًّا: بمحاربة عقيـدة أهـل السـنة ونشـر المـذاهب المعادية (العلمانية) وإثارة الشبهات حول الإسلام.

وتاريخيًّا: بتشـويه التـاريخ الإسـلامي، حـتى لا يكـون التاريخ منبعًا للشعور بالحق والذات الإسلامية.

- قطع الامتـداد البشـري بمواجهـة الأجيـال الجديـدة (الطفل).

- تدمير القـوة البشـرية للأمة، حـتى لا يُسـتفاد منها، إذا كان هناك بقية من الشعور (الأمراض والمخدرات).

- تحجيم الأمة بشريًّا (قوانين الزواج والنسل).

- تبديد طاقة الأمة في السعي لتحصيل لقمة العيش (الفقر والتجويع).

وكل هذه الأهداف تتم في أسرع وقت ممكن، وهـذا هو الأمر الذي يفسر هذا السعار.

وهذه المراحل داخلة ضمن خطة واحدة لها إدارة واحدة بكل مراحلها.

هذه الخطة فوق مستوى الحكومات المتغيرة والرئاسات المتعاقبة لا تتأثر بأي صراع على السلطة في الدولة الواحدة أو أي صراع إقليمي في المنطقة الواحدة.

الخطة بكل خيوطها السياسية تمسك بها الإدارة الواحدة.

ولهذه الإدارة رجالها ومؤسساتها ولها قراراتها الفوقية التي لا تتأثر بأي ظرف سياسي..

وقد تطرح تفسيرات متعددة لهذه الظاهرة ولكنها في النهاية حقيقة سياسية جاهلية مشاهدة ويقينية..

ليصبح العنوان الثابت للخطة هو الحرب الصليبية.

ثانيًا: من الجانب الإسلامي:

1- أصالة الامتداد وصدق الموقف:

يتمثل الموقف الإسلامي في مواجهة خصائص الموقف السياسي الجاهلي في جانبين أساسيين: أصالة الامتداد (السلفية) وصدق الموقف (الشهادة)..

وهما الجانبان اللذان تركز الجاهلية الحرب عليهما، باعتبارهما الجوهر الحقيقي للموقف الإسلامي الذي يتهددها..

فبدأت بمحاولة اختزال «السلفية» في التراث النظري للأمة..

وانتهت بتعميق الهوة بين أصحاب الاتجاهات النظرية وأصحاب الاتجاهات الحركية، لتأكيد حالة الانفصام..

ومن هنا كان من الضروري التأكيد على حقيقة الوحدة بين النظرية والعمل عند سلف الأمة..

ولعل قول الله عز وجل: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}** [العنكبوت:69] هو الأساس في هذه الحقيقة، حيث قال سفيان بن عيينة لابن المبارك: «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: **{لَنَهْدِيَنَّهُمْ}**».

وقد وردت الآية التي تأمر بطلب العلم والتفقه في الدين في سياق عملي جهادي خالص، وبنفس الصيغة التي ورد بها الأمر بالخروج للقتال:

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:122-123].

يقول الأستاذ سيد رحمه الله: «ولقد وردت روايات متعددة في تفسير هذه الآية، وتحديد الفرقة التي تتفقه في الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم.. والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة. ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة -على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون- لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة؛ وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقهته

من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة..

والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه -وله أصل من تأويل ابن عباس رضي الله عنهما، ومن تفسير الحسن البصري، واختيار ابن جرير، وقول لابن كثير- أن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به؛ فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه؛ بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه؛ وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به. أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا؛ ولا فقهوا فقههم؛ ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه»[196].

والحقيقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مهبط الوحي ومصدر العلم، فإذا نفر للجهاد –كما حدث في تبوك- تعيَّن الخروج على جميع المؤمنين **{مَا كَانَ لِأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ}** ويكون خروج من خرج معه نفرة للجهاد وللتفقه في الدين معًا، فإذا لم يخرج صلى الله عليه وسلم وانتدب الناس للجهاد، يكون بقاء من بقي معه للتفقه في الدين.

ومن النماذج التاريخية الجامعة لهذين الجانبين: الإمام ابن تيمية رحمه الله، الذي يقول تفسيرًا لقوله تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ**

[196] (?) في ظلال القرآن في تفسير قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً...}.**

وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَـأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِـالغَيْبِ إِنَّ اللـهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد:25]:

«فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين: **بكتاب يهدي وسيف ينصر**، وكفى بربك هاديا ونصيرا»[197].

ومن منطلق الجمع بين العلم والعمل تكون الشهادة..

ومنطق الشهادة هو أهم ضرورات المرحلة، فنحن الآن في زمن الإيمان القوي والصدق اللازم لمواجهة هذه الجاهلية: **{مِنَ المُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}** [الأحزاب: 23].

{وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْـرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 21].

وعلم الحديث الذي يعد الركيزة الأساسية لأصالة الامتداد -السلفية-هو أبرز مثال تحقق فيه الارتباط بين العلم والعمل بصورة منهجية وواقعية..

فمن الناحية المنهجية.. اعتمد علماء الجرح والتعديل على الأصلين اللذين تقوم بهما الجماعة -وهما الجهاد والبيعة- في ترتيب طبقات المحدثين.. فرتبوهم كما يلي:

- البدريون المهاجرون الذين حضروا بيعة الرضوان.
- البدريون الأنصار الذين حضروا بيعة الرضوان.
- البدريون المهاجرون.

---

[197] (?) يراجع: مجموع فتاوى ابن تيمية، فصل أمراض القلوب.

- البدريون الأنصار.
- المهاجرون ممن حضروا بيعة الرضوان.
- الأنصار ممن حضروا بيعة الرضوان.

وأما من الناحية الواقعية فقد اصطبغ علم الحديث من حيث التصنيف بصبغة الأمة الحياتية، باعتبار أن الحديث هو الأحكام التطبيقية والواقعية في حياة الأمة، وباعتبار أن الجهاد هو قضية الأمة الأساسية، فأصبحت هذه القضية صبغة ظاهرة في كُتب الحديث.

وقد جاء الدليل على العلاقة بين علم الحديث والجهاد من خلال منهج التصنيف عند البخاري، حيث كان كتاب (الغزوات) من أكبر كتب الصحيح..

ثم تبعه (كتاب الجهاد) ثم كتاب (فرض الخمس) وهو مرتبط بالجهاد بكل أبوابه، يضاف إلى ذلك كتاب (صلاة الخوف) الذي تناقش كل أحاديثه أحكام الصلاة في القتال بكل أبوابه، ولهذا الأمر دلالته الواضحة والمثبتة لعلاقة علم الحديث بقضايا الجماعة ومقتضيات قيامها وامتدادها.

وقد ملأت مصنفات علم الحديث العبارات الدالة على هذه الحقيقة، فيقول سفيان الثوري: «الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل؟!»..

ولذلك أيضًا يقول ابن الصلاح في (المقدمة): «وعلم الحديث من أفضل العلوم الفاضلة، وأنفع الفنون النافعة، يحبه ذكور الرجال وفحولتهم».

عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح لكم، فمن أدرك ذلك منكم**

فليتــق اللــه، وليــأمر بــالمعروف، ولينــه عن المنكر، ومن كذب علي متعمدا فليتبـوأ مقعـده من النار»[198].

فيتبين لنا من قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم كيف يكون حفظ الأمة بعد النصر والفتح بثلاثة أشياء:

- حفظ الفرد المسلم بتقوى الله..

- وحفـظ واقـع الأمـة الممكنـة بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر..

- وحفـظ الـوحي بعلم الحـديث الـذي يمنـع الكـذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فجمع رسول الله صلى الله عليه وسـلم كـل أسـباب الحفظ بصورة إعجازية في حديث واحد.

ودل ذلك على أن لعلم الحديث فاعلية الوحي، بحيث يمكن أن نقـول: إن أول حقـائق القـوة المقـدرة لهـذه الأمة.. كامنة في هذا العلم.

2- فهم حقيقة الصراع وأبعاده:

إن فهم حقيقة الصراع وتحديد أبعاده تنطلق من فهم حقيقة ربانية الـدعوة، فهـذه الـدعوة دعـوة ربانيـة، لهـا أقدارها الربانية، وحساباتها المنهجية..

وأهم هذه الحسابات: حسابات الزمن والدماء..

ففي حسـاب الـزمن قـد نتسـاءل عن هـذا الـوقت الطويل الذي تمضيه الأمة تحت الاستضعاف، لماذا؟!

---

198 (?) أخرجــه أحمــد (1/436،ــ 4156)، والترمــذي (4/524،ــ 2257)، وصححه الألباني.

والإجابة هي: أننا ندفع ثمن فترة طويلة من الانحراف عن الحق، فيجب تقبل النتائج المهولة للصراع بنفس راضية..

والحسابات الصحيحة للدعوة هي التي تعين على تقبل هذه النتائج..

وتحقيق التوافق بين الإحساس والتصور البشريين وحقيقة الأمر عند الله تعالج الخلل في ضبط هذه الحسابات.

والمثل التاريخي الضابط لحسابات الزمن والدماء في واقع الدعوة هو تاريخ بني إسرائيل..

لقد بقي بنو إسرائيل في عبودية فرعون أربعمائة عام، وبعد هذا الزمن الطويل يصنع الله موسى ويرسله ليخلص بني إسرائيل، ولا ندرك حكمة طول الوقت إلا بعد خلاصهم من العبودية، لنكتشف أنها كانت باستحقاق عادل على أعمالهم، فبمجرد خروجهم من العبودية.. عبدوا العجل، ولم تكد أقدامهم تجف من ماء البحر الذي فلقه الله كل فرق كالطود العظيم..!

ومن نفس الموقف تتبين حسابات الدماء.. فقد كان جزاء بني إسرائيل عندما عبدوا العجل أن قُتِلَ أكثرهم، وهذا حساب الدماء في ميزان الله في مقابل أفعال البشر..

والإحساس بالزمن دائر في التصور الإسلامي بين حقيقة الزمن كما هي عند الله، وتعامل الناس مع هذا الزمن كما هو عندهم، بدليل قول الله عز وجل: **{وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}**.

فالأمر الذي ينزل إلينا من عند الله ليتحقق بزماننا

في ساعات أو دقائق أو ثـوان.. يـنزل في يـوم مقـداره ألف سنة: **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْـدَارُهُ أَلْـفَ سَـنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}**..

ومن هذا المعنى ينشأ مقتضى مهم وهو الصبر، وهــو الحقيقـة الثانيـة الـتي تضـمنتها الآيـة: **{سَـأَلَ سَـائِلٌ بِعَـذَابٍ وَاقِـعٍ * لِلْكَـافِرينَ لَيْسَ لَـهُ دَافِـعٌ * مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْـرُجُ الْمَلَائِكَـةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْـهِ فِي يَـوْمٍ كَـانَ مِقْـدَارُهُ خَمْسِـينَ أَلْـفَ سَـنَةٍ(4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}**..

فالدعوة أمر ضخم، هي من عند الله، وزمنها يــتراوح ما بين الزمن عند اللـه والـزمن عنـد النـاس، وتلـك هي الطبيعة التي تقتضي الصبر..

ورغم ضخامة الصبر الناشئ عن هذا المفهوم إلا أنــه لا يخرج عن طاقة البشر، ولا يتوقف معنى الآيـة عنـده؛ بل يمتد إلى حسـاب الـزمن في واقـع الـدعوة.. لنتعلم كيف نتصوره وكيف نحقق مقتضى هذا التصور..

والأساس الصحيح لحسـاب الـزمن هـو قـدر اللـه في واقع الدعوة، فالوحي الذي كان يـنزل على رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم كـان يـنزل عليـه من فـوق سـبع سماوات، ولكنه كان يسبق الحجر الذي ألقاه اليهـود من فوق سطح أحد البيوت ليسقط على رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم!

ولذلك عندما شكا الصـحابة إلى رسـول اللـه مـرارة الاستضعاف، وآلام التعذيب: «أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا.. ألاَ تَـدْعُو لَنا؟».

قَـالَ لهم: «**قَـدْ كَـانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَـذُ الرَّجُـلُ فَيُحْفَرُ لَـهُ في الأرضِ فَيُجْعَـلُ فِيهَـا، ثُمَّ يُـؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِـهِ فَيُجْعَـلُ نصـفَينِ، وَيُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَديدِ مَا دُونَ لَحْمِه وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذلِـكَ عَنْ دِينِـهِ، وَاللـهِ لَيُتِمَّنَّ اللـه هَـذَا الأَمْــر حَتَّى يَســيرَ الــرَّاكِبُ مِنْ صَــنْعَاءَ إِلَى حَضْــرَموتَ.. لاَ يَخَــافُ إلاَّ اللــهَ والــذِّئب عَلَى غَنَمِهِ، ولكنكم تَسْتَعجِلُونَ**»[199].

ومن هنـا كـان التعبـير القـرآني بـ «الفتح القـريب» و«النصر القـريب» هـو معالجـة نفسـية وشـعورية تعين على تحقيق الصبر، ومقتضياته في واقع الجهاد أو واقـع الاستضعاف..

ويدخل في إطار هذه المعالجة الشعورية اعتبـار كـل مرحلة جديدة تدخل فيها الدعوة هي اقتراب من حقيقة النصر، ولعل تسمية صـلح الحديبيـة بـالفتح كـان ضـمن هذه المعالجة.

كمـا تـأتي المعالجـة الشـعورية من ممارسـة واجب الدعوة، حيث يتحقق الاطمئنـان بـأداء الـواجب، ليعـالج الوقت الطويل بمقتضى الرؤية البشرية المجردة..

وفي حساب الزمن لسنا مطـالبين إلا باسـتغلال كـل لحظة من حياتنا في السعي من أجل دين اللـه، كمـا أن حساب الزمن لن يكـون صـحيحًا.. إلا إذا أدركنـا الدلالـة المنهجية لكل مرحلة زمنية تمر بها الدعوة؛ فقـد تكـون الحجة هي الدلالة المنهجية للـزمن، مثلمـا كـان الـزمن في دعوة نـوح عليه الصـلاة والسـلام، حيث أثبت النص القــرآني دقــة الحســاب.. رغم بلوغــه ألــف ســنة إلا خمسين عاما!

---

[199] (?) أخرجه البخاري (3/1322، 3416).

وفي حين يـذكر النص تقـديرا دقيقـا فيقـول: **{أَلْفَ سَنَةٍ}** ثم يستثني: **{إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}** نجد أن لحظة خاطفة قد حـالت بين نـوح وابنـه حـتى جعلتـه لا يسـتطيع إكمـال حديثـه معه..!

هذه اللحظة تختلـف طبيعتهـا عن طبيعـة التسـعمائة وخمسـين عامًـا، ولهـا دلالـة أخـرى غـير دلالـة الصـبر والحجـة، وهي دلالـة الحسـم والانتقـام، وهكـذا يرتبـط الـزمن بدلالتـه، فلم يكن من الممكن أن يمتـد زمن الألف سنة إلا خمسـين عامًا حـتى يسـتطيع أن يتحـدث نوح إلى ابنه حديثه الأخير.. فـإذا بالحـديث الأخـير لا تتم عبارتـه.. **{وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}**!

إن معيار الدقة الربانية في حساب الزمن لهـا صـورة عجيبة، وهى صورة إسرافيل وقد تناول البوق في فمـه، رافعًا رأسه إلى العرش، في انتظار لحظة النفخ..!

تلـك هي اللحظـة عنـد اللـه لا تتـأخر، حـتى يأخـذ إسرافيل البوق أو حتى يرفعه إذا كان قد أخذه، أو يرفع رأسه لينظر الأمر إذا كان قـد رفعـه، تلـك هي اللحظـة عند الله..

واللـه تبـارك وتعـالى يجعـل من الـزمن حجـة على خلقه، وينشئ للزمن دلالة، ويجعله برهانًـا على صـبره، ومن أمثلة اعتبار الزمن حجة: هـو بقـاء نـوح في قومـه ألف سنة إلا خمسين عامًا، مع علم اللـه بأنـه لن يـؤمن معـه إلا قليـل.. هم أصـحاب السـفينة، فلم يكن الـزمن في قدر الله سبب هداية بقدر دلالته على صبره سبحانه وتعالى، وحجته على خلقـه، وتلـك هي القيمـة الحقيقيـة للزمن في قصة نوح.

أما قصة فتيـة الكهـف فكـان دورهم في الـدعوة هـو إعلان العقيدة فيما بينهم، وتقييم الواقع وفقًا لعقيدتهم: **{ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَـةً وَهَيِّئْ لَنَـا مِنْ أَمْرِنَـا رَشَدًا}** [الكهف:10] ويدخل الفتية الكهف ليناموا ثلاثمائـة سنين، ويزدادوا تسعا، هذا الزمن الطويـل الـذي قضـاه الفتية نومًا عميقًـا كـان في حسـاب الـدعوة دورًا كـاملًا أتموا به واجبهم أمام الله عز وجل، حيث أعلنوا العقيدة وشهدوا على واقعهم، فكانت الخطوة الثالثة التجرد لله في تحديد المنهج: **{فَأْوُوا إِلَى الْكَهْـفِ يَنْشُـرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِـــــهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْــــرِكُمْ مِرفَقًا}** [الكهف: 16] وبذلك اكتملت العناصـر الأساسـية الثلاث في الدعوة:

- إعلان العقيدة.
- تقييم الواقع.
- التجرد في تحديد المنهج.

ولم نكتشف أن الدور البشري قـد تم بتلـك العناصـر إلا بعـد أن يقـوم الفتيـة من نـومهم، ليجـدوا الغايـة من المنهج المطلوب قد تحققت..

فإذا بـزمن النـوم تنشـأ لـه دلالـة الفصـل بين الـدور البشري المطلوب، والآثار القدرية المترتبة عليه، ليكون هذا الزمن خطًا فاصلًا في عقـول أصـحاب الـدعوة بين الـواجب التكليفي على الـدعاة، والقـدر المكتـوب عنـد الله!

وقد ساهم الزمن في اسـتقرار حقيقـة أن وعـد اللـه حق، مما يعني أن إقامة الحجة واستقرار المفـاهيم لهـا حاجتها الزمنية التي لا تتحقق إلا بها..

إن معيار الحساب الحسي للزمن في أصـغر وحداتـه

هو طرفة العين..

وعندما قال سليمان: **{قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}** [النمل:38-40]..

اختار الذي يستطيع أن يأتي به قبل أن يرتد إليه طرفه لكونه الأسرع، لنتعلم كيف يكون حساب الزمن في واقع الدعوة.

ومن هنا كان من أعظم الآيات التي أعطاها الله لسليمان: الريح التي تحمله إلى المكان الذي يحتاج شهرا للوصول إليه.. في نفس الوقت.

3- وحدة الموقف الإسلامي:

من أهم ضرورات الموقف السياسي: أن يتعاون المسلمون في إدارة الحرب ليكون لهم منطلق واحد، تجتمع فيه كل الطاقات الفكرية، وكل الخبرات العملية، وكل إمكانات المتابعة الواقعية.

ويحقق وحدة الموقف الإسلامي عدة مبادئ، أهمها:

- لا صراع مع مسلم.
- اعتبار الدخول تحت الغاية النهائية.
- التفريق بين العلاقة السياسية والعلاقة الحركية.
- التوازن في تقييم صواب وخطأ الاتجاهات الإسلامية المختلفة.
- الارتكاز على الحسم الواقعي لقضايا الاختلاف

الفكري.

****

الفصل الثاني

نموذج للصراع السياسي بين الإسلام والجاهلية

(مصر: 1965 م - 1981 م)

التفسير التاريخي للحركة الإسلامية

مقدمة منهجية:

قبل طرح نموذج الصـراع «مصـر 1965-ـ 1981».. نجيب على تساؤل قـد يتبـادر إلى الـذهن: لمـاذا مصـر، ولماذا هذه الفترة؟

وللإجابة على هذا التساؤل عدة جوانب:

الأول: أن الحركـة الإسـلامية في العصـر الحـديث بدأت من مصر، لذا يلزم دراسـتها من خلال بـدايتها في مصر.

الثـاني: أن الحركـة الإسـلامية في مصـر اكتسـبت صفة القوة السياسـية خلال هـذه الفـترة حـتى نهايتهـا، مما يجعل لأحداث هذه الفترة وهذا الواقع فرصة قيمـة لدراسة دقيقة، يتم من خلالها تحليل هذه الأحداث الـتي انتقلت بالحركة لهذه المرحلة، وحققت لها صـفة القـوة السياسية.

الثالث: أن وصول الحركـة الإسـلامية في مصـر إلى هذه المرحلة كان تحت وطأة أكبر ضغط جاهلي، وذلـك لأن النظـرة الجاهليـة العالميـة لمكانـة مصـر على أنهـا مفتاح المنطقة العربيـة جعلهـا تلقي بكـل ثقلهـا الأمـني والإعلامي والسياســي والعســكري لمحاربــة الحركــة الإسلامية في مصر..

مما جعل مفاتيح الحركة في مصر نتائج معيارية للعلاقة بين الإسلام والجاهلية في أي موقع من العالم!

الرابع: أن الذين يعيشون التجربة أو يشاركون فيها، هم الذين يقدمونها، ولا يقدمها عنهم غيرهم.. ولا يجوز لهم أن يتجاوزوا حدود تجربتهم..

لأن الكتابة عن تجارب الآخرين تسهم في إحداث طمس وإهدار للتجربة في كل موقع من مواقعها، وكل فترة من فتراتها، هذه قاعدة سياسية مهمة..

وهذه الجوانب هي بمثابة المقدمة للإجابة الأساسية عن التساؤل:

«لماذا مصر؟.. ولماذا هذه الفترة؟».

إن تجربة الحركة الإسلامية في مصر تجربة منهجية كاملة، حتى وإن سبقها -من حيث النتائج العملية والسياسية- تجارب إسلامية أخرى في مواقع أخرى قد تكون أقرب إلى بلوغ غايتها..

وذلك لأن الحركة الإسلامية في مصر منذ بداية الإخوان المسلمون والعمل الفدائي في القناة وحرب اليهود حتى المنصة.. تقدم أساسيات منهجية إسلامية كحقائق مطلقة، يمكن تجريدها من ظروفها وملابساتها الخاصة لتحقق وعيا سياسيا على مستوى الحركة الإسلامية العالمية في كل مواقعها.

ويحسن أن نذكر ابتداء هذه الأساسيات بترتيبها الصحيح الذي يمثل في أي تجربة خطًّا صحيحا لتطور العلاقة بين الفكر والحركة هي:

الأساسية العقدية، الشرعية، الحركية، القدرية،

السياسية، بأبعادها التي طرحناها في هذا الكتاب.

ولكن الأمانة تقتضي القول بأن ظهور هذه الأساسيات في الواقع لم يكن بهذا الترتيب الصحيح..

حيث برزت دعوة الإخوان من خلال: الأساسية الحركية.. فقدمت نموذجًا لا مثيل له في البناء التنظيمي للجماعة، ونماذج لا يعلى عليها في أساليب الحركة، وهي التي أظهرت على خط القناة منهجا حركيا تاريخيا.. في حرب الإنجليز، وقدرات تكتيكية عسكرية هائلة في حرب اليهود عام 1948..

ولم يكن الواقع يسمح بخلاف عقيدي حول العدو، حيث أن كفر الإنجليز واليهود كان أساس الاندفاع العسكري نحو المواجهة..

ولكن قيام الحركة الخبيثة للضباط عام 1952 أنشأ ضرورة الحكم على العدو الجديد.. لينشأ معها الأساسية العقدية التي اكتملت في كتابات الأستاذ سيد قطب.. مما أنشأ خلافا خطيرا تحول بالحركة الإسلامية إلى متاهات فكرية، تسببت بدورها في تراجع المنهج الحركي إلى الصفر الذي بدأ منه شباب الحركة الإسلامية مرحلة ما بعد تنظيم 65..!

فكان الخلل في العلاقة الجدلية الصحيحة بين الفكر والحركة هو أخطر ما واجهته الدعوة في تلك المرحلة..

فجرى إنشاء الأساسية العقدية على حساب المستوى الحركي للدعوة، بعد تغييب أصحاب الحركة في السجون..

ورغم ذلك، فقد كان إنشاء الأساسية العقدية -في نفس الوقت- شرطا لبداية جديدة صحيحة حققت

منطلقا تاريخيا للحركة حتى الآن..

لتبدأ الدعوة بعد توافر الأساسية العقدية بخبرة حركية ضعيفة، تمثلت في عدة محاولات لم تدخل منها حيز التنفيذ سوى محاولة الفنية العسكرية، وبفكرة خداعية غير قائمة على المواجهة العسكرية الفعلية.

وذلك بعد انقطاع الصلة العملية بين أصحاب المستوى الأول في الحركة -بسبب سجنهم- وأصحاب المحاولات الأخيرة الذين بدءوا بخبرتهم وإمكانياتهم الذاتية.

ولكن البداية الجديدة للأساسية الحركية بخبرة المبتدئين وإمكانياتهم الذاتية أظهرت خطا حركيا خطيرا؛ وهو الارتكاز على الخبرة الشخصية والذكاء العقلي، حتى بلغ الأمر أن تكون أهم مراجع الحركة.. كتابات حرب العصابات وتجارب الكفاح المسلح التي لا تمت إلى الإسلام بصلة!

الأمر الذي أنشأ -بالضرورة- الأساسية الثالثة، وهي الأساسية الشرعية، الداعية إلى الالتزام بالدليل الشرعي في كل مراحل الدعوة، وضرورة أن يكون لأصحاب الدعوة سلف في كل موقف أو تصرف، والاهتمام بالعلم الذي تتوفر به الأدلة، حتى لا تكون دعوة داعية إلى إقامة المجتمع المسلم.. وهي تفتقد شرعية حركتها وسلفية منهجها!

وهي أساسية جوهرية أسهمت بصورة طيبة في تأصيل الدعوة من حيث قضيتها وأسلوب جمع الناس حولها..

ورغم أن هذا التأصيل قد تم من خلال الأساسية

العقدية؛ فكان لأصحاب سلفية الدعوة فضل تثبيت هـذا التأصيل الشرعي في الواقـع بسـبب تواجـدهم في هـذا الواقع بصورة واسعة.

وأخـــيرا.. ونحن نواصـــل تحليـــل أساســـيات المنهج الكامـل من حيث الواقـع، يجب الانتبـاه إلى حقيقـة أن الخطأ والصواب كان احتمالا قائما على جميع من حاول إبراز أي أساسية من هذه الأساسيات إلى الواقع..

ولكن قيام الاحتمال لا يلغي فضل المحاولة..

وهـذا مـا كـان واضحًا في إبـراز الأساسـية القدريـة بصـورة كبـيرة؛ وذلـك لأن الفشـل المتلاحـق لتجـارب الدعوة في مصر جعل أصحاب الدعوة يبحثون عن علـة هـذا الفشـل، فكـانت أهم محاولـة للبحث هي: الاتجـاه القائل بأن الدعوة لها أسباب وسـنن يجب ارتبـاط منهج الحركة بها، كما يجب ارتباط منهج الحركة بأحاديث آخر الزمان وعلامات الساعة..

وحـتى في سـياق هـذه المحاولـة.. حـدثت تجـارب خاطئـة، لم تحقـق الارتبـاط بين منهج الحركـة والسـنن الثابتة وأحاديث آخر الزمـان وعلامـات السـاعة بصـورة صحيحة، ولكن فضل إبراز هذه الأساسية لم يـذهب مـع خطأ المحاولة، حيث التقط آخرون هذا التوجه الحــركي ليعـالجوا أخطاءهـا، ويحـددوا التصـور القـدري الصـحيح لمنهج الحركة.

وما أن بلغت الدعوة هذه المرحلة المنهجية الهائلـة -والــتي تــوافرت واســتقرت فيهــا الأساســية العقديــة والحركية والشرعية والقدرية- حتى انطلقت بكل قوتهـا وبكـل اسـتعدادها للبـذل والتضـحية؛ فتجـاوزت الـدعوة مرحلة الجدل وغموض السبيل وقصر الرؤيـة الصـحيحة

للعمـل؛ الأمـر الـذي تطلب إبـراز الأساسـية السياسـية لتحقيق ضبط القوة وتوجيه الاستعداد؛ ليتحقق أكبر قدر من الأهداف المحددة للدعوة..

وبعد هـذه المقدمـة المنهجيـة نعـود إلى واقـع الحركـة الإسلامية في مصر من بدايتها.

الإخوان المسلمون كبداية تاريخية:

كانت تجربة الإخوان واقعا جامعا لكل تجارب الدعوة الحركية والفكرية، حتى ظهرت كتابات سيد قطب التي مثلت نقلة نوعية لمجموع تلك التجـارب، ليـتربى عليهـا الشـباب الـذين دخلـوا بعـد ذلـك في تجربـة الفنيـة العسكرية، لتكـون تجربـة الفنيـة منطلقـا تاريخيـا لعـدة محـاولات حركيـة عـرفت باسـم تنظيمـات الجهـاد 77-97.. حتى أحداث 81 التي كانت امتدادا فكريـا وتربويـا لكل الأحداث السابقة عليها..

وقد لخصت كلمة كارم الأناضولي في محكمة الفنيـة العسكرية الدرس التاريخي المـأخوذ عن هـذه التجربـة، وكـانت ملهمـة لهم في اسـتمرارهم حـتى الـدخول في تجربتهم الجديدة في 81.

ولعل أبرز الأمثلة الدالة على ذلك الامتـداد؛ أن يكـون محمد عبد السلام فـرج -وهـو من أهم عناصـر التجربـة- امتدادا مباشرا لتنظيمات الجهاد السابقة عليه..

الخلية الأولى:

وتمامـا مثلمـا يكـون الأمـر في الكـائن الحي.. يكـون الأمر في واقـع الـدعوة، حيث يحمـل الكـائن الحي كـل خصائص الخلية الأولى..

ومثلما تـؤثر الظـروف المحيطـة بخليـة الكـائن الحي فيها.. تؤثر ظروف الخلية الأولى للحركة..

فما هي ظروف الخلية الأولى للحركة؟

لقد أوجد الله بقدره ثغـرة في هـذا الواقـع، لتكـون أول ظرف مناسب للخلية الأولى، وكانت هذه الثغـرة هي بقايـا صغيرة جدا من أهل السنة، في حالة تقوقـع وانقطـاع عن المجتمـع، حظيت باسـتثناء نـادر من بطش نظـام عبـد الناصر، بسبب بعدها عن السياسة والواقع، في مقابلة فكر جماعة الإخوان المنغمس في السياسة والواقع..

ومثلت جماعة أنصـار السـنة المحمديـة أكـبر وأقـوى ظهور لهذه البقايا..

فلم ينتبه لها أحد، لأنها هي نفسها لم تكن تدري أنهـا ثغرة!

كان الأمن مطمئنا إلى الجماعـة لأن قضـيتها -قضـية القبور والأضرحة ومحاربة البدع- لا تمثل خطرا أمنيا..

كما أن الجماعة كـانت محـدودة جـدا بزوايـا قليلـة لا يرتادها إلا بعض المسنين السنيين المنعزلين عن الناس والمكروهين منهم!

لكن قضـية الجماعـة وظروفهـا كـانت هي نفسـها أساس صلاحيتها كحاضنة للخلية الأولى!

فالقضـية زرعت في الخليـة الأولى أخطـر خصـائص الحركة الصـحيحة، فمن الناحيـة التربويـة كـانت عقيـدة التوحيد، والحياة بمقتضياتها، والولاء لأهلهـا، والمفاصـلة مع المجتمع عليها..

كما أن اقتراب الشباب من الجماعة أوجد ترحيبا شديدا من شيوخ الجماعة، فتعاملوا مع الشباب حديثي السن باعتبارهم إخوة، مما أحدث نضجا في شخصية هؤلاء الشباب..

ومن الناحية الفكرية كان التعامل مع النصوص الشرعية «القرآن والحديث» هو الذي أوجد أساسا سلفيا لتفكيرهم، كما كان هذا الأساس حافظا لهؤلاء الشباب من أي تيارات فكرية معادية للإسلام، مثل الصوفية والشيوعية التي كانت منتشرة في المجتمع بصورة خطيرة للغاية..

ورغم تركيز الجماعة دعويا على قضية الأضرحة؛ إلا أن التعامل مع النصوص الشرعية بصورة مباشرة -قراءة القرآن والحديث- وفقا لمنهج للجماعة كان أساسا في تكوين تصور كامل للإسلام، وخصوصا عند قراءة كتب الجهاد والغزوات والسير والحدود في صحيح البخاري ومسلم.

وكذلك كانت الجماعة هي مكان التعرف على كتابات السلف الصالح.. كتب ابن تيمية وكتب ابن القيم..

هذا من حيث قضية الجماعة، أما من حيث ظروف الجماعة.. فقد كانت عزلتها سببا في بعد هؤلاء الشباب عن المتابعة الأمنية!

وهناك حقيقة مهمة بخصوص جماعة أنصار السنة، وهي أن البداية التاريخية للجماعة كانت قائمة على المعنى الكامل للتوحيد، «الحكم والنسك والولاء»، من خلال الشيخ حامد الفقي مؤسس الجماعة، وهناك وثائق تثبت ذلك..

وظل لهذا التصور الكامل أثرا باقيا في الجماعة، كان سندا لشباب الخلية الأولى عندما وصلوا لهذا التصور وأعلنوه بين الجماعة..

ولكن المساندة تمثلت في نصح الشيوخ بتقدير موقف الشباب الذي ينطق بالحق، ونصح الشباب بالمحافظة على الجماعة حتى تستمر الدعوة..

ولأن بقاء شباب الخلية الأولى في الجماعة كان أمرا صعبا أو مستحيلا، فقد خرج الشباب من الجماعة، لينتقلوا إلى ظروف أخرى وهم لا يملكون أي خبرة.. أو إمكانية.. أو تأييد.. أو تصور.. إلا ما تعلموه من الجماعة!

الخروج إلى المجتمع المصري:

لقد ظلت مجموعة الشباب تقرأ النصوص بعيدا عن الواقع، وكان من الصعب أو المستحيل الاستمرار علي هذه الحالة، فكان لابد من الخروج للمجتمع، ولكن كيف؟! توزع اتجاه التفكير في هذه المرحلة إلى عدة اتجاهات:

- البقاء علي حال القراءة حتى يكتمل التصور الشرعي اللازم للخروج إلى الناس..

- أو الخروج كضرورة شرعية ليتحدد مع هذا الخروج وباستمراره أساسيات التصور المطلوب..

والحقيقة أن كلا الموقفين بقيا كمنهج ومنطلق فكري للمناهج القائمة حتى المرحلة التي تعيشها الدعوة الآن!

فخرج أصحاب الموقف الأول ليتعاملوا مع الناس

بنفس النظرية الـتي تبنوهـا قبـل خـروجهم إلى النـاس، فبقي أصـحاب هـذا الموقـف على الدراسـة النظريـة، ليكون الحد النهـائي للمواجهـة مـع المجتمـع هـو مهمـة تفهيم من أراد الفهم من الناس، واعتبار العلم هو بدايـة العمل الإسلامي ومنتهاه..

وخرج أصـحاب الموقـف الثـاني ليمارسـوا المواجهـة بصورة عمليـة دون خطـة أو تصـور محـدد، وتمثلـوا في موقفهم هذا موقف إعلان الدعوة على الناس في عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم..

خرج الشباب إلى النـاس بإحسـاس الصـحابة عنـدما صدعوا بالحق في مكة، وتصوروا نتيجـة هـذا الإحسـاس أن الناس ستتعامل معهم مثلمـا تعامـل كفـار مكـة مـع الصحابة، لكنهم فوجئوا بترحيب النـاس بهم، وارتيـاحهم لدعوتهم، وتجاوبهم معهم، ولم يكن شيء ممـا توقعـوه في مخيلتهم، فاختلطت مشاعر الغرابة والفرح..!

لقد كان راسخا في إدراك هـؤلاء الشـباب أن المنهج المطلــوب تحديــده لن يكــون صــحيحا.. إلا من خلال المواجهة! وكانت هـذه هي الحقيقـة الأولى المسـتفادة من تلك التجربة..

ولكن تجربة المواجهة الأولى كـانت مـع العامـة، ولم يكن في حسـاباتهم أن هنـاك من سـيكون لـه موقـف قريش الذي كانوا يتوقعونه من البداية..!

مصر.. عبد الناصر:

ابتداء من الحضانة التي كان أشهر شعاراتها: «يا رب احفظ بابا جمال»..

ومرورا بالمرحلـة الابتدائيـة ذات المنـاهج المشـحونة

بالأفكار الاشتراكية وشخص عبد الناصر..

والمرحلـة المتوسـطة الـتي تتواصـل فيهـا المنـاهج الموجهـة، وتكـون فيـه الـرحلات الإجباريـة إلى الهـرم والسـد العـالي؛ لربـط الشـباب تاريخيـا بالفراعنـة بنـاة الهرم، وحاضرا بالزعيم باني السد..

وانتهـــاء بالجامعـــات الـــتي فـــرغت فيهـــا قاعـــات المحاضرات، بعد توزيع الطلبة على الرحلات والمؤتمرات والمعسـكرات ومسـيرات التأييـد والبيعـة مـدى الحيـاة للزعيم الملهم..!

كان الأستاذ الجامعي الملحد.. هو النموذج الاجتماعي لشباب مصر..

وكان الكتّـاب الـذين يكتبـون القصـص الـتي تتضـمن القيم والمفـاهيم والتقاليـد المعاديـة للإسـلام هم رمـوز الأمة..

ومن القصة إلى الفيلم، من أجل صناعة مجتمع كافر بكل أبعاد الكفر الصريح..

جميـــع الكتـــاب والمفكـــرين والصـــحفيين ملـــزمين بالهجوم على الإخوان كرمز للدعوة، وكان هـذا الهجـوم هو الإذن الرسمي بالدخول في أي مجال إعلامي..

كانت البراعة والعبقرية تقاس بمستوى هـذا الهجـوم المفروض..

وهكذا كان التعليم.. وهكذا كان الإعلام والثقافة..

كانت المؤسسات الدينية جميعها وبكل توجهاتها -وبلا استثناء- تجتمع وتتفق وتنطلق عندما تكون المهمــة هي

الإنكار وبشدة على الإخوان أو أي عمل من أعمالهم..

وفي المقابل كان التدين يعني التصوف، وكانت كل المحاولات السياسية لإثبات تدين القائمين على السلطة هي زيارة ضريح الحسين!

وكان الانتماء للدين لا يعني سوى أخذ العهد على شيخ من شيوخ الطرق الصوفية!

وفي ذلك الوقت كان الشباب المواظب على الفرائض يبحثون له عن راقٍ، يتهامسون حوله: هل به مس؟

كان الشباب المواظب على الفرائض يصلي الفجر سرًّا دون أن ينتبه إليه أحد، بعد انتشار إشاعة تقول أن من يصلي الفجر يقبض عليه..

كان كافيا لفض أي تجمع.. أن تحاول شرح آية: **{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ}** [المائدة: 44]..!

كان الناس يشيرون إلى أحد البيوت قائلين: البيت ده فيه واحد من الإخوان!

ومن هذا الواقع كانت المواجهة..

وكان طرف المواجهة مع هؤلاء الشباب هو التنظيم الناصري..

مجتمع له تنظيمه الداخلي «الاتحاد الاشتراكي العربي»، على رأسه لجنة مركزية كل عضو من أعضائها كتلة لحمية حاقدة على الإسلام..

تنظيم كرأس الإخطبوط الجاثم بجسده فوق قلب

مصـر، يعـد النبض، وتمتـد أطرافـه فـوق كـل أطرافهـا، لينقـل الحركـة والهمس، فلا عزبـة ولا كفـر ولا نجـع ولا قرية.. إلا وترى فيهـا لافتـة الشـؤم: الاتحـاد الاشـتراكي العربي..!

مجتمع ينتمي إلى الاشتراكية المتمكنـة الـتي فـرخت كوادر مغسولة المخ تحت مظلـة الدراسـات السياسـية الـتي أنشـئت لهـا خصيصًـا كليـة أو مغسـلة الاقتصـاد والعلوم السياسية، التي لا يلتحـق بهـا إلا أصـحاب أعلى درجات الثانوية العامة، لدراسة الإخوان أعـداء الثـورة.. من خلال المناهج ورسائل الماجستير والدكتوراه.

مجتمع له زعيمه.. الـذي اجتمعت فيـه كـل خصـائص الزعامـة القوميـة، صـوت وصـورة.. من يؤيـده عالميًّا: الكتلـة الشـرقية، ودول عـدم الانحيـاز علنًـا، وأمريكـا والغرب سرًّا.

مجتمع.. له شعبه الذي كانت تتعلم فيه الأجيال النطق على حروف كلمة جمال، مرورًا بكـل المـواهب الشـعبية التي جمعها جهاز إعلامي أقنع الشعب بأن هزيمـة 1956 كـانت انتصـارًا، رغم ضـياع قريـة أم الرشـراش سـابقًا -إيلات حاليًا!-، وشرم الشيخ، وفقـد القـدرة على التحكم في مضـيق تـيران، وزرع القـوات الدوليـة في سـيناء للمرة الأولى..!!

ثم رتب هذا النظام الفاجر الاحتفالات بعيد النصـر من تـاريخ ضـياع الأرض، وجعلـه إجـازة قوميـة تتعطـل فيهـا المصالح والهيئات الحكومية والمدارس!!

حـتى الفن: ابتـداءً بـالأراجوز.. وانتهـاءً بالمسـرح والسينما!

ابتــداءً بالمنولجست[200]... وانتهــاءً بــأرقى القصــائد الـــــــــــتي جعلت الســــــــــــد معجــــــــــــزة عبد الناصر... معجزة ليس لها أنبياء[201].

ثم إثبات النبوة لصاحب المعجزة التي ليس لها أنبياء على لسان الشاعر الذي قال في عزاء جمال بعد موته: «قتلناك يا آخر الأنبياء!!».

والذي «ساب له في يده مصر أمانة»[202].

والذي بلغ أن جعل لعيد الثورة صلاة.. «في صـلاة العيد: عيد الثورة بناجيك.. يا رب».

مجتمع له زعيمه الذي أعلن قرار ضـرب سـوريا بعـد حركــة الانفصــال وإنهــاء الوحــدة.. **فصــفق النــاس تصفيقًا حادًّا ملتهبًا**..!

ثم قــرر في نفس الخطـاب عـدم ضـرب سـوريا لأن الــدم العــربي لا يســفك بيــد عربيــة.. **فصفق النـاس تصفيقًا، كان أيضًا حادًّا وملتهبًا**..!

التصـفيق على التنـاقض.. التصـفيق على أي شـيء.. التصفيق وحسب..!

وبعــد أي خطــاب تــنزل المانشــتات المكتوبــة قبــل الخطاب:

صــدى عــالمي.. وزارات العــالم الخارجيــة ومراكــز البحــوث العالميــة تحلــل الخطــاب.. انخفــاض ســعر

---

200 (?) على أنغـام السمسـمية: إذا قـابلت الإرهـابي.. فاضـربه يـا سـيدي بالقبقابي.. (سيد الملاح – 1969).

201 (?) معجزة ما لها من أنبياء.. أدورة أرض بغير فضاء؟!

202 (?) كما في أغنية عبد الحليم حافظ: سيبنا في إيدك مصـر أمانـة، وهي كلمة عامية مصرية تعني: ترك.

الـدولار.. الجيش الإسـرائيلي يرفـع حالـة الاسـتعداد القصوى..

لقـد كـان العـالم وراء عبـد الناصـر في حربـه على الإسلام، فكانت المرحلة الناصرية الاشتراكية..

ولم تقف حرب عبد الناصر على الإسـلام عنـد حـدود مصر:

- انضـم إلى الحبشـة في عـدوانها الصـارخ على إريتريا..

- وانضـم إلى القبارصـة اليونـان في نـزاعهم مـع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهـر يسـتقبل مكـاريوس عدو الكيان الإسلامي للأتراك..

ولكي لا يتم استثارة الشعور الإسلامي.. كان لابـد أن تتم هذه الحرب بأداة معاديـة للـدين، تقضـي عليـه دون كشف الوجه الصليبي في العداء..

فعنـدما انضـم إلى الهنـد في خصـومتها المُـرَّة ضـد باكسـتان المسـلمة.. كـان ذلـك تحت مظلـة الحيـاد الإيجابي وعدم الانحياز التي تبناها عبد الناصر مع نهرو..

وتحت نفس المظلـة تم غض الطـرف عن المـذابح التي أقامها الصرب لمسلمي البوسنة تحت قيادة تيتو..

وعندما انضم عبـد الناصـر إلى تنجانيقـا –أحـد أقـاليم تنزانيا حاليًا- وغض الطرف عن المذبحـة الشـنعاء الـتي أوقعتهـا بشـعب زنجبـار المسـلم، ورحب آخـر تـرحيب بنـيريري السـفاح تحت مظلـة الاشـتراكية، حيث كـان نيريري يتظاهر بالاشتراكية وهو قسيس كاثوليكي!!

لقد كان عبـد الناصـر حريصًـا على ألا تكـون صـورته معادية للإسلام حتى يتمكن من القضاء علية دون إثـارة النخوة الإسلامية في الدفاع عن الدين..

وكـانت مراعـاة هـذه النخـوة بالتأكيـد على الإيمـان بوجـود اللـه والرسـالات السـماوية، والفـرق بين الاشتراكية والشيوعية..

كما كانت هناك عدة قرارات مواكبة لضرب الإسـلام، منها إنشاء إذاعـة القـرآن الكـريم، وإنشـاء دار التحريـر التي طبعت كتب الـتراث «كتـاب الشـعب»، وذلـك إلى حين.. حتى يتم قتل الشعور الإسلامي..

وفي هـذه الظـروف كـان لابـد أن تأخـذ العلاقـة بين هؤلاء الشباب طبيعة الخلية، لأنهم كـانوا في حاجـة إلى مسـاندة نفسـية أمـام هـذه الظـروف، فلم يكن لهم مساندة إلا من ذات أنفسهم، فتكونت وبصـورة طبيعيـة ونفسية ما اتفق على تسميته الخلية الأولى..

تكونت الخلية في مرحلة أمنية مناسـبة -بفضـل اللـه وتقديره سبحانه وتعالى- وكانت عناصر المرحلة:

- شباب صـغير السـن يأخـذ على عاتقـه الـدعوة إلى الله..

- نشأت هذه الفكرة عنـده دون أن يكـون لـه نمـاذج يقتدي بها، وإخوة كبار ينصحونه..

- كان تركـيز الحكم الناصـري منصبًّا على الإخـوان أو بقاياهم في السـجون، حيث كـانوا لا يتصـورون أنـه من الممكن أن يكـون هنـاك دعـوة إلا من خلال الإخـوان، ولأن الإخوان في السجن.. فقد انتهت المشكلة!

- عدم رغبة صلاح نصر في التعامل مع الأحداث التي كـانت بعـد القضـاء على الإخـوان بشـيء من الاهتمـام، وعــدم الرغبــة في تصـعيدها إلى رجـال السـلطة بعــد إعطائهم تقريرًا بانتهاء المشكلة بعد مذابح الإخوان.

كما أن ارتكاز الـدعوة في البدايـة على أفكـار بعيـدة عن فكرة الوصول للسلطة أحـدث نوعًـا من الاسـتهانة بالدعوة.

حيث بدأت الدعوة بالاهتمـام بأحكـام الهـدي الظـاهر «اللحيــة – الحجــاب» من ناحيــة... ومن ناحيــة أخــرى ظهرت فكرة العزلة والهجـرة، وكلهـا أفكـار بعيـدة عن المواجهة.

كمـا أنـه لم يكن هنـاك أجهـزة أمنيـة تابعـة للداخليـة بمعنى الكلمة، بل كانت مكاتب مهملـة تابعـة للأقسـام، وقد كانت المخابرات العامة هي المكلفة فعلًا بمواجهــة الدعوة الإسلامية.

ثم حـدثت ظـروف غـير متوقعـة، أدخلت الخليـة في مرحلة أمنيـة جديـدة، وتمثلت في الإعلان عن اكتشـاف تنظيم سيد قطب!

اكتشاف تنظيم سيد قطب:

أعلن عبد الناصـر -وهـو في الاتحـاد السـوفييتي- عن ضبط تنظيم 65، قائلًا بافتخار: لقد اعتقلنا 18 ألف في ليلة واحدة «وهذا هو الشرق»..

- ســافر المشــير عبــد الحكيم عــامر للاتفــاق أو للموافقة على أكـبر صـفقة سـلاح فرنسـية لمصـر بعـد أحداث التعذيب التي تمت في السجن الحربي.. «وهـذا هو الغرب».

وجــاء الإعلان عن الصــفقة في المجلات المصــرية، وعلى غلافهــا صــورة المشــير وعلى صــدره نياشــين وأنواط الكذب والوهم..

حــتى يــذكرنا منظــره القــبيح بقبح شــجرة الجاهليــة «ذات أنواط»[203].

وداخل المجلة الرجل الحقيقي فعلًا، المفكــر القــدوة الحبيب، ملء القلب والعين «سيد قطب» جالسًا وحده في ساحة السجن، وبذلك يقولـون: هـذه هي الصـفقة.. وجاء دور الثمن!

مقتل سيد قطب:

كان الترتيب الطبيعي للموضـوع، أن تكـون «كتابـات سيد قطب» قبل «مقتل سيد قطب»..

لكن الحقيقة أن شـباب الحركـة الإسـلامية في هـذه الفترة لم يعرفوا سيد قطب إلا بعد قتله، فكان الترتيب الصحيح هو ما يوافق ترتيب العلاقـة والتـأثير، بين سـيد قطب وواقع الدعوة في هذه المرحلة.

والتقـــييم السياســـي لموقـــف ســـيد قطب يمكن استيعابه من خلال أثـره في واقـع الـدعوة، وكـذلك من خلال حجم المحاولة الجاهلية في مقاومة هذا الأثر..

والحقيقة أن فهم كتابات سيد قطب لن يكون كـاملا إلا بمعرفة عدة حقائق أساسية:

- أن كتابـات سـيد قطب **كتابات دعويــة تربوية**..

---

203 (?) وكانت صورة الغلاف لإحـدى المجلات الملونـة هي صـورة المشـير عبـد الحكيم عـامر الملونـة أحمـر وأصـفر والنياشـين المعلقـة وأنـواط النصر والواجب والشجاعة.

كتبت ليستطيع من يقرأها النطق بما فيها والدعوة إليها وترديـدها على أسـماع النـاس، ولم يكن الهـدف منهـا مجرد تحصيل علمي أو معرفي، وهذا ما يفسـر التكـرار والتنوع في العبارات الدالة على المعنى الواحد، وهو ما ظنه البعض مجرد أسلوب أدبي.

- كتابـات سـيد قطب **كتابات إنسـانية ونفسـية**، فعنـدما كـان يعرِّف الاسـتواء على العـرش كـان يـذكر القول السلفي القاطع فيقول: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة..

ولكنه كان أحيانـا يعـبر عن إحساسـه الإنسـاني تجـاه حقيقـة الاسـتواء، كيـف يتعامـل مـع هـذه **الحقيقـة السـلفية في الاسـتواء** تعـاملًا وجـدانيًّا، فيظن المتربصون به أنه يؤوِّل الأفعال والصفات..!

- كتابـات سـيد قطب **كتابـات مواجهـة واقعية**، فعندما عَرَّف الإسلام بأنـه تصـورات اعتقاديـة، وشـعائر تعبدية، وأحكام قانونية، وأن الإسلام له ثلاث مرتكزات: الحكم والنسك والولاء.. إنما كـان يواجـه واقـع تحكمت فيـه مفـاهيم خاطئة؛ منها: أن الإسـلام يكـون بمجـرد القيـام بالجـانب العقـدي أو التعبـدي فيـه دون الاعتبـار لقضية الحاكمية.

ولم تنتبـه السـلطة الجاهليـة في مصـر هي الأخـرى لخطورة كتابات سيد قطب إلا بعد اكتشـاف تنظيم 65، فبدأ الهجوم عليها منذ هذا الوقت حتى الآن!

وقد كان الهجوم السخيف على كتابات الأسـتاذ سـيد قطب سببًا في تعرف الناس عليها، وكان من أول هــذه السـخافات أن يصـدر الاتحـاد الاشـتراكي العـربي كتابـا لعبد العزيز كامل وزير الأوقاف يرد على كتاب «معــالم

في الطريــق» بعنــوان: «معــالم في طريــق الخيانــة والرجعية»، يتهم فيه الأستاذ سيد قائلا ومتعجبًا:

سبحان الله! هل يريد سيد قطب أن يـنزل اللـه على الأرض ليحكم بنفسه..

الشهادة:

من أبرز حقائق الإسلام: حقيقة الشهادة..

وفهم هذا الدين: هو تحقيق مقتضياته وحقائقه..

ومقتضـى حقيقـة الشـهادة: الإخلاص والـتزام الحـق، ويجمعهـا في الإسـلام: «الاسـتعداد للمـوت في سـبيل الله».

لأن هــذا الاســتعداد يســتحيل حدوثــه في الواقــع إلا بالإخلاص والطاعة، ويصبح الاستعداد للموت أقوى أدلــة الحق في واقع صاحب هذا الاستعداد..

ومن هنا جاء معنى الشهادة..

إن صــاحب هــذا الاســتعداد بذاتــه أقــوى دليــل على الحــق، وتصــبح هــذه الشــهادة أقــوى أســباب الفهم الإســلامي على الإطلاق؛ لأن الفهم بالــدليل، والشــهيد أقوى درجات هذا الدليل.

وهذا مشرك يقتل مسلمًا فيقول المسلم وهو يُقتــل: الله أكبر.. فزت ورب الكعبة، فيسلم المشرك.. بعد أن تلقى من المسلم الشهيد الدرس الأخير.

وها هم فتية الدعوة الأوائل يقرؤون الظلال قبـل قتـل سيد قطب، ويمرون عليه دون أن ينتبهـوا إليه.. ثم يُقتـل سيد قطب؛ فيرجعون إليه ويعكفون عليه، ويتحقــق أكــبر

نطاق من الفهم الإسلامي الصحيح في الـزمن القـريب.. ويخدم الدعوةَ دمُه قبل قلمه.

وباختصار شديد: فإن كتابات سـيد قطب هي أول الكتابات الحديثة التي تنطبـق فيهـا الشـروط الصـحيحة لكتابات الحركة الإسلامية.

فكان التواجد السريع للحركة الإسـلامية من العناصـر الـتي تـترقب فرصـتها، الأمـر الـذي لم يتوقعـه أحـد وبأقصى درجـات الفهم الصـحيح المـأخوذة عن كتابـات سيد قطب بصفة أساسية.

ثم كانت النكسة..

فبـدأ التخفيـف من وطـأه القهـر الناصـري للشـعب، الذي حقق للدعوة فرصة حركية أوسع بين الناس..

وبدأ في نفس الوقت اسـتغلال الشـيوعيين للموقـف ومحاولـة القضـاء على حكم عبـد الناصـر، وحقـق هـذا الاسـتغلال الشـيوعي فرصـة أكـبر للحركـة الإسـلامية كمواجهة للمد الشيوعي الخطير في مصر.

فبـدأ سـقوط الاتجـاه الاشـتراكي، ولجـأ النـاس إلى ربهم حتى ينصرهم، وحدثت موجة تدين طبيعية.

ومات جمال..

وتـولى السـادات الـذي اضـطر إلى رفـع شـعار العلم والإيمـان لمواجهـة الخطـر الشـيوعي، ولا تـزال حركـة الشباب صغير السن مجهولة لدى الأمن، ويقرر السادات إعطاء فرصة للاتجاه الإسلامي -والذي كان قائما بالفعل- لمواجهة الشيوعية، وفي الوقت الـذي ظن أنـه سينشـئ الرغبـة في التحـول إلى الاتجـاه الإسـلامي من أساسـها

كتصرف سياسي.. لم يكن يـدري أن هنـاك من سـيلتقط فرصة وجوده الغالية.

لقد كان السادات كمن يشعل عودًا من الثقـاب وهـو لا يـدري أن الغرفـة معبئـة بالغـاز.. وتضـمنت تصـفيته لمراكز القوى التي خلفها نظام عبد الناصر بعـد أحـداث 15 مايو 1971 فرصة أمنيـة هائلـة للحركـة، حيث أدت إلى تسـريح الفريـق الـذي كـان مسـئولًا عن متابعـة الحركـة الإسـلامية، ممـا أدى إلى إضـعاف جهـاز المخـابرات، في حين كـان جهـاز أمن الدولـة بسـيطًا لا دور له.

ويمكن تحليـل تلـك المرحلـة في هـذه العناصر:

- الدعوة قضية فطريـة بالأسـاس.. وليسـت مجـرد تلقين..
- الغباء غير الطبيعي من جانب الحكم الناصري.
- قدر الله الغالب على أمره..
- صـغر سـن الشـباب خفـف من التركـيز الأمـني عليهم..
- صغر سن الشباب جعله متحمسًـا.. وخصوصًـا أنـه لم يقاس من أهوال الفترة الناصرية..
- الرغبة الجامحة في القضـاء على الحكم الناصـري كرد فعل نفسي لأهوال الناصرية.. وكـرد فعـل للخـوف من تكرار هذه الأهوال معهم.

إن نكسـة 67 دليـل قـاطع على أن العـالم لا يسـير وفق خطة محكمة لا يخطئ أصحابها، لأنه لو كان الأمـر كذلك لما كانت النكسة أصـلًا، ولـو على الأقـل في هـذا التوقيت..

لأنه في هذا التوقيت لم تكن جذور الأصالة الإسلامية

قد ماتت بعد.. حتى جاءت النكسة لتتحول أرض مصر إلى تربة خصبة ومناسبة لامتداد وارتفاع هذه الجذور.

كل هذه العوامل ساعدت على إنشاء الحركة الإسلامية لتمثل خط الواقع الذي هيأه الله للدعوة، ثم يأتي خط التطور الطبيعي للحركة ذاتها.

بدأت مجموعات الشباب تنطلق إلى الدعوة من منطلقات مختلفة.. حيث لم يكن هناك واقع قائم للدعوة يمكن النسج على منواله أو السير على منهجه..

وكانت المنطلقات التي انطلقت منها الدعوة محددة:

منطلق الجهاد:

وأصحاب هذا المنطلق كانوا يعتبرون أنفسهم امتدادًا طبيعيًّا لتنظيم سيد قطب، حيث كانت القضية هي محاولة قلب نظام الحكم، وكان التأثير الفكري لسيد قطب قد بلغ مداه، فكانت المحصلة هي التجمع على مفهوم الجهاد بعد أن تعامل الإعلام المصري مع أحداث تنظيم 1965 على أن الجهاد هو الأسلوب الذي انتظمت به الأحداث.

منطلق السلفية:

وأصحاب هذا المنطلق جاؤوا من عدة روافد..

- رافد الدعوة السلفية المتبنية لقضايا الحركة الوهابية، والتي تمثلت بصورة محدودة جدًّا في دعوة أنصار السنة التي كانت متمسكة تمسكًا شديدًا بتلك القضايا..

- رافد الامتداد التاريخي للدعوة السلفية التي بلغت

قوتها في حركة جهيمان في الجزيرة العربية، والتي برز فيها عدم الانضباط الشرعي في منهج الـدعوة، وتجـاوز الاجتهاد العقلي لحدوده في الواقع، إلى درجة أن تكـون الصـلة بين الحركـة والشـرع ليسـت إلا في الانتسـاب والانتماء والهدف، أما الواقـع والأسـلوب فكـان اجتهاديًّا عقليًّا بحتًا، ممـا أوجـد التوجـه السـلفي كمواجهـة لهـذه الظاهرة.

- ثم كـان خـروج الإخـوان من السـجون ليتكـون منطلـق جديـد، وهـو الممارسـة الحزبيـة والنيابيـة والجماعـات الإسـلامية في الجامعـة، والعـودة إلى الأساليب التاريخية الثابتة للجماعة.

وفي غيبة فكـرة الهجـرة والعزلـة عن واقـع الـدعوة ومنهجها.. تطورت الحركـة على مسـتوى مجمـوع هـذه المنطلقات المختلفة، فتمثلت بصفة أساسية في الجهاد والإخوان والسلفية.

اتجـاه الجهـاد.. أعـداد معـدودة من الأفـراد يتبنونـه ويقولون به دون وجود خطة أو تصور لـه، ولا يتجـاوزون مرحلة الكلام..

بعـد تنظيم سـيد قطب بـدأ اتجـاه الجهـاد يظهـر كـل فـترة زمنيـة في محـاولات محـدودة، حـتى تم تكـوين الخلية الأولى التي انتهت بحادثة الفنية العسكرية..

مجموعـة من الشـباب تربـوا على فكـر الجهـاد ولم يطيقوا تحمـل الواقـع المحيـط بهم، فكـان الاتفـاق مـع صالح سرية.. والقيام بعملية الفنية.

وكان من خصائص حركة الفنية:

أنها كانت عقب انتصار حرب أكتوبر؛ الأمر الـذي أكـد

الــرفض الإســلامي للواقــع رغم النتيجــة العســكرية والإعلامية والسياسية التي حققهـا السـادات من حـرب أكتوبر.

كما أنها كانت أول خطـة تـدخل حـيز التنفيذ، رغم أن خطة الفنية جاءت قائمة على فكـرة خداعيـة.. وليسـت على المواجهة العسكرية المباشرة.

وكــانت غالبيــة عناصــرها من طلبــة الفنيــة والطب والهندســة، ممــا فــرض التفســير الإســلامي الصــحيح للأحداث والأشخاص، والعقيدة الثابتة التي ارتفعت فوق مستوى التفسير الجاهلي الهزيل، والإحصائيات الجاهلية التافهـة الـتي تعتـبر هـذه الأحـداث ناتجـة عن أشـخاص يعـانون من عوامـل نفسـية معقـدة وقاسـية أو فشـل اجتماعي.

ثم محاولات ما بعد الفنية التي بـدأت بتنظيم «يحـيى هاشم» الـذي حـاول إنقـاذ إخـوة الفنيـة العسـكرية من السجون.

ثم مرحلــة 81 والــتي تمــيزت بتعــدد منطلقاتهــا التنظيمية، والتي تزامنت فيها مجموعة «القاهرة» التي كان وجودها ممتدًا وموازيًا مع البدايـة الأولى لمجموعـة الخليــة الأولى في الإســكندرية، ثم مــع مجموعــات الامتداد الطبيعي للفنية العسكرية، حتى المحاولـة الـتي بدأها محمد عبد السلام بصورة أساسـية، حيث تـزامنت بدايته هي الأخرى مع وجود عدة مجموعات أخـرى كـان أهمها مجموعة ناهيـا الـتي كونهـا طـارق الزمـر، والـتي كان أهم عناصرها عبـود الزمـر، حيث تـزامن كـل ذلـك أيضًا مع تحول الجماعة الإسـلامية من النشـاط الطلابي في الجامعات إلى العمل العسكري.

لتتكـون الصـورة النهائيـة لواقـع الحركـة العسـكرية السرية التي بدأت من خلالها أحداث المنصة..

أقدار 1401 هجرية

هكذا كان السادات قبل قتلـه يبـذل جهـدًا هـائلًا ضـد نفسه، وكانت أيامه الأخيرة داخلـة بأحـداثها ضـمن قـدر إلهي بقتله، حتى بدا للجميع قـتيلًا يمشـي على الأرض.. وكان تحرك السادات المكثف هو أبرز العلامـات الدالـة على الطبيعة القدرية للمنصة.

فكانت قرارات سبتمبر في الابتداء، مرورًا بالسخرية من النقاب، وسب الشيوخ في الانتهاء.. نقاطًا أساسـية ثلاثًا في خط مقتله، وكـان رد الفعـل لهـذا الخـط وتلـك النقاط هي ذاتها علامة جديدة، وكانت الرغبـة في قتلـه شديدة، حتى بلغ هذا القتل مبلغ الأمنية الهائلة!

ثم كانت مجموعـة العلامـات الفرديـة الـتي سـاهمت كل علامة فيها في تحقيق القدر الإلهي بالقتل، ولعل ما يمكن ذكره:

- أن يأمر السادات –ولأول مرة– الحرس الذي كـان أمام المنصة بالرجوع خلفهـا تحسـبًا لهجـوم متوقـع من الخلف.

- أن يمرض القائد المعين للطابور ليحل محله ضـابط آخر اختار أن يفتش عربة ويترك عربة.. ليجيء دور عربـة الموت في ترتيب العربات التي لم تفتش.

- أن يتـوه الأفـراد المكلفـون بإحضـار القنابـل من الصحراء بعض الوقت؛ فكان هـذا التيـه سـببًا في نجـاة هؤلاء الأفراد من أحد دوريـات الشـرطة الـتي انتشـرت هناك في ذلك الوقت.

- أن تنجو سيارة القنابل التي جاء بها المشاركون من حادثة محققة بالاصطدام مع أخرى قبل الدخول إلى القاهرة بوقت قريب، حيث توقفت السيارتان والمسافة بينهما متر واحد.

وتمت العملية في أقل من وقتها المحسوب وبصورة دقيقة جعلت العالم يطمئن إلى أن تمام هذه العملية نتيجة حتمية لمستوى حركي وسياسي هائل حُسبت فيه التوقيتات ودُرست فيه الظروف.

وتمت العملية وتفجر الوضع السياسي في مصر، وكان أول آثاره الإفراج عن جميع القوى السياسية بعد المنصة، مما جعل من الحركة الإسلامية المنقذ العظيم من خطر الاعتقال لهذه القوى جميعها، ومحور الحركة السياسية العامة في مصر..

وأجبر الجهد المبذول، والتضحيات الهائلة من جانب أصحاب الحركة.. جميع القوى السياسية في مصر على احترامهم وتقديرهم.

ويضاف إلى ذلك.. الكيفية الإعجازية التي تمت بها العملية، والتي كانت دليلًا في نظر الناس على عظمة التفكير وحكمة التدبير، وإحكام العمل ودقة التنظيم..

وفوق ذلك وقبل ذلك.. كان التفسير الحقيقي هو إرادة الله عز وجل: **{وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف: 21].

وكنتيجة لأن المنصة قتل فيها رئيس الجمهورية.. فقد كسر حاجز الخوف من السلطة.

ونتيجة للأسلوب الذي تمت به العملية.. فقد أصبح الشخص المسلم بالنظرة الاجتماعية إنسانًا مفكرًا

ومخططًا وفدائيًّا عظيمًا، بل أصبح نموذجًا اجتماعيًّا.

ونتيجة لمجموع هـذه النتـائج اتسـع نطـاق الانتسـاب للدعوة، وزاد عدد الملتزمين والمتعاطفين معها.

ولكن.. للجاهليـة موقـف تقليـدي ثـابت عنـد هزيمة أي عنصر من عناصرها:

- التــبرؤ من المهــزوم حــتى لا تهبــط الجاهليــة إلى مستوى الهزيمة مع عنصرها المهزوم..

- تأكيـد توجيـه النصـح لـه وعـدم اسـتجابته، للحفـاظ على المستوى السياسي للجاهليـة وعـدم سـقوطه مـع العنصر الساقط..

- إدخال احتمالات خفية في تفسـير الموقـف لتقليـل التجاوب مع الحدث.. وتضييع أثره السياسي.

ولعل أبرز هذه الاحتمالات الخاصة بالمنصة هو القول بأن أمريكا هي الـتي قتلتـه بعـد انتهـاء الاسـتفادة منـه! وكتــاب «خريــف الغضــب» هــو أول من تــرك مســاحة فارغة للاحتمالات الخفية وراء الحادث، وبمرور الــوقت، وبغياب الذين شاركوا في الحادث، سيصـبح من السـهل على أعداء الدعوة إعطـاء المزيـد من المعلومـات، في سياق التفسير الذي يريدونـه؛ حـتى يكـون الواقـع أكـثر تقبلًا لهذه الاحتمالات، في غياب من يستطيع أن يــرد أو يُكَذِّب.

وقبل أن تفيق الدولة من صدمة المنصة، كانت هناك محاولات لإزالة آثار هذه الصدمة المروِّعة، ولكنها كانت ساذجة!

وأبرزها.. محاولة تبديد المكاسـب السياسـية الـتي حققتها الدعوة الناتجة عن الحدث.

وفكرتها.. رسـم الواقـع السياسـي في مصـر من خلال الأحـزاب السياسـية، وتحريـك هـذه القـوى بحيث يتحدد الشكل المطلوب للواقع السياسي في مصر بعـد حادثة المنصة..

وكان المثير للسخرية هو السماح لأحـد هـذه الأحـزاب المصنوعة بإعلان تبني هدف تطبيق الشـريعة الإسـلامية، وهو الأمر الذي لم يكن مسموحا به من قبل إطلاقًا!

وقـد فعلـوا ذلـك ليظهـر هـذا الحـزب كممثـل للقـوة السياسية الإسلامية، فيكون حجم هـذه القـوة هـو حجم هذا الحزب، وتكون القـوة السياسـية الإسـلامية موضـع سخرية المجتمع واستهزائه، من خلال ظهـور المسـئول عنه في المؤتمرات لابسًا الطربوش، معلنـا عن خبراتـه العظيمة في قراءة الكف!

وتخيـل صـاحب هـذه الفكـرة[204] إمكانيـة أن يتصـور الناس أن الحركة الإسلامية بكل رموزها وخبراتها وفكرهـا وطاقتها.. يمكن اختزالها في هذه الأضحوكة السياسية!

النقلة العالمية:

كـان من أهم نتـائج حادثـة المنصـة وصـول أعـداء الـدعوة إلى حقيقـة عجـز الحكومـات الإقليميـة عن مواجهة الحركة الإسلامية، فكان قرار التعامل المباشـر بينهم وبين أصحاب الدعوة..

وكان هذا القرار من أهم الأسباب النهائيـة الـتي أدت إلى النقلة العالمية في الصراع..

---

[204] (?) كان رفعت المحجوب هو صاحب هذه الفكرة.

وفي الوقت الذي ثبت فيه عجز الحكومات الإقليميـة عن مواجهة الحركـة الإسـلامية.. ثبت لأصـحاب الحركـة عـدم جـدوى التعامـل المباشـر مـع هـذه الحكومـات، واستنفاذ طاقة الدعوة في مواجهات مع القـوى الأمنيـة الإقليمية.

وكـانت أفغانسـتان هي أول نمـوذج تـاريخي لهـذا الموقف..

فكـان تـدخُّل قـوات الاتحـاد السـوفيتي لمسـاندة الحكومـة الشـيوعية المنهـارة تحت ضـغط الحركـة الإسلامية في أفغانستان عام 1979.. هو شرارة النقلة العالمية..

في نفس الـوقت كـانت أمريكـا تخشـى اقـتراب السـوفييت من الميـاه الدافئـة في الخليج، وتهديـد وجودها العسكري ونظامها الأمني في الشرق الأوسط، لذلك أوعزت إلى عملائها بما يلي:

- تسمح مصر والسـعودية بجمـع التبرعـات وخـروج الشباب المسلم إلى باكسـتان للتـدرب في معسـكرات باكستانية تحت سمع وبصر المخابرات الأمريكية..

- يتم بيع أسلحة أمريكية لتجريبهـا في الحـرب ضـد أسلحة الاتحاد السوفييتي مقابل الأموال التي تم جمعها من مصر والسعودية..

- تقـوم مخـابرات باكسـتان بالتنسـيق بين فصـائل المجاهـدين الأفغـان، واسـتقبال وتـدريب المجاهـدين العرب..

- توفر المخابرات الباكسـتانية للمخـابرات الأمريكيـة إمكانية التواجد قريبًا من معسكرات المجاهدين ومخـازن

السلاح الأمريكي –الذي تم شراؤه-.

وفي ظل هذه الثغرة بين معسكرات الكفر، حدث الاختراق الإسلامي، فكانت مرحلة توجه الأخوة إلى المواجهة المباشرة مع القوى الجاهلية العالمية في كل مواقعها، وأهمها أفغانستان!

هذه المواجهة التي جمعت كل إمكانيات المسلمين على مستوى العالم في حرب واحدة مع عدو واحد.. هو أكبر دولتين عظميين في العالم..

وأضاف توجه المجاهدين من كل أنحاء العالم إلى نصرة إخوانهم المجاهدين الأفغان قدرًا هائلًا من القوة المعنوية، أدت إلى تعامل القوى المعادية للإسلام مع المسلمين كقوة سياسية لا يمكن حذفها من معادلة الظروف السياسية العالمية..[205]

مما فرض النقلة بصورة واقعية وعملية..

ثم كان «الانتصار الكبير» الذي أنشأ للحركة الإسلامية ثقلًا سياسيًّا لا يمكن لأي أحد أن ينكره، وخصوصًا بعد اليقين من إمكانية الانتصار على أمريكا بعد الانتصار على الاتحاد السوفيتي..

وهو ما بدأ يتحقق الآن فعلًا في أفغانستان، مما ضاعف الثقل العالمي للحركة الإسلامية..

ومن هذا المستوى وبعد تلك النقلة العالمية للمواجهة الإسلامية ثبت الموقف الإسلامي العالمي،

---

[205] (?) بعد اجتماع حلف شمال الأطلسي في إبريل 1989 صرحت مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة للصحافيين: «إننا الآن على وشك الانتهاء من الخطر الذي كنا نخاف منه في الاتحاد السوفييتي، ولكن هناك الخطر الأكبر القادم من خلف البحر المتوسط، وعلينا أن نستعد له»..

وانطلقت كــل إمكانيــات الــدعوة من هــذا المنطلــق الواحد:

«معالجــة الشــعور بـ وحــدة الأمة.. وحــدة العدو.. وحدة المواجهة».

مواجهة المحورية الأمريكية: أحداث 11 سبتمبر

بعد الانتصـار الكبـير على الاتحـاد السـوفييتي، كـانت هناك محـاولات محمومـة من أمريكـا وعملائهـا لاحتـواء من يمكن احتواؤه من رموز هذا الانتصــار، وتصــفية من فشلت معه محاولات الاحتواء..

فكان اغتيال المجاهد عبد الله عزام، وغيره من قادة الجهاد..

ثم احتواء البعض الآخر من خلال إشعال نـار الصـراع على السلطة..

وملاحقـة من تبقى بعـد ذلـك لكي لا يكـون هنـاك أي استفادة إسلامية من الخبرات العسـكرية الـتي تجمعت لدى هذا الجيل..

تمامًا كما حدث مع آثار حرب 1973 في مصـر.. مـع الفارق الشاسع بينهما!

هذا من الناحية العالمية..

أمـا من الناحيـة الإقليميـة، فقـد ظلت الـدعوة فـترة زمنيـة طويلـة دون أن تحقـق كامـل أهـدافها، رغم أنهـا تركت أحداثا فيها بطولات ونمـاذج للثبـات.. كمـا تـركت خبرة حركية يستفاد بها.

ولكن استمرار الدعوة بهذه الحالة كـان أمـرًا يتطلب التقييم..

فقـد ظهـرت في الواقـع متغـيرات جوهريـة، أهمهـا ظهور السيطرة الأمريكية على الحكومـات الـدائرة في فلكهـا، بحيث أصـبح واضـحًا أن الـدعوة أمـام أمريكـا بصـورة مباشـرة، حيث تم اكتشـاف أن الـدول تسـير بإدارة أمريكية لها عملاؤها ومجموعات عملها الخفية.

فتوجهت الحركة الإسلامية بنفس القاعدة التي كانت تتوجه بها إلى السلطات الحاكمة المعادية للإسلام.. إلى أمريكا كمصدر حقيقي لهذه السلطات في العالم.

ليتحـدد المسـتوى الثـابت للصـراع العسـكري بين الـدعوة الإسـلامية وأعـدائها، ابتـداءً من المنصـة حـتى أحداث سبتمبر!

نتائج النقلة العالمية:

كان وصـول الحركـة الإسـلامية إلى أعلى مسـتويات المواجهة هو أهم تلك النتائج، وبجانب ذلك تحققت عدة نتائج مهمة:

- أهمها تحقيق القناعة بقضية الـدعوة باعتبـار ظهـور الظلم الأمريكي والأوربي أمام الجميع، مما أنشأ قناعـة الشعوب بالمواجهة التي تمارسـها الـدعوة، إذ أصـبحت مواجهة مع احتلال أجنبي ليس له أي مبرر.

وكـان المثـال الواضـح على ذلـك سـقوط المـبررات التي أعلنتها أمريكا وأوربا لغزو العراق.

مثل زعم وجود أسلحة الدمار الشامل الـذي ثبت كذبـه باعتراف أمريكا نفسـها.. وزعم نشـر الديمقراطيـة الـذي

انكشـف في العـراق بمـا آلت إليـه أحـوال العـراق بعـد الغزو..

الأمــر الــذي يختلــف عن المواجهــة المباشــرة مــع الحكومات التي كانت الحركـة متهمـة فيهـا بـالطمع في السلطة ومحاولة الوصول إليها.

أمــا القناعــة بالنقلــة العالميــة من جــانب أصــحاب الدعوة: فهو المواجهة بقاعدة جهاد الـدفع، الـذي أوجـد حالة جهاد الدفع الشرعية، وهي حالة متفق عليهــا على مستوى جميع توجهات العمل الإسلامي.

فتحركت العناصر القادرة على الجهاد إلى أفغانستان والعراق لجهاد الدفع المتفق عليه شرعًا..

ـ كمـا أن المحوريـة الأمريكيـة للصـراع مـع الإسـلام أعطى لواقع الصراع طبيعة الحرب الصليبية، مما أوجـد استفزازًا للشعور الإسلامي الـذي حقـق بـدوره تعاطفًـا كبيرًا للطرف المسلم في هـذا الصـراع، وخصوصـا مـع الإعلان بأن الحرب على الإرهاب حرب صليبية..

خاتمة

من أهم شروط الممارسة السياسية الصحيحة للدعوة: الإدراك الصحيح لواقع الصراع الذي تحياه الدعوة الآن..

نحن نواجه كل إمكانيات الجاهلية العالمية في الحرب على الإسلام..

بكل الخبرة التاريخية في الصراع مع الإسلام السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والبحثية والتقنية..

نحن لا نملك إلا الحق الذي نؤمن به..

ونخوض معركتنا مع الجاهلية باحتمال النصر أو الشهادة، وهما الحسنيان اللتان لا تخرج عنهما نتائج المعركة!

فيجب أن يكون لكلتا الحسنيين حظًّا متساويًا في إحساسنا ووجداننا..

والمرحلة التي تعيشها الدعوة الآن محكومة ومطبوعة بحقيقة الشهادة، ولن يكون الموقف الإسلامي صحيحا إلا من خلال حركة السعي للشهادة كاستجابة منهجية لطبيعة المرحلة.

ليكون السعي لتحقيق غاية الدعوة مرتبطًا بتقديم نموذج لمن يأتي بعدنا للثبات على الحق، وليكون هذا النموذج ملهمًا لهم للاستمرار على الدعوة والإصرار على نصرتها.

ومع الحق الذي معنا يكون تأييد الله عز وجل لنا.

وأخطـــر صـــور التأييـــد: غبـــاء الجاهليـــة في تعاملها مع الدعوة!

إن الجاهلية لا تفهمنا، وتعجز عن الوصول إلى حقيقة الإسلام ذاته، والتي ينعكس منها واقعنا..

والشخصية الجاهلية غبيـة بطبيعتهـا، وليس أدل على ذلـك من اقـتراح الكفـار على الرسـول صـلى الله عليه وسلم أن: «تعبد إلهنا يومًا ونعبد إلهك يومًا»!

وليس أدل على ذلـــك أيضًـــا من اقـــتراح الكفـــار أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأن يعطـوا أبـا طالب أحد شباب قريش بدلًا منه، مما أفـزع أبـا طـالب وقال لهم: أعطيكم ابني لتقتلوه، وتعطوني ابنكم أغذوه لكم!

لكن غبـاء الجاهليـة لا يمنعهـا من أن تعاملنـا بـأمكر الأساليب الشـيطانية، فالشـيطان هـو الـذي يقـف وراء الجاهليـــة في حربهـــا على الإســـلام، ولكن بمســـتوى مختلف يعطى الكفار أكبر قدرة تخطيطيـة في مواجهـة الدعوة..

مثلمـا كـان الأمـر في الخطـة المطروحـة من إبليس لقتــل النبي صــلى الله عليه وســلم، بتفريــق دمــه بين القبائل..

لكن مكـر الشـيطان لا يقـف أمـام التأييـد الربـاني للدعوة.

ومن التأييد الرباني لنا: إحاطـة اللـه بأفعـال أعداء الدعوة..

فقد أنشأت حرب العراق واقعًا أفضل للدعوة..

وأدَّى ضغط أمريكا المتواصل على عملائها لشن الحرب بصورة سافرة على الإسلام إلى فضحهم وتعرية مواقفهم وعمالتهم..

وأدت زيادة موجات الانحلال والإدمان التي فرضتها الجاهلية إلى خوف الآباء على الأبناء، فقبلوا بالتزامهم بالدين حفاظًا لهم من الوقوع في شر الإدمان..

وأدَّى إسقاط هيبة علماء الأزهر في نفوس الناس للذهاب بمهابة الدين إلى وضع ثقتهم في رموز الدعوة السلفية، والشباب الملتزم..

ومن التأييد الرباني لنا: تنامي دخول النصارى في الإسلام، رغم كل المعوقات الخارجية والمحبطات الداخلية..

لأن هذا الدين هو دين الفطرة، والتفكير فيه بصدق لا يعني -إذا أراد الله- إلا الدخول فيه!

وقد وصلت هذه الظاهرة لدرجة خطيرة جعلتها محور السياسة الغربية، وموضوع مراكزها البحثية.. باعتبارها قضية حياة أو موت!

ويضاف إلى هذا الخطر أن يتجاوز الداخلون في الإسلام كل العوائق التي تحيط بالمسلمين في بلادهم الأصلية الفقيرة المعدمة، لتكتسب الدعوة مزايا الإمكانيات الشخصية التي يملكها هؤلاء المسلمون الجدد..

وفضلًا عن ذلك، أن يكون الدخول في الدين مرتبطا بالعقيدة السلفية الصحيحة التي يدل عليها عقيدة أصحاب المواجهة ومنطلقهم الفكري.

والله من ورائهم محيط.

التص

فهرس الموضوعات

الموضوع

الموضوع

الموضوع

الفصل الثاني

الموضوع

الموضوع

الموضوع

الباب

الفصل

الموضوع

الموضوع

الموضوع

الموضوع

الموضوع

الموضوع

الموضوع

الفصل

الموضوع

الموضوع

الموضوع